

الدكتور محمد بن شريفة

البسطى

آخر شعراء الأندلس



دار الفَرَب الأندَلُسِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسْطِي
آخر شعراء الأندلس

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

البسيط أشعر الأندلس

شبكة كتب الشيعة

تأليف
الدكتور محمد ابن شريفه

shiaabooks.net

رابطه بديل < mktba.net



جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطبعة الأولى
1985

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. : ٥٧٨٧ / ١١٣
بيروت - لبنان

تقديم

هذه قراءة عامة في ديوان مخطوط لشاعر أندلسي مغمور، لا ذكر له ولا لشعره في المصادر المعروفة، ولولا ظهور نسخة وحيدة من ديوانه في السنين الأخيرة ما وقف له على عين ولا أثر. إنه البسطي آخر شعراء الأندلس.

ويمكن أن نجعل قيمة ديوان البسطي فيما يلي:

أولاً: أنه مصدر وحيد في التعريف بصاحبه الذي نسيته كتب التراجم وأغفل ذكره أصحاب المعاجم، ومن حسن الحظ أن شعر البسطي شديد الارتباط بشخصيته، قوي الاتصال بحياته.

ثانياً: أنه وثيقة تاريخية فريدة تكشف عن جوانب مجهولة من أواخر أيام المسلمين في الأندلس.

ثالثاً: أنه وثيقة أدبية تامة ونادرة تصور مستوى بلاغة أهل الأندلس قبيل ضياع الفردوس المفقود.

وقد قمنا في قراءتنا للديوان بتصنيف مضامينه وتنسيق محتوياته وتوثيق معلوماته ثم وظّفنا ذلك كله في صياغة الفصول الآتية، وحرصنا على سرد الشواهد الكافية من شعر الشاعر لأنه مخطوط وغير معروف، وتعمدنا الاختصار في الشرح والتعليق والاقتصار على ما لا بدّ منه في

العرض والتحليل لأن هذا العمل إنما هو مقدمة بين يدي الديوان المحقق الذي سيظهر قريباً بإذن الله.

وقد أحلنا في كل شاهد من شعر الشاعر على صفحات ديوانه المخطوط وجعلنا أرقام الصفحات بين () أما الحواشي والتعليقات فتوجد في آخر كل فصل، واجتهدنا في تصحيح أخطاء نسخة الديوان المخطوطة وتكميل ما يوجد بها من نقص.

ولا بدّ لنا في هذا التقديم من التنويه بعون صديقنا العزيز الأستاذ الدكتور إحسان عباس، فإن فضله في ظهور هذا الكتاب عظيم، كما نسجل هنا أن الفضل في اكتشاف ديوان البسطي يرجع إلى الأستاذ الجليل محمد إبراهيم الكتاني، ونشكر كذلك صديقنا الكبير الأستاذ عبد الرحمن الفاسي على مساعدته لنا في الحصول على صورة لمخطوط الديوان، والشكر في الأخير لدار الغرب الإسلامي والجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر على قيامها بطبع هذا الكتاب ونشره، والله سبحانه ولي التوفيق.

د. محمد ابن شريفة

مَنْ هُوَ الْبَسْطِي

يعتبر القرن التاسع الهجري في الأندلس قرناً غامضاً ومظلماً، فالمصادر التاريخية العربية فيه قليلة، والروايات الإسلامية الموجودة حوله شحيحة، ولعلّ من أسباب هذا انشغال أهل التدوين والتقييد بالفتن، وارتباكهم في تلك السنين الصعبة، ثمّ ضياع الوثائق والمدونات في غمرة سقوط غرناطة وسواها.

ومن هنا ظلت الروايات المسيحية مرجع الدارسين لحقبة مملكة غرناطة الأخيرة، ولا سيما الثلثين الأولين من القرن التاسع الهجري أما السنوات الأخيرة من هذا القرن فنجد بعض أخبارها في الكتاب الذي نشر عدّة مرات من قبل مولر وشكيب أرسلان ثمّ البستاني وكذلك في أزهار الرياض ونفح الطيب.

وربّما يتبدد بعض هذا الظلام ويتكشف شيء من ذلك الغموض حين تدرس النصوص القليلة التي انتهت إلينا لحسن الحظ من هذا العصر. وهي نصوص مختلفة في طبيعتها، متفاوتة في قيمتها، ولكن فائدتها غير خافية في

الكشف عن الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية لهذا القرن.

وقد نشر بعض هذه النصوص في السنين الأخيرة مثل: ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، ورحلة القلصادي، وبرنامج المُجاري، ووثائق عربية غرناطية، وثبت الوادي آشي وما نُشر من رحلة عبد الباسط المصري والوثائق والرسائل التي نشرت من قبل أستاذنا الأهواني والدكتور أحمد دراج والفقيّد سيكو دي لوثينا وغيرهم.

وقد يُنشر قريباً «جُنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى» لأبي يحيى ابن عاصم، و«مظهر النور الباصر، في أمداح الملك الناصر» لابن فركون وديوان القيسي البسطي، وهو الذي تقدّم قراءة مستوعبة له في الفصول التالية.

لقد وُجد هذا الديوان ضمن مجموع في خزانة تامكروت ونقل مع ما نقل منها إلى الخزانة العامة في الرباط حيث سجل تحت رقم 198ق ويبدو أن ناسخه هو ناسخ الإكليل للنباهي الذي يشتمل عليه هذا المجموع واسم هذا الناسخ محمد بن أحمد بن منصور، وتاريخ النسخ المثبت في آخر الإكليل هو الثامن والعشرون من ذي القعدة عام اثنين وألف.

وتجدر الإشارة أولاً إلى أنه لا ذكر لهذا الديوان ولا ترجمة لصاحبه في المظان التي رجعنا إليها؛ كما أذكر من جهة ثانية أن الزميل الصديق الدكتور محمود مكّي نشر منذ سنوات بمجلة العربي الكويتية (عدد 107) مقالة عنوانها: «عبد الكريم بن محمد القيسي الغرناطي» فله فضل الريادة في التعريف بهذا الشاعر، وإن كنت أستغرب نسبته إياه إلى غرناطة، إذ ليس في ديوانه كله ما يشير إلى أنه أقام بغرناطة.

يبدأ الديوان بعد البسملة والتصلية هكذا: «يقول عبيد الله سبحانه، المرتجي عفوه وإحسانه وغفرانه، [عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي أفاض الله عليه إنعامه وإحسانه].»

وفي هذه المخطوطة الفريدة من هذا الديوان بياضات متعدّدة، وأولها هذا البياض الذي نجده قبل ذكر اسم الشاعر، وهو يجعلنا نتساءل عن معناه، ونتشكك في اسم الشاعر، ونضع في الحسبان احتمال ضياع جزء منه أو تعذّر قراءته في النسخة التي نقل منها هذا الناسخ.

وقد يكون لهذا التشكك في اسم الشاعر معنى إذا نظرنا إلى ما يلي :

1- وجدنا القلصادي في رحلته يتحدث عن أودائه وأصحابه في مدينة بسطة فيذكر منهم الفقيه النبيه الخطيب أبا عبدالله محمد بن عبد الكريم⁽²⁾ ونستفيد من الديوان أن الشاعر كان فقيهاً خطيباً في بسطة.

2- وقفنا في آخر الجزء التاسع من مخطوطة كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الجدل المحفوظة في القرويين على ما يلي :

« انتهى الجزء التاسع من جامع كتاب البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل، وبانتهائه كمل جميع كتاب البيان المذكور وحصل لدى مقيد هذا بخط يده الفأنية محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي كان الله له، وأصلح قوله وعمله، وذلك في غرة رجب الفرد المبارك عام تسعة وخمسين وثمانمائة بمدينة بسطة كلاًها الله تعالى»⁽³⁾.

ونحن نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر كان له حانوتٌ في بسطة يشتغل فيه بالنسخ والتقييد والفتوى والتوثيق والإقراء والتعليم، قال من قصيدة طويلة عند إحراق حانوته ظلماً وعدواناً (146):

فإحراقُ حانوتي - لتنحطَّ رُتبتِي -

يعودُ عليهم بانعكاس المؤمل

فقد كانَ للأحكام مجلسُها الَّذي

تُصانُ بهِ مِنْ مُفسِدٍ أو مُبدِّل

وكان لتقييد العلوم وضبطها
وعقد شروط القوم أقتاً منزل
وشتى فنون العلم - مُذْكَانَ - لم تزل
مُرَدَّدَةً مِنْهُ بِأَشْرَفِ مُحِفِل

كما نعرف من الديوان أيضاً أن الشاعر البسطي كان صديقاً للقاصدي
المشهور المذكور آنفاً فقد كتب الأول إلى الثاني بهذين البيتين (82):

قَلْبِي إِلَيْكَ لَفَقْدِ أَنْسِكَ سَيِّدِي
بِالْبُعْدِ عَنْكَ ذُو غَلِيلٍ صَاد
وعليك إطفاء الغليل وبرحه
بِالْكَتَبِ إِثْرَ الْكَتَبِ بِالْقَلْصَادِي

وكتب إليه مرة ثانية يشكره على إعارته كتاب بهرام في الفقه قال
(82):

جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ أَخِي ثَقَّةٍ
جُدْتُمْ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتُمْ بِيَهْرَامِ^(م3)
وكان إكرامه في ذاك مُتَضِحًا
لَا زِلْتُمُ الدَّهْرَ فِي بَرٍّ وَإِكْرَامِ
وكتب إليه مرة ثالثة - فيما يبدو - مهنتاً بالورود من الحج (105):
رَعَيْتُ لَخِلٍّ حَلٍّ بِالْقَلْبِ ثَاوِيًا
- عَلَى الْبُعْدِ - وَدَّامَحْضَهُ لَمْ أَزَلْ أَرْعَى

رَأَى الْحَجَّ مَسْعَىً لِلثَّوَابِ فَأَمَّهُ
وعاد لنا من حَجِّهِ يَحْمِلُ الْمَسْعَى
وَدَانَ بِجَمْعِ الْعِلْمِ حِلًّا وَرِحْلَةً
وَيَا سَعْدَ مَنْ لِلْعِلْمِ يَوْمًا رَأَى جَمْعًا

هنيئاً له الفعل الصحيح الذي اقتضى
 - بلا مانع - جزمأله النصب والرُّفعا
 وبالحلّ في أسنى المواطن آياً
 هنائي مدى الأيام أشفعه شفعاً⁽⁴⁾

وشكره على «هدية السرور» من الحج فقال (121):
 وَصَلَ «الْجَاوِي» الَّذِي وَجَّهْتُمْ
 صُحْبَةَ الْكُحْلِ الشَّرِيفِ وَالْإِبْرَ
 فَلِسَانِي قَاصِرٌ عَنْ شُكْرِكُمْ
 سَيِّدِي يَا مُنْتَهَى الْفِعْلِ الْأَبْرَ

نَخْلُصُ مِنْ هَذَا إِلَى أَنَّ الْفَقِيهَ النَّبِيهَ الْخَطِيبَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ
 الْكَرِيمِ الَّذِي لَقِيَهُ الْقَلْصَادِي بَعْدَ رَجُوعِهِ مِنَ الْحَجِّ فِي بَسْطَةِ سَنَةِ 855 هـ.
 هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقَيْسِيِّ الْبَسْطِيِّ نَاسِخَ
 الْبَيَانِ وَالتَّحْصِيلِ سَنَةِ 859 هـ. وَلِهَذَا الْأَسْمُ - كَمَا هُوَ وَاضِحٌ - صَلَةٌ وَثِيقَةٌ
 بِاسْمِ شَاعِرِنَا الَّذِي وَرَدَ أَوَّلُ مَقْدَمَةِ الدِّيَّوَانِ بَعْدَ بَيَاضٍ هَكَذَا: []
 عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْقَيْسِيِّ. وَكَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ فِي
 التَّارِيخِيْنَ الْمَذْكُورِيْنَ.

فَإِذَا كَانَ ثَمَّةُ سَقَطٌ فِي الْأَسْمِ حَسَبَ الْبَيَاضِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ فَإِنَّهُ
 يَكُونُ هُوَ نَفْسُهُ الْمَذْكُورُ فِي رَحْلَةِ الْقَلْصَادِي وَفِي آخِرِ مَخْطُوطِ الْبَيَانِ
 وَالتَّحْصِيلِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ سَقَطٌ فِي الْأَسْمِ فَإِنَّ الشَّاعِرَ قَدْ يَكُونُ وَلَدُ الْفَقِيهِ
 النَّاسِخِ الْمَذْكُورِ.

وَنَحْنُ نَجِدُ هَذَا الشَّاعِرَ الْبَسْطِيَّ يَخَاطَبُ وَالِدَهُ بِقَصِيدَتَيْنِ وَجَّهَ
 إِحْدَاهُمَا لَهُ مِنْ مَدِينَةِ بَرْجَةِ الَّتِي بَدَأَ عَمَلُهُ فِيهَا إِمَاماً بِمَسْجِدِهَا لِقَاءَ أَجْرٍ
 مَعْلُومٍ، وَالثَّانِيَةَ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ حِينَئِذَا كَانَ أُسِيرًا فِي أَبْدَةِ، وَفِي كِلْتَا
 الْقَصِيدَتَيْنِ لَا يَسْمِيهِ وَلَا يَحْلِيهِ، وَلَا يُشِيرُ بِشَيْءٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَخَاطَبُهُ

بكل إعزاز وإجلال، مع حب وشوق شديدين، فقد افتتح القصيدة الأولى بقوله (45 - 46):

لِبُعْدِكَ يَا مَوْلَايَ طَارَ مَنَامِي
وَصَارَ فُؤَادِي ذَا هَوًى وَهُيَامٍ
وَجَالَ بَقْلِي مِنْ جَوَى الْوَجْدِ جَائِلٌ
أَطَالَ قُعُودِي تَارَةً وَقِيَامِي
وَيَخْتِمُهَا بِمَا قَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ فَيَقُولُ:

وَدُونَكَ يَا مَوْلَايَ مِنِّي قَصِيدَةٌ
بَهَّرْتُ بِهَا فِي النَّظْمِ كُلَّ هُمَامٍ
أَتَيْتَكَ فِيهَا مِنْ شَأُونِي بِنُبْذَةٍ
وَأَرْسَلْتُهَا مَخْتُومَةً بِسَلَامٍ

وأما القصيدة الثانية فهي طافحة بالشوق والحنين وقد وطأ لها بقوله:
«وقلت مخاطباً والذي أمتع الله ببقائه» (39):

يَا نَاطِرَ الطَّرْفِ بَلْ يَا قِطْعَةَ الْكَبِدِ
وَمَوْضِعَ الْحَبِّ فِي قُرْبِي وَفِي بُعْدِي
وَمَنْ هَوَاهُ لَدَى الْقَلْبِ الْمَشُوقِ غَدَا
فِي كُلِّ آوِنَةٍ كَالرَّوْحِ مِنْ جَسَدِي
لَوْلَا اسْتِثْبَاقِي إِلَى أَنْوَارِ غُرَّتِكُمْ
مَا كُنْتُ أَشْكُو عَنَّا أَسْرِي إِلَى أَحَدٍ

إلى أن يقول:

وَأَنْتَ يَا وَالِدِي إِنْ غَبْتَ عَنْ بَصَرِي
فَلَمْ تَغِبْ لِحِظَةٍ وَاللَّهِ عَنْ خَلْدِي

إِنِّي لَأَذْكُرْكُمْ حَتَّى لَأَذْكُرُ مَا
نَادَيْتُمُونِي بِهِ مِنْ لَفْظٍ: يَا وَلَدِي
فَانْطَوِي مِنْ حَنِينِي عِنْدَ ذِكْرِكُمْ
وَفَرَطِ شَوْقِي إِلَى لُقْيَاكَ فَوْقَ يَدِي

كما ذكره في أول قصيدة في الديوان نظمها في مدح الرسول وهو في
الأسر مُتَوَسِّلاً إلى الله بجأه كي يمحوا أوزاره:

وَيُجْمَعُ الشَّمْلُ الشَّتِيتَ بِوَالِدِ
أَضَحَّتْ ضُلُوعِي مِنْ نَوَاهُ حِرَارَا

وسبقى اسم هذا الشاعر واسم والده محلّ نظر إلى أن نظفر بما
يحسم الأمر فيه كالعثور على نسخة أخرى من هذا الديوان أو الوقوف على
ترجمة صاحبه أو أي إشارة إليه، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأريض لأبي
يحيى ابن عاصم لعرفنا شيئاً عن هذا القيسي البسطي، وتأكدنا من اسمه
لأن الكتاب المذكور يتضمن مختارات من شعره كما سنشير إلى ذلك فيما
بعد. وَلَيْسَ أَمَامَنَا الآنَ إِلَّا أَنْ نَقْبَلَ مَبْدِئاً اسمه كما ورد في فاتحة الديوان،
وهو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي وسنفترض أنه ولد الفقيه
محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي - مع ملاحظة التقليد
الأندلسي المغربي القديم في تسمية الحفيد باسم الجد في الغالب كما
نجد في سلسلة ابن رشد وابن زهر على سبيل المثال -.

وعلى هذا فَإِنَّ الشاعر من أسرة قيسية بسطية، كان والده - حسب
افتراضنا - من أهل العلم وذوي المكانة في مدينة بسطة إذ كان فقيهاً نبياً
وخطيباً دينياً جليلاً وقد يدلّ انتساخه كتاب البيان والتحصيل لنفسه - وهو من
مطلولات الفقه المالكي بالأندلس - على مدى ثقافته الفقهية؛ ويبدو أن أفراد
الأسرة القيسية في بسطة كانوا على العموم من المشتغلين بالفقه والتوثيق
والعدالة.

ويعرف منهم في هذه الحقبة أبو عبدالله محمد بن أحمد القيسي البسطي⁽⁴⁾، وأبو عبدالله محمد بن علي القيسي البسطي⁽⁵⁾، وكانا من عدول مدينة بسطة، فقد وقفنا في وثائق عربية غرناطية - التي عني بجمعها وتحقيقها فقيده البحث لويس سيكو دي لوثينا - على وثيقة شهد فيها الأول بتاريخ (842 هـ - 1439 م) وأخرى فيها شهادة الثاني بتاريخ (835 هـ - 1432 م) كما تجدر الإشارة إلى أشهر أسرتين قيسيتين في هذا العصر الغرناطي، وهما أسرة ابن عاصم القيسية في غرناطة، وأسرة ابن منظور الاشيلية التي لجأت إلى مالقة، واستمر أعلامها يتولون القضاء في مالقة وغيرها حتى نهاية مملكة غرناطة.

ومن القيسيين المشهورين في هذا العصر أيضاً أبو عبدالله محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري صاحب البرنامج المشهور، وثمة قيسيون آخرون كانوا في المرية، وقد ترجم لعدد منهم ابن خاتمة في مرية المرية⁽⁶⁾.

لا نعرف طبعاً متى ولد شاعرنا البسطي ولكننا نفهم من ديوانه أيضاً أنه كان من رفقاء الدراسة لبعض الأعلام مثل القلصادي وأبي عبدالله محمد بن مالك الأثري وأبي عبدالله بن الأزرق الوادي آشي، واشترك مع أبي يحيى ابن عاصم في الأخذ عن الشيخ أبي عبدالله الباني، ومن أقرانه أيضاً فيما يبدو أبو عمرو ابن منظور، وبعض هؤلاء الأعلام عاشوا حتى العقد الأخير من القرن التاسع الهجري.

ومن معاصريه الذين خاطبهم بشعره أبو الحسن علي ابن داود البلوي الوادي آشي المتوفى سنة 898 هـ وأبو حامد ابن الحسن النباهي وولده أبو جعفر أحمد والوزير أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد البر وأبو جعفر أحمد ابن القصار الذي كان حياً سنة 855 هـ وأبو الحسن علي بن عتيق ابن العز، - وهو من شيوخ صديقه القاضي أبي عمرو ابن منظور، - والقاضي الجعدالة وغيرهم ممن سنفصل الكلام عليهم فيما بعد.

كما نعرف من ديوان الشاعر أنه كان يقول الشعر في سنة 836 هـ.

ونستطيع أن نقدر ولادته بناء على ما سبق في العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، والظاهر أن ولادته كانت بمدينة بسطة، وفيها أيضاً نشأته ودراسته، وفيها قضى معظم حياته؛ وسنرى كيف أن شعره يردّد أصداء الحياة اليومية في هذه المدينة، بالإضافة إلى أن هذا الشعر في جملته يُعتبر مرآة لعدد من جوانب الحياة الأندلسية في عصره.

ومدينة بسطة التي ولد فيها - على ما يظهر - شاعرنا اشتهرت منذ القديم بطبيعتها الجميلة، وفلاحتها الغنية وصناعاتها التقليدية الرفيعة، وأسواقها التجارية؛ وقد أصبحت في عهد الموحدين مقرّ العُمال على أعمالها. وفي المعجب تسمية لبعضهم⁽⁷⁾، وذكر ابن سعيد منهم شعبان الغزّي الذي يقول فيها:

سَقَى اللّهُ صَوْبَ الغَيْثِ أَكْنَافَ بَسْطَةِ
ففيها انبساطُ النَّفْسِ والعَيْنِ وَالْقَلْبِ⁽⁸⁾

ونبغ فيها أعلام في العلم والأدب منذ القرن الخامس الهجري نجدهم في كتب التراجم⁽⁹⁾.

وكانت طبيعتها الجميلة تغري بقول الشعر، قال ابن شفيع أحد شعرائها: «لو طبعت على الزَّهْدِ لَحَمَلَنِي حسن بلدي على المجون والعشق والراحات»⁽¹⁰⁾.

وقد ذكرها البكري وبعده الإدريسي والحميري ومما قاله هذا الأخير: «وهي متوسطة المقدار حسنة الوضع عامرة أهلة ذات أسوار، وبها تجارات وفَعَلَةٌ بضروب الصناعات... وشجر التوت فيها كثير، وعلى قدر ذلك غلة الحرير، والزيتون وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة وأرضها عذاء كثيرة الريع وبها كانت طُرُزُ الوطاء البسطي من الديباج الذي لا يُعَلَّم له نظير».

ولقد كبرت مدينة بسطة في العصر النصري وكثر عدد سكانها،

وغدت من المدن المهمة في مملكة غرناطة. ونرى ابن الخطيب يطنب في وصف محاسنها في رسالته: خطرة الطيف⁽¹¹⁾، ومعيار الاختيار⁽¹²⁾. فَمِمَّا قاله في خطرة الطيف:

«وكان ملقى الجران، منابت الزعفران، بسطة حرسها الله وما بسطة، محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام، ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام، يا لها من عقيلة، صفحتها صقيلة، وخريدة، محاسنها فريدة».

ثم وصف جمالها وطبيعتها وحصونها وأهلها إلى أن قال: «فلا أقسم بهذا البلد، وحسن منظره الذي يشفي من الكمد، لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق، لأثرها بقوله في صفة بلاد جلق:

بلادُ بِهَا الحَصْبَاءُ دُرٌّ وتُرْبُهَا
عَبِيرٌ وأنفاسُ الرياحِ شَمُولُ
تسلسل منها مأوها وهو مُطْلَقُ
وصحّ نسيم الروضِ وهو عَلِيلُ

رمت إلى غرض الفخر بالسهم المصيب، وأخذت من أقسام الفضل بأوفى نصيب، وكفاها بمسجد الجنة دليلاً على البركة وبياب المسك عنواناً على الطيب».

ومّا قاله في معيار الاختيار: «وناهيك من بلدٍ اختص أهله بالمران، في معالجة الزعفران، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران، عمّت أرضها السقيا فلا تخلف، وشملتها البركة تختصّ من يشاء الله ويزلف، يتخلّل مدينتها الجدول المتدافع، والناقع للعلل النافع، ثياب أهلها بالعبير تتأرجح، وهورها تتجلّى وتبهرج، وولدانها في شط أنهارها المتعددة تفرّج، ولها الفحص الذي يسافر فيه الطرفُ سعياً، ولا تغدّم السائمة به رياء ولا رعياء». ووصفها ابنها القلصادي في رحلته فقال: «دار تخجل منها الدور، وتتقاصر عنها

القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حوته من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها وما طبعوا عليه من كريم السمائل، لهوائها الصحيح، وفضائها الفسيح، وحسبك فيها من عدم الحرج، أن داخلها باب الفرج».

ولشاعرنا القيسي شعر كثير في وصف طبيعتها الخلابة، ومنتزهاتها الجميلة، وفواكهها المتعددة، فمن ذلك قوله في الحنين إليها حينما كان في الأسر (40):

وَدَعِ الْحَنِينَ لِبَسْطَةِ وَرُبُوعِهَا
 إِنَّ الْحَنِينَ يَهِيْجُ مِنْكَ غَلِيْلًا
 وَاتْرُكْ حَدِيثَ «جَنَانِ رُومَةٍ»⁽¹⁴⁾ جُمْلَةً
 وَجَنَانَ «عَيْنِ قَنُولَشٍ»⁽¹⁵⁾ تَفْصِيْلًا
 وَ«الْمَنِيَّةِ»⁽¹⁶⁾ الْغَرَاءَ دَعْ تَخْيِيلَهَا
 إِيَّاكَ إِيَّاكَ احْذَرِ التَّخْيِيلَا
 حَيْثُ الْجَدَاوِلُ مَاؤَهَا مَتَفَجَّرُ
 أَضْحَى الصَّغِيرُ بِهَا يَفُوقُ النِّيْلَا
 حَيْثُ الْبَطَاحُ كَأَنهَا صَحْفٌ بَدَتْ
 تَهْفُو الْجَفُونُ بِحُسْنِهَا التَّكْحِيْلَا
 حَيْثُ الظَّلَالُ تَوَارَفَتْ وَتَفِيَّاتُ
 بِجَوَارِهَا تَهْوَى النُّفُوسُ مَقِيْلَا
 حَيْثُ التَّرَابُ لَطِيْهٌ وَلِحُسْنِهِ
 تَهْوَى الشَّفَاهُ تَسُوْمُهُ التَّقْيِيْلَا
 تِلْكَ الرُّبُوعُ بِهَا الْفَوَادُ مَتِيْمٌ
 مِمَّا يَحْنُ لَهَا أَبَى التَّنْقِيْلَا

في الأصل: عما يحن بها أبى الثقيل.

ومن شعره في الحنين إليها أيضاً (36):

مَعَ مَا أَعَانِيهِ بِيُعْدِي دَائِماً
عَنْ بَسْطَةِ الْمَأْنُوسَةِ الْأَرْجَاءِ
حَيْثُ الْبَطَاحُ كَأَنَّهُنَّ صَحَائِفُ
رُقِمَتْ بِإِبْرِيزٍ مِنَ الْأَضْوَاءِ
حَيْثُ الْحَدَائِقُ فَتَحَتْ أَزْهَارُهَا
عَنْ وَجْنَةِ الْمَعْشُوقَةِ الْعَذْرَاءِ
حَيْثُ الطُّيُورُ تَرَنَّمَتْ فِي دَوْحِهَا
فَأَتَتْ بِمِثْلِ تَرَنَّمِ الشَّعْرَاءِ
حَيْثُ النَّسِيمُ إِذَا سَرَى مَالَتْ بِهِ
طَرَباً غُصُونُ الْبَانَةِ الْمِيسَاءِ
حَيْثُ الْجَدَاوِلُ كَالسَّيُوفِ إِذَا مَضَتْ
مُوصُوفَةً أَبَداً بِحُسْنِ صَفَاءِ
حَيْثُ التَّرَابُ كَأَنَّهُ مِنْ لُؤْلُؤِ
مُتَنَائِرٍ أَوْ فِضَّةٍ بَيْضَاءِ

ويقول في فواكه جناتها (69 - 70):

بِالْدَمْنَةِ⁽¹⁷⁾ الْغَرَاءِ مِنْ بَسْطَةِ
أَدْوَاخِ أَغْنَابٍ تَرُوقُ الْعَيُونُ
تَلَوْنَتْ فِيهَا عَنَاقِيدُهَا
وَأَظْهَرَتْ لِلْحَسَنِ شَتَى الْفُنُونِ
قَالُوا: هِيَ الشَّهْدُ لَدَى ذَوْقِهَا
طَبِيباً، فَقُلْتُ: الشَّهْدُ وَاللَّهُ دُونَ

وتينها الأيوبي^(18م) في طيبه
وحسنه ليس يساويه تين
وخوخها يشبه محمرة
خدود حور فُقن في الحُسن عين
وكالنهود المذمجات اغتدى
اسفرجل يحمله كل حين
ومثله في الشكل رمانها
كمثل إجاص بها مستبين
وكالنجوم الزهر زغورها
أو كالمصايح بأعلى الغصون
من لم يكن فيها له جنة
فعده من بسطة ينكرون

وممن أعجب بمدينة بسطة ومدحها صديق شاعرنا ابن الأزرق الأديب
الشاعر - وهو غير ابن الأزرق صاحب المؤلفات المعروفة كما سنشير إلى
ذلك -.

هذه هي بسطة موطن الشاعر القيسي ومربع صباه ومثواه. أما حياته
فستعتمد في تصويرها على ديوانه، وسنحاول استخلاصها من شعره.

وكعدد من الأعلام لا نجد تسجيلاً لطفولته ما عدا إشارة إلى أيام
الدراسة نجدها في قصيدة يخاطب بها رفيق الطلب وصديق العمر أبا
عبد الله محمد بن مالك الأثيري، قال يذكر هذه الأيام ويتحسر على ذهابها
ويتمنى رجوعها (38):

لِلَّهِ أَيَّامٌ مَضَتْ بِجِوَارِهِ
فِي خَفْضِ عَيْشٍ رَائِقِ الْجِلْبَابِ

نَجْنِي مِنَ الْعِلْمِ النَّفِيسِ نَفِيسَهُ
 وَمَنْ السُّرُورِ وَصَالِ عَذْرَا كَعَابِ
 مَا كَانَتْ إِلَّا مِثْلَ طَيْفٍ زَائِرٍ
 لِمُتَمِّمِ نَاءٍ عَنِ الْأَحْبَابِ
 مَرَّتْ وَفِي الْأَحْشَاءِ مِنْ تَخْيِيلِهَا
 لَفَحَاتِ نَارٍ أَضْرِمَتْ لِعَذَابِ
 لَهْفِي عَلَيْهَا لَهْفَ صَبٍّ مَوْجَعٍ
 لِفِرَاقٍ إِلْفٍ أَوْ لِفَقْدِ شَبَابِ

ويقول من قصيدة أخرى مخاطباً صديقاً آخر من زملاء الدراسة هو أبو عبد الله ابن رجاء (35):

فَهَلْ أَنْتَ مِثْلِي فِي الْإِخَاءِ وَرَعِيهِ
 أَمْ لِلْبُعَادِ نَسِيتَ رَعِيَّ إِخَائِي
 وَغَفَلْتَ عَنْ عَهْدِ التَّائِسِ دَائِماً
 حَتَّى لَدَى الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ
 فِي مَنْزِلِ حَيَّاهُ مُنْسَجِمُ الْحَيَا
 وَسَقَاهُ صَوْبَ الدَّيْمَةِ الْوُطْفَاءِ
 لَمْ تَتَّخِذْ فِيهِ جَلِيساً مُؤْنِساً
 غَيْرَ الْعُلُومِ وَسِيرَةِ الْعُلَمَاءِ
 فَلَكُمْ فَوَائِدَ عِنْدَ ذَلِكَ نِلْتُهَا
 جَلَّتْ لِكَثْرَتِهَا عَنِ الْإِحْصَاءِ

أما الشيوخ الذين درس عليهم فلم يذكر منهم إلا واحداً هو الشيخ أبو عبد الله محمد البياني وقد عرف به تلميذه القلصادي، فذكر أنه حضر عليه عدة كتب في الفقه والعربية وسمى منها رسالة ابن أبي زيد وألفية ابن

مالك وإيضاح أبي علي الفارسي وقال إنه توفي سنة ست وسبعين
وثمانمائة (18).

ونجد شاعرنا يخاطبهُ بجملة قصائد ومقطعات ولا سيما حين وقع في
الأسر، وفي هذه القصائد ما يزيدنا معرفة بهذا الشيخ الذي كان من شيوخ
العصر وتوشك بعض هذه القصائد أن تكون ترجمة لهذا الشيخ، ففي
القصيدة التي أولها (16):

سَلَوَ مَنْ بِهَا أَسْلَوْلَمْ اخْتَارَتِ الصَّدَا
وَلَمْ تَرَعْ لِي الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَلَا الْوَدَا

يعدد فنون العلم التي كان يتقنها هذا الشيخ فيذكر أنه كان في
الحديث كالإمام مسلم، وفي الفقه كالمصري ابن القاسم، وفي التفسير
كابن عطية، وفي القراءات كالداني، وفي النحو كسيبويه، وفي العروض
كالخليل، وأنه كان عالي الكعب في أصول الفقه وأصول الدين، طائر
الصيت في اللغة والطب، مجاوزاً الحد في التاريخ، مسابقاً سواء في علم
الحساب والجبر، لا نظير له في التفسير، يهتدى برأيه في علم التعديل،
واري الزند في علم المنطق، له بدائع في علم البديع، وشوارد في
التصوف، إلى إتقانه ما يتعلق بقواعد الأحكام، وصناعة التوثيق.

ومع ما قد يكون في هذا من الإطراء والمبالغة فإننا لا نستبعد مثل
هذه المشاركة الواسعة، لأنها من طوابع الثقافة الإسلامية التي ظلت حية
ونشيطة في الأندلس حتى في هذه الفترة التي سبقت سقوط غرناطة، فهذه
الفترة أنجبت مثل العلامة ابن الأزرق، والحيسوبي الكبير القلصادي، وأبي
يحيى ابن عاصم، والأديب الشاعر ابن الأزرق، وقد أطلق على كل منهما:
ابن الخطيب الثاني.

ويستفاد من قصيدة أخرى للبسطي في مدح شيوخه البياني هذا أنه
كان عصامياً في تعلمه وثقافته فهو يقول (12):

تَجَرَّدَ غِرًّا لِلْعُلُومِ فَحَازَهَا
وَلَمْ يَفْتَقِرْ فِي حَوَازِهَا لِمُعَلِّمٍ
وَأَدْرَكَهَا وَهِيَ الْبَعِيدَةُ مَذْرَكًا
بِعَقْلِ سَلِيمٍ لَمْ يُعَبِّ بِتَقْسِمٍ
وَذَكَرَ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى أَنَّ الْبَيَانِي هَذَا وَلِيَ الْقَضَاءِ فِي بَسْطَةِ عَلَى كُرْهِ
مِنْهُ (18):

فَجَدَّدَ رَسْمَ الْعَدْلِ بَعْدَ ذُرُوسِهِ
وَعَادَرَ رَبْعَ الْجَوْرِ لِلْعَيْنِ مُنْهَدًا
وَعَلَّقَ بَابَ الظُّلَمِ مِنْ بَعْدِ فَتْحِهِ
وَفَتَحَ بَابَ الْحَقِّ مِنْ بَعْدِ مَا انْسَدَّ
وَأَيَّدَ مَظْلُومًا وَهَدَّدَ ظَالِمًا
وَأَمَّنَ مَذْعُورًا وَأَعْدَى مَنْ اسْتَعْدَى
وَسَاوَى وَقُوفًا بَيْنَ خَصْمٍ وَخَصْمِهِ
وَأَدَّبَ مَنْ فِي مَجْلِسِ الْحُكْمِ قَدْ لَدَا
وَفَاقَ شُرَيْحًا فِي عَدَالَتِهِ الَّتِي
بِإِحْرَازِهَا كُلَّ الْمَظَالِمِ قَدْ رَدَا
وَأَنَّهُ قَامَ مَعَ ذَلِكَ بِأَعْبَاءِ الْخُطَابَةِ وَالْإِمَامَةِ وَالْإِقْرَاءِ وَالتَّدْرِيسِ وَالْفَتَا.

قال:

وَكَانَ مُجَدِّدًا فِي الْقِيَامِ بِحَمْلِهَا
وَصَادَفَ وَقْتًا لَمْ يَكُنْ يَلْحَظُ الْجِدَا
فَأَخَّرَ عَنْهَا لَا لِنَقْصٍ وَوَضَمَةٍ
وَعَوُضَ مِنْهُ مَنْ تَبَدَّى لَهُ ضِدَا
فَأُفٍّ لِلدُّنْيَا لَمْ تُوفِّ حُقُوقَهُ
وَتَبًّا لِقَوْمٍ لَمْ يُرَاعُوا لَهُ الْعَهْدَا

وقد أشار في قصيدة أخرى إلى أنه لازمه مدة يأخذ عنه (16):
 لازمته زمناً أجني فوائده
 مُثابراً عندما أجني ومُختلساً
 والجِدُّ يبعثني والجَدَّ يُسعِدني
 معَ الشَّبابِ وطَرفُ الدَّهرِ قد نَعسا
 حتَّى جرى القدرُ المحتومُ سابقُهُ
 فخابَ ظنِّي وما أَمَلْتُهُ انْعَكسا
 فما هو القدر المحتوم الذي يشير إليه؟

لَعَلَّه الأسر الذي امتحن به في مطلع حياته ووصفه في قصائد ومقطعات من شعره، فكيف كان ذلك؟.

يبدو أن شاعرنا بعد أن شدا قدراً صالحاً من العلم اضطرَّ تحت وطأة الحاجة إلى مغادرة بسطة وهو ما يزال في ميعة الشباب أو كما يقول هو مخاطباً والده في قصيدة وجهها إليها من مدينة برجة:

فقد شَيَّبْتُ هذي البُشَراتُ⁽¹⁹⁾ مَفرِقي

وسِنِّي كما تدرون سِنُّ غُلام

وفي هذه القصيدة يعبر عن شوقه لوالده ويذكر أنه ظفر بعمل هو الإمامة في مسجد برجة لقاء أجر سنويَّ حدَّده في قوله:

بِخَمْسِينَ دِينَاراً وَمَا هُوَ تَابِعُ

لَهَا مِنْ فَرَاشٍ لائِثٍ وَطَعَامِ

ويبدو أنه كان مرتاحاً في برجة مستريحاً إلى أهلها فهو يقول

(45 - 46):

أروُحُ وأغدو بينَ قومٍ تواطَوا

قديماً على إكرامِ كلِّ إمام

سَرَتْ بِشَذَا إِحْسَانِهِمْ نَفْحَةُ الصَّبَا
فَحَطَّتْ لَشَمِّ الطَّيِّبِ كُلِّ لَثَامٍ
فَطَابَتْ نَفُوسٌ طَالَمَا قَدْ تَغَيَّرَتْ
وَصَحَّتْ أَنْوْفُ تَشْتَكِي بِزُكَامٍ
أَمْثَلُ شَخْصِي عِنْدَهُمْ فِي حَدِيقَةٍ
سَقَاهَا سَحَابُ الْجَوْدِ صَوْبَ سِجَامٍ
فَجَادَتْ بِمَا تَهْوَى النَفُوسُ وَتَشْتَهِي
فَمَا شِئْتُهُ أَجْنِيهِ دُونَ مَلَامٍ
وَفِي بَرْجَةٍ مَثَوَايَ حَيْثُ تَبَسَّمْتُ
ثَغُورُ الْأَقَاخِي مِنْ بَكَاءِ غَمَامٍ
وَسَالَتْ بِسُلْسَالِ الْفَرَاتِ جَدَاوُلُ
لَرِي بِطَاحِ غَضَّةٍ وَأَكَامٍ
وَمَالَتْ غُصُونُ الرُّوضِ بَعْدَ تَعَانِقٍ
كَمَا مَالَ سَكْرَانٌ لَشُرْبِ مُدَامٍ
وَنَاحَتْ رِيَّاحُ الشَّحْرِ فِي كُلِّ رُوحَةٍ
كَمَا نَاحَ فِي الْأُدْوَاكِ وَرَقُ حَمَامٍ
أَوْمٌ بِهَا فِي مَسْجِدٍ بِجَمَاعَةٍ
مُقِيمِينَ لِلْخَمْسِ الْفُرُوضِ كِرَامٍ
بِهِمْ تَضْرِبُ الْأَمْثَالُ فِي حِفْظِ دِينِهِمْ
فَمَا مِثْلُهُمْ فِي مَوْصِلٍ وَشَامٍ

وهذا هو نظام الشرط الذي كان معروفاً في الحواضر والبادية والمغرب - وما يزال العمل جارياً به في البادية المغربية - حيث يتشارط أهل القرية على أجره مع طالب حافظ للقرآن عارف بمبادئ الدين

يقرئ صبيان القرية ويؤم بالناس فيها، وتوجد نوازلُ غرناطية متعددة تحدثُ عن نظام الشرط في هذه الفترة⁽²⁰⁾.

والشاعر يصرح في هذه القصيدة بأنه خرج مضطراً من بسطة إذ لم يتح له التوظف فيها، قال (46):

ووالله ما صَبْرِي على البُعْدِ سلوةٌ

وَلَا أَنَّ جَوْرَ الدَّهْرِ شَدَّ زِمَامِي

ولكن قضاءً سابقٌ حكمتُ به

مقاديرُ ترمي مَنْ تَشَا بِسِهَامِ

لها في الْوَرَى في كل يومٍ تصرّفُ

بوضعِ عِظَامٍ أو برفعِ لثامِ

أحلتْ دَمِي بِالْبُعْدِ وهو مُحَرَّمٌ

كتحريمِ قُرْبِي وهو غيرُ حَرَامِ

ولولا رجاءُ القربِ ذبْتُ تَشَوِّقاً

إليكم وما أتممتُ شهرَ صِيَامِ

والذي يبدو لي أنه خلال تجواله للمشاركة في القرى والمدن الصغيرة بمملكة غرناطة تعرض للأسير في بعض الطرقات ونعرف أنها كانت يومئذ مخوفة، ويفهم من بيت له أنه تجول في أرجاء الأندلس من أجل الدراسة أو العمل، قال يمدح أستاذه البياني (16):

وَحَقٌّ وَالِدِهِ الْحَبْرُ الْإِمَامُ وَمَا

حَوَى مِنَ الْعِلْمِ بِالذَّرْسِ الَّذِي دَرَسَا

مَا أَبْصَرْتُ مُقْلَتِي شَخْصاً يَمِثُّهُ

فِي بَعْضِ أَوْصَافِهِ مَذْجُلْتُ أَنْدَلُسَا

وذهب صديقنا الدكتور محمود مكّي إلى أن الشاعر أسر إثر اشتراكه في الجهاد وانخراطه في صفوف الغزاة المجاهدين، وقد يكون أسر في

إحدى الغارات على بسطة، لأنَّ الأسارى لم يكونوا يومئذ من المحاربين فقط فإننا نجد من بينهم نساء. (وثائق عربية غرناطية: 107).

ومهما يكن من أمر فنحن نجد الشاعر أسيراً في آبرة كما رسمت وضبطت في الديوان مرات متعدّدة، وقد تكون أبدة كما ذهب إلى ذلك الدكتور محمود مكي لبعد الأولى من ديار الإسلام وقرب الثانية منها؛ ولتساوي الكلمتين فإن الميزان الشعري يقبلهما معاً، والأولى تكتب عادة يابرة لا آبرة، ومن ثم فإن آبرة خطأ من الأخطاء الموجودة في هذه النسخة.

ولئن كان اغتراب الشاعر في سبيل البحث عن العمل واشتياقه إلى والده من دواعي نظمه المبكر فإن الأسر فجر قريحته الشعرية إذ أصبح النظم أنيسه في وحدة السجن القاتلة، وسلوته في ظلمته القاتمة، وهكذا أخذ يحبر قصائد إلى والده وأهله (زوجه؟) وشيخه البياني المذكور سابقاً وبعض أصدقائه في بسطة بعد أن كان في أول تعلمه وبعد إلمامه بالعروض ينظم البيت والبيتين والثلاثة على سبيل الرياضة والتمرين قال (19):

فليسَ نِظامُ الشَّعرِ مِنْ شَيْمِي التي
أجاري بها في النِّظمِ مَنْ يُحسِّنُ الطُّردَا
ولكنني صَيَّرْتُهُ لي مُؤانساً .
بأبْدَةٍ حيثُ اغتَدَتْ فِرْقُ الأَعْدَا

وهو يخبرنا في هذه القصائد «الأبديات» بأطوار أسره وسجنه، فقد وضع أول الأمر في شبه «زنزانة» مقيداً مكبلاً مهتدداً بوسائل التعذيب (37):

في قعرِ بيتٍ غولُهُ مجموعةٌ
والهَامُ فيه قَدْ أجابَ الهاما
ما لي به أنسٌ سوى تذكاريكم
ومدامع حُمُر تفيض سِجاما

وبجامعٍ جُمِعَتْ يَدَايِ وَقَرَمَةٍ
 منعتُ قِيَامِي إِنْ أَرَدْتُ قِيَامَا
 والشُّبُّ والإِبْرِيْقُ كُلُّ مِنْهُمَا
 نَصَبَ الْعِيَانِ بِجَانِبِي قَدْ قَامَا⁽²¹⁾

ووصف الأشغال الشاقة التي كان يُكَلِّفُ بها فقال (35):

فحصلتُ فِي الْأَسْرِ الَّذِي أَدَوَاؤُهُ
 لِرَهْنِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْوَاءِ
 أَجْنِي مَذَلَّتُهُ وَضِيقَ قُيُودِهِ
 بَعْدَ اجْتِنَاءِ الْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ
 مَا بَيْنَ قَوْمٍ كَافِرِينَ تَلَوَّنَا
 فِي كَفَرِهِمْ كَتَلَوْنَ الْحَرْبَاءِ
 لَا يَرَحْمُونَ مُوَحِّدًا فِي أَرْضِهِمْ
 إِنْ جَاءَهُمْ يَشْكُو بِخَطْبِ عَنَاءِ
 مَا إِنْ أَرَى مِنْهُمْ سِوَى مَنْ قَلْبُهُ
 مِنْ قَسْوَةٍ كَالصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ
 أَصْلُ الصَّبَاحِ مَعَ الْمَسَاءِ لَدَيْهِمْ
 فِي الْخِدْمَةِ الْمَعْهُودَةِ الْإِعْيَاءِ
 وَأَقَوْمٌ مِنْهَا بِالَّذِي هُوَ وَاجِبٌ
 مِنْ غَيْرِ تَفْرِيطٍ وَلَا اسْتِهْزَاءِ
 مُتَحَرِّيًا إِرْضَاءَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ
 يُتَدَوْنَ أَنِّي جِئْتُ بِالْإِرْضَاءِ
 حَتَّى ضَعُفْتُ وَرَقَّ جِسْمِي بَيْنَهُمْ
 وَتَغَيَّرَتْ عَنْ حَالِهَا أَعْضَائِي

وتَقَرَّحْتُ مِنِّي الْجَفُونَ بِدَمْعِهَا
وَتَقَطَّعْتُ بِلَهْيِهَا أَحْشَائِي
وَمَنْ اغْتَدَى فِي الْأَسْرِ مِثْلِي مَوْثِقًا
فَمَنْ الْغُرَائِبِ وَصُفُّهُ بِيَقَاءِ
وَأَمْرُ مَا أَلْقَاهُ أَنِّي عَاجِزُ
عَنْ أَنْ أُخْصَّ فَرَائِضِي بِأَدَاءِ

والخدمة المعهودة الإعياء التي أشار إليها هي التي يصفها في هذه
الآيات (74):

واحْشُرْتِي، بَعْدَ اسْتِغَالِي بِالْعُلُوِّ
مِ وَذَرْسِهَا وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ
أَمْسِي وَأَصْبِحُ خَادِمًا مَتَّصِرَفًا
لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ
إِنْ لَمْ أَكُنْ بِالْحَفَرِ مُشْتَغَلًا أَكُنْ
بِالْهَذْمِ مُشْتَغَلًا مَعَ الْبُنْيَانِ
وَالْكُنُسِ فِي يَوْمِ الْجُلُوسِ صِنَاعَتِي
وَالرَّشِّ يَتَّبِعُهُ مَدَى الْأَحْيَانِ
وَبَغْسِلِ أَقْذَارِ الْكِلَابِ تَحْرِفِي
فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَانِ
فثِيَابُهُمْ أَدْرَانُهَا مَغْسُولَةٌ
بِيَدِي، وَتَوْبِي الدَّهْرَ بِالْأَدْرَانِ
وَإِذَا الْمَنَامُ أَرَدْتُهُ أَلْفَيْتُهُ
لِعَظِيمِ خَطْبِي طَارَ عَنْ أَجْفَانِي

هذا جزاءُ مخالفٍ مثلي أبى

تَقْوَى الإِلَهِ ودانَ بالعِصِيَانِ

ويبدو أنه سُلِّمَ بعد هذا إلى أحد كبراء النصارى، وقد وصف لنا
معاملة هذا له فقال (40 - 41):

وصَيَّرَنِي بالرَّغْمِ فِي مِلْكٍ كَافِرٍ

بِأَبْذَةٍ أَضْحَى مِنَ الْعُظْمَاءِ

يَرَى أَكْلَهُ الْخِزْيِرَ أَفْضَلَ طُعْمَةٍ

وَيَجْعَلُ شَرْبَ الْخَمْرِ أَرْفَعَ مَاءِ

وَيَحْسِبُ عِيسَى ابْنَ الإِلَهِ وَأُمَّهُ

لَهُ زَوْجَةٌ مَوْصُوفَةٌ بِبِهَاءِ

وَيُنْكِرُ مَا فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ مَوْدَعًا

لَأَهْلِ التَّقَى مِنْ نِعْمَةٍ وَجَزَاءِ

وَيَكْفُرُ جَهْرًا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

وَشَرَعَتِهِ الْبَيضَاءِ دُونَ حَيَاءِ

وَيَهْزَأُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لِي

بِكُمْ تَقْتَدِي مِنْ خِدْمَتِي وَوَلَائِي

فَاسْكُتْ عَنْهُ وَالْجَوَانِحُ تَنْطَوِي

عَلَى أَعْظَمِ الْأَشْجَانِ وَالْبُرَحَاءِ

فَيَسْأَلُنِي حَتَّى أَقُولَ لَهُ بِكُمْ

تُرِيدُ وَلَا تَسْأَلُكَ سَبِيلَ جَفَاءِ

فَيَطْلُبُ لِي أَلْفًا مِنَ الصَّفْرِ دَائِمًا

وَعَشْرِينَ عِلْجًا فِي أَقْلٍ فِدَاءِ

وَأَقْسِمُ أَنِّي لَسْتُ أَمْلِكُ عُشْرَهَا

وَبَعْدَ غِطَائِي دَائِمًا وَوِطَائِي

وهو لا يفصح عن سبب أسره وإنما يلمح إلى ذلك فيقول (14):

ولا ذنب لي إلا اشتغالي بكل ما
يسهل لي سبل العلا وتهمني

ويقول (74):

هذا جزاء مخالفٍ مثلي أبي
تقوى الآله ودان بالعضيان

وقد ينسب ما حصل له إلى غدر الزمان وريب الدهر فيقول (35):

كشر الزمان بغدره عن نابه
كشر العجوز القاعد الشمطاء
فأحل بي من خطبه ما لم أخل
أنى أراه نازلاً بفنائى

ويقول (14):

رمانى زمانى منه عن قوسٍ صرفه
بأبذة بين العداة بأسهم

وفي هذه القصيدة يشير إلى أنه بيع - بعد أسره - بيع العبيد:

وبيعى كبيع العبد بيع تزايد
بدرهم نقد زائد بعد درهم

وهو يذكر في بعض شعره أن أسره كان تدرأ كتب عليه (3):

يا موثقاً بين العدى بقيوده
يجنى لديهم ذلةً وصغاراً

حكم الإله عليه بالأسر الذي
ما في عظيم بلائه يتمارى

اضْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَاَرْضْ بِمَا قَضَى
تَكْتَبُ لَدَيْهِ مِنَ الْأَنْامِ خِيَارًا

وفيهما يقول متشفعاً بجاه النبي :
مَالِي إِلَى رَبِّي سِوَاكَ وَسِيلَةً
أَرْجُو بِهَا أَنْ يَمْحُو الْأَوْزَارَ
وَيُجَمِّعَ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ بِوَالِدٍ
أَضْحَتْ ضُلُوعِي مِنْ نَوَاهِ جِرَارًا

ومن تَوَسَّلِهِ وهو في الأسر قوله (73):
يَا مَنْ عَلَيْهِ فِي السَّرَاحِ أُعْوَلُ
وَأَلَيْهِ فِي تَعْجِيلِهِ أَتَوَسَّلُ
أَنْتَ الْمُؤَمِّلُ لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا
وَعَلَيْكَ فِي تَخْفِيفِهَا أَتَوَكَّلُ
وَلَقَدْ قَضَيْتَ عَلَيَّ بِالْأَسْرِ الَّذِي
مَا مِثْلُهُ خُطْبٌ عَظِيمٌ مُعْضِلُ
فَحَمَلْتُ مِنْ كُرْبَاتِهِ الْكَرْبَ الَّذِي
مَا مِثْلُهُ شَخْصٌ أَسِيرٌ يَحْمِلُ
وَصَبَرْتُ صَبْرَ مُقَوَّضٍ لَكَ أَمْرُهُ
رَاضٍ بِمَا تَقْضِيهِ فِيهِ وَتَقْبَلُ
يَا رَبِّ فَاثْمُنْ بِالسَّرَاحِ مُعْجَلًا
فَأَنَا سَرَاحِي مِنْ جَلَالِكَ أَسْأَلُ

وقوله (81):

يَا مَنْ قَضَى بَعْدَ ابْنِي وَمِخْنَتِي وَاکْتِثَابِي
وَحِذْمَتِي لِأَنْاسٍ مِنَ النَّصَارَى الْكِلاَبِ

عَلَيْكَ رَبِّ اعْتِمَادِي فِي كَشْفِ كَرْبِي وَمَا بِي
وقوله (36):

وَقَضَى عَلَى قَوْمٍ بِنِعْمَةِ رَحْمَةٍ
وَلَاخِرِينَ بِنِقْمَةٍ وَبِلَاءٍ
وَأَحْلَنِي مَعَ مَنْ قَضَى بِلَائِهِ
مَنْ خَلَقَهُ فِي الرُّتْبَةِ الْعُلْيَاءِ
لِافْوَزٍ فِي دَارِ الْكِرَامَةِ وَالْجِزَاءِ
بِكِرَامَةٍ عَظُمَى وَحُسْنِ جِزَاءٍ
هَذَا مَعَ الصَّبْرِ الَّذِي أَدْعُو بِهِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ قَدَمًا يُجِيبُ دَعَائِي
سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ سُبْحَانَهُ
عَدَدَ الْحَصَا دَابَّاءَ وَقَطْرِ الْمَاءِ
مَا فِي الْوُجُودِ سِوَاهُ أَرْجُو فَضْلَهُ
فِي أَنْ يُبَدِّلَ شِدَّتِي بِرَخَاءٍ
وَيُحْلَلَ قَيْدَ الْأَسْرِ عَنِّي عَاجِلًا
مَعَ مَنْ بِأُبْدَةِ مِنَ الْأَسْرَاءِ
فَهُوَ الْمُفْرَجُ لِلْكَرُوبِ إِذَا ذَهَتْ
وَبِهِ أَنْجِلَاءُ نَوَائِبِ الْأَسْوَءِ

وقد يرى أن ذنوباً ارتكبتها كانت من أسباب محنته وأسره وفي ذلك
يقول نادماً على ما اقترَفَ وسائلاً العفو والفرج (40):

إِذَا ضَاقَ ذَرْعِي بِاحْتِمَالِ عَنَائِي
مَدَدْتُ إِلَى رَبِّي يَدِي بِدَعَائِي

فَادْعُوا وَأَرْجُوا أَنْ يُجِيبَ تَكْرُمًا
وَحَاشَا وَكَلاَّ أَنْ يَخِيبَ رَجَائِي
فَفِي الذِّكْرِ نَصٌّ بِالْإِجَابَةِ مَفْصُحٌ
غَدَا شَاهِدًا مِنْ أَعْدِلِ الشُّهَدَاءِ
فِيَا رَبِّ يَسِّرْ كُلَّ عُسْرٍ قَضَيْتُهُ
عَلَيَّ وَفَرِّجْ كُرْبَتِي وَبَلَائِي
وَجُدْ بِجَمِيلِ الْعَفْوِ عَنِّي تَفَضُّلاً
فَعَفْوُكَ يَا رَبِّي أَجَلُ مُنَائِي
وَلَا تَلْتَفِتْ نَحْوَ الذَّنُوبِ الَّتِي مَضَتْ
فَمِنْهَا بَلَاءُ الْأُسْرِ أَعْظَمُ دَاءِ
فَلَمْ آتِهَا جَذْلَانِ يَوْمَ أَتَيْتَهَا
وَأَنْتَ بِجَهْرِي عَالِمٌ وَخَفَائِي
وَمَا كُنْتُ أَرْضَاهَا لِنَفْسِي سَجِيَّةً
أَعَابُ بِهَا فِي بُكْرَتِي وَمَسَائِي
وَلَكِنَّمَا الشَّيْطَانُ غَرَّ بِكَيْدِهِ
فَوَاقَعْتُ مِنْهَا مَا أَطَالَ بُكَائِي

وكان يظن في بعض أوقات أسره أن وثاقه لن يفك عنه وأنه سيظل
في الأسر إلى الأبد، ولذلك نجده يتمنى الموت (74):

إِنْ لَمْ تُيسِّرْ سَرَاجِي
يَا رَبِّ يَسِّرْ مَمَاتِي
فَالْمَوْتُ عِنْدِي خَيْرٌ
مِنْ خِدْمَتِي لِلْحَيَاةِ

ويقول (74):

الموتُ أهونُ من أسيرٍ بأبْذَةٍ
عندَ الذي ذاقَه فيها مِنَ النَّاسِ
ما ذاكَ إلَّا لما يَلْقَى الأسيرُ بها
من الثِّقافِ العظيمِ الخطبِ والباسِ

وكانت أيام الأسر بأبْذَةٍ تمرَّ عليه طويلة بطيئة لا يعرف فيها راحة ولا
تغمض له عين، (74):

أعاذكَ اللَّهُ من أسيرٍ بأبْذَةٍ
فالعَيْنُ في أسْرِها لم تَكْتَحِلْ بِسِنَّهْ
ناهيكَ من بلدٍ يومَ الأسيرِ بهِ
شهرٌ وليلتهُ معدودة بِسِنَّهْ

وقد بلغه وهو في الأسر أن بعضهم شمت به فقال يخاطبه:

يا شامِتاً بِي وَهُوَ يُظْهَرُ رَحْمَةً
أصْبِرْ فَدَيْتُكَ لِلزَّمانِ قَلِيلاً
فالدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حالٍ بَدَتْ
إِلَّا وَيُعَقَّبُ بَعْدَها تَحْوِيلاً
كَمْ مِنْ أسيرٍ موثَّقٍ بِقِيودِهِ
أَمْسَى وأَصْبَحَ مُطْلَقاً مَحْلُولاً
ولكم طليقٍ لم يُقَدَّرْ أسْرُهُ
أَمْسَى وأَصْبَحَ موثقاً مَغْلُولاً

وكانَ يَأْنَسُ بما يصله من رسائل شيخه الأستاذ أبي عبد الله البياضي
الذي كان يحضه على الصبر الجميل، ويسوق فيها الأمثال والمواعظ؛ وفي
هذا يقول (19):

كَأَنِّي بَكْتَبٍ جَاءَنِي مِنْكَ بَارِعٌ
 هَضَرْتُ بِهِ لِلصَّبْرِ أَغْصَانَهُ الْمُلدَا
 كِتَابٌ هُدًى حَلِيَّتُهُ بِمَوَاعِظٍ
 بَلَغَتْهَا أَضَحَتْ عَلَى كَبْدِي بَرْدَا
 بَقِيَتْ تُسَلِّي كُلَّ نَفْسٍ بِمِثْلِهِ
 وَتَبْدُلُ مِنْ تَأْنِسِهَا الْوُسْعَ وَالْجُهْدَا

ويقول (19):

لِسَانِي عَلَى أُسْرِي بُوْدُكَ لَا فِظُ
 وَقَلْبِي عَلَى بُعْدِي لِعَهْدِكَ حَافِظُ
 وَفِي كُلِّ أَوْقَاتِي أَرَاكَ تَخِيْلًا
 كَأَنِّي بَعِينِي نَحْوَ وَجْهِكَ لَا حِظُ
 وَنَصَبَ عِيَانِي مِنْ كِتَابِكَ مُرْشِدُ
 يَحْضُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَوَاعِظُ
 كِتَابٌ يَرُوقُ الطَّرْفَ رَائِقُ خَطُهُ
 فَيَقْرَأُهُ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ جَاحِظُ

كَمَا كَانَ يَخَفُّ عَنْهُ فِي أُسْرِهِ حَسَنَاءُ نَصْرَانِيَّةٍ تَدْعَى «الْبِيرَةَ» وَقَدْ تَغَزَّلَ
 فِيهَا فِي بَعْضِ قِصَائِدِهِ، وَإِلَيْهَا يُشِيرُ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مُورِّياً بِاسْمِهَا الَّذِي هُوَ
 اسْمُ مَدِينَةٍ وَبَابٍ فِي غِرْنَاطَةِ (74):

شَأْنِي بِأَبْدَةٍ لَا أَسْتَطِيعُ لَهُ
 وَصْفًا يُوَافِي لِسَانِي عَنْهُ تَغْيِيرَهُ
 وَالصَّبْرُ فِي أُسْرِهَا مَا كُنْتُ أَلْفُهُ

لَوْلَا اجْتِلَائِي فِيهَا حَسَنَ الْبِيرَةِ

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّهُ فِي قِصَائِدِهِ إِلَى وَالِدِهِ وَشَيْخِهِ الْبَيَانِيِّ وَبَعْضِ أَصْدِقَائِهِ

لم يكن يطلب منهم العمل على افتكاكه من الأسر وإنما كان يشكو حاله
ويسألهم الدعاء له، قال يخاطب شيخه البياني (19):

وَحُصِّنِي بِنَصِيبٍ مِنْ دُعَائِكَ لِي
لَعَلَّ نَحْوِي بِهِ الْأَيَّامُ تَنْعَطِفُ

وقال أيضاً (16):

جَاءَتْكَ مِنْ خَجَلِ التَّقْصِيرِ لَابِسَةٌ
ثَوْبَ الْحَيَاءِ الَّذِي مَا مِثْلُهُ لُبْسًا
فَاعْذُرْ بِفُضْلِكَ صَبًّا صَاعِهَا عَجَلًا
يَشْكُو بِأُبْذَةِ أَسْرًا صَبَاحَ مَسَا
أَتَى بِهَا يَتَغْنِي مِنْكَ الدَّعَاءُ لَهُ
لَمَا رَأَى أَنَّهُ فِيهَا حَلِيفُ أَسَى
فَهَبْ لَهُ مِنْهُ حِظًّا وَافِرًا لِيَرَى
مِنْ السَّرَاحِ بِهِ مَا مِنْهُ قَدْ يَثْسَا

وفي الشعر الذي قاله البسطي في الأسر كثير من الشوق والحنين إلى
أهله وبلده وإخوانه، قال من قصيدة كتب بها لأهله (37):

يَا سَاكِنِينَ بِبَسْطَةٍ دُونِي وَلِي
قَلْبٌ بِهِمْ مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامَا
إِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ عَنْكُمْ نَازِحًا
فَالْقَلْبُ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ أَقَامَا
وَجَلَالِكُمْ وَجَمَالِكُمْ وَكَمَالِكُمْ
قَسَمًا بِذَلِكَ كُلِّهِ إِعْظَامَا
مَالِي بَغِيرِ حَدِيثِكُمْ شُغْلٌ وَلَا
أَرْعَى لغيرِكُمْ هَوًى وَذِمَامَا

وَحَلَالٌ نَوْمِي بِالْفِرَاقِ جَعَلْتُهُ
 مِنْ يَوْمٍ فُرِّقْتُمْ عَلَيَّ حَرَامًا
 فَالنَّوْمُ قَدْ عَادَى الْجُفُونَ ضَرُورَةً
 فَغَدَّتْ جُفُونِي مَا تَذُوقُ مَنَامًا
 وَنَسِيْمُكُمْ لَوْ زَارَنِي لَوَجَدْتُهُ
 بَرْدًا عَلَى نَارِ الْحَشَا وَسَلَامًا

وقال من قصيدة أخرى (19):

إِنْ خَانَنِي جِلْدِي فِي الصَّبْرِ عَنْ بَلَدِي
 وَكُنْتُ مِنْ كَمَدٍ فَوْقَ الَّذِي أَصِفُ
 فَالْعَذْرُ يَقْبَلُهُ فِي ذَاكَ كُلُّ فَتَى
 لِأَنَّهُ وَاضِحٌ لِلْعَيْنِ مُنْكَشِفُ
 أَسْرٍ تَصَاحِبُهُ الْأَغْلَالُ دَائِمَةً
 وَمَحَنَةٌ مَعَهَا الْأَشْغَالُ وَالْكَلْفُ

عرفنا ممّا سبق أن الشاعر طُلب منه ألف دينارٍ في فديته، وهو مبلغ كبير ولا نعرف هل خُفِّضَ فيما بعد إلى مبلغ أقل منه، ويبدو أن الشاعر دبره من بيع كتبه فهو يقول مخاطباً صديقه ابن الحسن النباهي المالقي عند خروجه من الأسر (34):

يَا سَيِّدًا مَتَفَضَّلًا أَبْوَابُهُ
 أَضَحَّتْ مَحَلَّ الشَّدْوِ وَالْإِنشَادِ
 أَغْلَاقَ عِلْمِي بَعْتُ فِي الْخَطْبِ الَّذِي
 هُوَ ظَاهِرٌ لِلْمَبْتَدِي وَالشَّادِي
 وَالْجَبْرَ أَرْجُو إِنْ عَلَيَّ عَظَمْتُمْ
 بِرِسَالَةِ التَّنْبِيهِ وَالْإِشَادِ

ولا نعرف كم كان عمر الشاعر في وقت أسره ويبدو أنه كان شاباً كما
قدّرنا، ولعله كان متأهلاً فقد وجدناه يكتب من السجن إلى أهله زيادة على
كتابته إلى والده ويحّن إليهما (5):

لَكِنْ تَحِنُّ لِلوَالِدِ وَلِزَوْجَةٍ
وتحبُّ مَالاً صَامِتاً وَعَقَاراً

ولقد رجع الشاعر من أسره إلى بلده بسطة ورضي من الغنيمة
بالإياب، ونجده يقول بعد بلوغ الأربعين (135):

دِنْتُ بِالْجَدِّ، فَقَالُوا: عَكْسُهُ
مذهبٌ لي، قول قومٍ مُفْتَرِينِ
قلتُ ما أقْبَحَ عَكْسَ الجَدِّ لَأَ
سَيِّمًا بَعْدَ بُلُوغِ الأَرْبَعِينَ

وهو يفصح عن هواجسه ويستحضر ذكر الموت في هذه السن، ويعبر
عن تطلّعه إلى تأدية فريضة الحج فيقول (135):

مَرُورُ الأَرْبَعِينَ أَطَارَ نَوْمِي
وَأَجْرَى فَوْقَ صَفْحِ الخَدِّ دَمْعِي
وَعِلْمِي بِالرَّحِيلِ غَدَاً وَتَرْكِي
مِنْ أَهْلِي مَنْ غَدَا بَصْرِي وَسَمْعِي
وَمَا يَشْفِي الذِّي أَشْكُوهُ إِلَّا
مَبِيتِي مُحَرِّمًا أَدْعُو بِجَمْعِ

ويؤكد هذا في أبياتٍ يقول فيها (134):

إِذَا مَا النَفْسُ مَالَ بِهَا هَوَاهَا
لَأَمْرٍ مَا شِمَالاً أَوْ يَمِينَا

أَقُولُ لَهَا أَقْصِرِي نَفْسِي وَكَفِّي
فَلِمَ تَنِي قَدْ بَلَغْتُ الْأَرْبَعِينَ
وَحَسْبِي مَا مَضَى عَنِّي وَوَلِّي
وَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ بِهِ رَهِينَا
فَمَا زَالَ الْهَوَى يُرْدِي قَدِيمًا
وَيُورِثُ أَهْلَهُ دَاءً دَفِينَا
وَمَنْ عَادَى الْهَوَى وَالْعَكْسَ وَالْي
مِنْ الشَّرَفِ اقْتَنَى عِلْقًا ثَمِينَا
وَسَارَ بِسِيرَةٍ يُثْنَى عَلَيْهَا
وَسَاوَى مَنْ سَمَا عِلْمًا وَدِينَا

وله قصيدة في لوم النفس ومحاسبتها مطلعها (149 - 150):

إِلَى كَمْ تَمِيلُ النَّفْسُ بِي لِلْهَوَى الْعُذْرِي

وَشَيْبُ عِذَارِي مُبْطِلٌ فِي الْهَوَى عُذْرِي

وفيها يشير إلى بلوغه الخمسين:

أَيُّلَهُوْ أَمْرُوْ مُثْلِي صِبَاهُ قَدْ انْقَضَى

بِخَمْسِينَ عَامًا قَدْ تَوَلَّتْ مِنَ الْعُمُرِ

ويبدو أن عمره امتد إلى ما بعد الخمسين فهو يقول من قصيدة في

قائد وادي آش حامد (141):

وَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْقُوَى وَتَغَيَّرَتْ

وَهَلْ قُوَّةٌ بَعْدَ الذَّهَابِ تُعَاوِدُ

وَشَابَ عِذَارِي وَاسْتَحَالَ سَوَادُهُ

وَبِالْمَوْتِ لَا شَكَّ الْمَشِيبُ يَقَاوِدُ

والمفروض أن الشاعر عاش إلى ما بعد سنة 890هـ (1485م) وذلك لأننا

وجدناه يهتء الفقيه الجعداء (844 - 897هـ) بعودته للقضاء في بسطة، وهذا وقفنا على إعلامه بثبوت رَسْم مكتوب في بسطة بتاريخ «الثامن والعشرين لذي الحجة متم عام تسعين وثمانمائة» (وثائق عربية غرناطية: 99).

كما وجدنا له قطعة لم يفصح عن مناسبتها أو الغرض من نظمها وقال إنه يفهم من النَّظْم، ونرى أنها قيلت في إدانة الفتنة الناشئة بين الأندلسيين على إثر نبذ بيعة السلطان أبي الحسن ودعوة الناس إلى مبايعة ولده أبي عبد الله، وهذا ما أدانه فقهاء غرناطة في فتوى مؤرخة «في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» (المعيار 7: 148) وما هي قطعة البسطي (140):

مَنْ سَعَى فِي عَزْلِ وَالِي
وَابْتَغَى تَقْدِيمَ وَالِي
بِانْتِهَابِ النَّفْسِ وَالْمَا
لِ اجْتِرَاءِ لَا يُبَالِي
فَبِحَقٍّ مِثْلَ هَذَا
نَبَذَهُ فِي كُلِّ حَالٍ
وَاجْتِنَامِ الْبَعْدِ مِنْهُ
فَهُوَ يَدْعُو لِلضَّلَالِ

.....

.....

وهي على نقصانها وعدم استكمالها في الديوان مطابقة في فحواها لمضمون الفتوى المذكورة، وقد اشترك في الإفتاء بها جماعة من أصحاب شاعرنا مثل القاضي ابن الأزرق والمفتي أبي الحسن ابن داود والقاضي الجعداء والحاج القصادي، والقاضي ابن عبد البر؛ وتجدر الإشارة إلى

أن بسطة بلد شاعرنا ظلت وفيّة لأبي الحسن. ومعنى هذا أن البسطي - حسب تقديرنا - بلغ السبعين أو جاوزها وأدرك المرحلة الحاسمة والأخيرة في سقوط مملكة غرناطة، ولعلّه عاش حتى حصار بسطة من قبل الملكين الكاثوليكيّين فردناند وإيزابلا سنة 1489 وهو الحصار الطويل الذي استمر قرابة سبعة أشهر، وضرب فيه أهل بسطة أروع الأمثلة في الصبر والصمود، وانتهى بتسليم المدينة في رابع دجنبر 1489م.

وقد نستأنس في هذا الموضوع أيضاً بمدح القائد حامد قائد وادي آش، وهذا لعلّه الذي اشترك مع القائد محمد بن حسن في الدفاع عن بسطة وقت الحصار.

وللشاعر قصيدة في وصف حصار بسطة منها قوله (99):

عَزَمُوا عَلَىٰ إِجْلَانَا عَنْ أَرْضِنَا
مِنْ بَعْدِ مَا اجْتَمَعُوا لَنَا وَتَأَلَّفُوا
وَأَتَوْا بِكُلِّ مَكِيدَةٍ قَدْ أُرْهِفَتْ
آرَاؤُهَا فِي أَهْبَةٍ لَا تَوْصَفُ
وَتَطْلَعُوا فَرَحًا لَهُذَمَ مَعَالِمُ
لِلَّذِينَ شِيدَ بِنَاؤُهَا وَاسْتَشْرَفُوا
لَمْ يَبْقَ رُمُحٌ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَتَوْا
قَصْدًا بِهِ لِجِهَادِنَا أَوْ مُرْهَفُ
فَالْمُرْهَفَاتُ تَفَلَّلَتْ وَتَحَطَّمَتْ
وَعَدَتْ رِمَاحُ جَمِيعِهِمْ تَقْصِفُ
لَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا لَنَا بِجَمِيعِهِمْ
فَتَخَادَلُوا فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَحَفُوا
رَامُوا النُّهُوضَ حِمِيَّةً فَتَقَهَّقُوا
نُكْصًا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ وَتَوَقَّفُوا

وَأَبَى الْإِلَٰهَ سِوَى حَيَاطِنَا فَلَمْ
يُبْلِغَهُمْ غَرَضاً إِلَيْهِ تَشَوَّفُوا

وله أيضاً قطعة قال إنه جعلها في صدر رسالة وفيها يصف هجوماً
على بسطة (93):

مُصَابٌ عَظِيمٌ دُهِينَا بِهِ
بِهَذِي الدِّيَارِ، وَخَطْبُ طَرَقٍ
هَجَرْنَا الْمُضَاجِعَ مِنْ أَجْلِهِ
وَأَجْفَانُنَا اكْتَحَلَتْ بِالْأَرْقِ
وَلَمْ يَبْقَ [فِيهَا] نَرَاهُ امْرُؤٌ
بِذَا الْقَطْرِ إِلَّا اعْتَرَاهُ الْفَرْقُ
لِهَذَا الْعَدُوِّ الَّذِي أَمَّنَا
وَلِلزَّرْعِ فِي أَرْضِنَا قَدْ حَرَقَ
وَحَازَ مِنَ السَّبْيِ فَوْقَ الْمُنَى
وَكَمْ مُسْلِمٍ دَمَهُ قَدْ هَرَقَ
وَمَا خَرَقَ الْيَوْمَ فِي بَسْطَةٍ
بِغَرْنَاطَةٍ مِثْلُهُ مَا خَرَقَ

ولسنا ندري هل قال هذا في حصار بسطة الأخير الذي أحرقت فيه
بالفعل زروعها وأبيدت أشجارها، أم أنه قال ذلك في مناسبة سابقة، ومن
سوء الحظ أن الشاعر لا يشرح المناسبات ولا ينص على التواريخ، فهو لم
يذكر في ديوانه كله إلا تاريخاً واحداً سبقت الإشارة إليه.

هذا وللشاعر قصيدتان يذكر فيهما مرضه ويقول في إحداهما مبتهلاً

(126):

لَا تَوَاحِدْنِي بِمَا أَسْلَفْتُهُ
وَتَفَضَّلْ مِنْ شَكَاتِي بِالشِّفَا

ويقول في الأخرى (120):

وما زِلْتُ تَشْفِي السَّقَمَ يَا رَبَّ دَائِماً
وَتُطْفِي بَبْرَدِ الْبُرِّ مِنْ غُلَّةِ الصَّدْرِ
فَجُدْ لِي إِلَهِي بِالَّذِي مِنْكَ أُرْتَجِي
وَحَقُّ رَجَائِي فِيكَ يَا عَالِمَ السِّرِّ

وربما كان هذا مما قاله في آخر حياته، ولعل فيه ما يفسر صمته خلال هذه الأحداث الأخيرة التي انتهت بسقوط غرناطة.

أما حياة الشاعر العائلية فقد قدرنا أن يكون تزوج في سن مبكرة حسب المعهود في ذلك الزمان، وفي ديوانه إشارات إلى أولاده، فمن ذلك قصيدة في رثاء ابنين له توأمين مات أحدهما بإثر الآخر. وكانا يسميان بالحسن والحسين - كما هو العرف عندنا إلى اليوم - يقول في مطلعها (107):

أَوْدَى حُسَيْنٌ وَأَوْدَى بَعْدَهُ حَسَنُ
فَطَارَ بَعْدَهُمَا عَنْ مُقْلَتِي الْوَسَنُ

ويفهم من القصيدة أنهما ماتا في الطفولة المبكرة وقد حزن عليهما حزناً شديداً:

لَمْ يُسَلِّنِي عَنْهُمَا مِنْ بَعْدِ بُعْدِهِمَا
مَالٌ مَلَكَتْ وَلَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنُ

وكان له ولدٌ اسمه أحمد، قال يخاطب بعض المؤدبين في شأنه (120):

أَبْنِي مِنَ التَّفْرِيطِ يَا سَيِّدِي
فِي الدَّرْسِ قَدْ [جاء] بِإِفْرَاطٍ
وَحَاجَّتِي إِحْسَانُ تَأْدِيهِ
بِضَرْبِهِ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ

وقد يكون هو الذي داعبه بهذين البيتين (74):

حَذَارِ مَنْ أَكَلَ الْحَوْتَ يَا أَحْمَدَ الرَّضَى

فَفِي أَكْلِهِ ضُرٌّ عَلِمْنَاهُ بِالنَّصِّ

فَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ يُحِبُّونَ أَكْلَهُ

فَأَفْضَلُهُ مَا مِنْهُ سُمِّيَ بِالْمُصِّ (22)

وقال فيمن تعدى على ولد له (96 - 97):

قَالُوا ابْنُ عَمِّكَ إِبْرَاهِيمُ اغْتَدَى سَفْهًا

عَلَيْكَ فِي ابْنِكَ بِالْإِفْرَاطِ فِي الْأَدَبِ

فُخِذْ عَلَى يَدِهِ وَامْنَعْ تَعْدِيَهُ

مَنْ قَبْلَ عَوْدَتِهِ وَالْحَدَّ لِلْعَطَبِ

فَقُلْتُ مَنْ لِي بِكَلْبِ السَّوِّ أَرْجُرُهُ

فَيَقْبَلُ الزَّجَرَ وَهُوَ الْفَذُّ فِي الْكَلْبِ

وَاللَّهِ مَا عَنْ قَبِيحٍ رَمْتُ أَصْرَفُهُ

إِلَّا تَأْتِي وَأَبْدَى الْجَدِّ فِي الطَّلَبِ

وَمَنْ يَكُونُ لَهُ مَنْ نَفْسِهِ أَبَدًا

قَرِينُ سَوْءٍ فَمَا يَنْفَكُ فِي تَعَبِ

وأما العصر الذي عاش فيه فهو عصر انحلال دولة غرناطة واضمحلال مملكتها (1410م - 1492هـ) وقد غلب عليه الخلاف بين النصريين المتصارعين على الملك، وكثرت فيه الفتن الداخلية والحروب الخارجية، وعرف بسلسلة طويلة من المؤامرات والاغتيالات والخيانات، وامتحن فيه المسلمون بضروب من المحن وألوان من الخذلان، ولكنه عرف أيضاً أمثلة من البطولة والبرسالة والصمود، وعاصر الشاعر منذ ميلاده حتى وفاته فيما نقدر هؤلاء الملوك:

- يوسف III (1408 - 1417) .
 محمد VIII (1417 - 1419) .
 محمد IX (1419 - 1427) .
 محمد VIII (1427 - 1429) .
 محمد IX (1430 - 1431) .
 يوسف IV (1431 - 1432) .
 محمد IX (1432 - 1445) .
 يوسف V (1445 - 1446) .
 محمد X (1446 - 1447) .
 محمد IX (1447 - 1453) .
 محمد XI (1451 - 1452) .
 سعد (1453 - 1462) .
 يوسف V (1462) .
 سعد (1462 - 1464) .
 أبو الحسن (1464 - 1485) .
 محمد XII (1482 - 1492) .

وأما بلده مدينة بسطة فقد أصبحت طوال هذا العصر أشبه بالمعسكر منها بشيء آخر، وذلك بسبب موقعها على خط المواجهة مع المسيحيين فكانت مع نشاطها الفلاحي والصناعي ثغراً للجهاد ورباطاً للغزو وظلت ترد الهجمات وتصمد في وجه الغارات، وكانت الأبراج والحصون تتخلل الجنات والبساتين المنتشرة في خارجها. وقد روى التاريخ بعض مواقف أهلها في الثبات والصمود ولكن ظروف الحرب الطويلة كان لها آثار سلبية على أحوالها الدينية والاجتماعية والثقافية وهذا ما سنجد صداه في ديوان شاعرنا البسطي .

الحواشي

(1) هذه صورة ديباجة الديوان المذكورة.

يقول بحمد الله سبحانه وتعالى
عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم
القمي أبا فرائد الله بن عبد الله بن عبد الله

(2) رحلة القلصادي : 162 تحقيق أبو الأجنان.

(3) ثبت فيما يلي صورة ذلك في المخطوط:

انتهى في الجزء الثاني مع من جملة كتاب البيان والتبيين والشرح والتوضيح
والنقد والبيان وما نهى به كل جميع كتاب البيان المذكور وحط إلى مع
مراجعة من القائل بحمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القمي بن
المراد والصلح قوله بحمله وفيه لفظ الغرض لشرح اللفظ المذكور عند
الشيخ رحمه الله ومنه ما نهى به من قوله كلاً ما لا الله تعالى والحمد لله
والعلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما كتب

انظر مخطوط القرويين رقم 324 وفهرس المرحوم محمد العابد الفاسي ج 1 ص 320.

- (3م) بهرام بن عبد الله قاضي القضاة بمصر، ولعلّ الشاعر يشير إلى كتابه الشامل في الفقه الذي كان يدرس في هذا التاريخ بالأندلس (انظر رحلة القلصادي: 164 - 168 وثبت الوادي آسئ: 189) وترجمة بهرام في نيل الابتهاج: 101.
- (4) أظن أنه يشير فيما قبل البيت الأخير إلى قول القلصادي في رحلته (89): ففوت سهم العزم، وأدخلت على التواني حرف الجزم. أما أسنى المواطن الذي يشير إليه في البيت الأخير فهو غرناطة التي استقر فيها بعد عودته من الحج.
- (4م) وثائق عربية غرناطية: 11 تحقيق لويس سيكودي لوثينا.
- (5) المصدر نفسه: 6.
- (6) راجع درة الحجال لابن القاضي.
- (7) المغرب 2: 77 والمعجب: 289.
- (8) المغرب لابن سعيد 2: 77.
- (9) انظر على سبيل المثال تاريخ ابن الفرضي وتكملة ابن الأبار والذيل والتكملة لابن عبد الملك.
- (10) الروض المعطار: 113 تحقيق د. إحسان عباس.
- (11) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: 31 - 32 تحقيق د. العبادي.
- (12) المصدر نفسه: 86 - 87.
- (13) رحلة القلصادي: 62 - 64.
- (14) جنان رومة أو مروج رومة: Praderas de Roma من منتزهات مدينة بسطة. وفي وثائق عربية غرناطية: مرج رومة من حوز قنولش خارج بسطة.
- (15) قنولش في هذا الشعر وفي وثائق عربية غرناطية أو قنالش كما وردت في نصوص أخرى هي الآن Canales de Baza من أعمال بسطة. وقد وصفها ابن الخطيب في خطرة الطيف فقال: «وساعد التيسير، وكان على طريق قنالش المسير، كبرى بناتها (يعني بسطة) وشبهتها في جداولها وجناتها، ما شئت من أدواح توشحت بالنور وتتوجت، وغُدران زرع هبت عليها الصبا فتصوّجت، سفر بها الشقيق الأرجواني، عن خلود الغواني، فاجلنا العيون في رياض، وتذكرنا قول القاضي عياض...».
- (16) هي منية بسطة التي ورد ذكرها مراراً في وثائق عربية غرناطية: 8، 10، 77، 91.
- (17) كذا في الأصل، ولعلها تحريف المنية أي منية بسطة المذكورة في الحاشية السابقة.
- (18) رحلة القلصادي: 85 وللبياني هذا ترجمة في الضوء اللامع 6: 14 ونيل الابتهاج: 308، 321.
- (18م) كذا في الأصل، ولم نقف على هذه النسبة في مكان آخر، والمعروف في أنواع التين بالأندلس المالقي والشعري والإشبيلي والقوطي.
- (19) البُشَرَات Alpujarras الجبال الشامخة وراء المربة.
- (20) انظر هذه النوازل المتعلقة بنظام الشرط في نواحي بسطة وغيرها في المعيار المعرب جـ 7 في مواضع متعددة.
- (21) الجامع والجامعة من الأغلال، والقرمة كذلك وتجعل فيها الرجل أو العنق (دوزي 2: 1337-718) والشب عبارة عن خشبتين تشد بهما ساق الأسير وقد يكون من الحديد، والكلمة في الإسبانية Cepo وفي الفرنسية cep والابريق هكذا في الأصل، ولعله مثل الشب يجعل في الساق كما يقول من قصيدة أخرى (42):
أبيتُ والغُلُّ طول الليل في عُتْقِي وفي يَدَي وكذا الإبريقُ في ساقِي
- (22) المعص نوع من «البونيت» والكلمة مستعملة في اليمن.

كفاحه في سبيل العيش

كان الشاعر البسطي يرى - حسب شعره - أن نعم الدنيا محصورة في ثلاث جمعها في قوله (134):

نعمة الدنيا ثلاث
هُنَّ في الدنيا النِّهَايَةُ
صِحَّةُ الجِسمِ وَزَوْجٌ
وَمِنْ المَالِ الكِفَايَةُ

وقد أنعم الله عليه بالزوج والأولاد، كما أنعم عليه بنعمة الصحة في الجملة، أما النعمة الثالثة - وهي المال - فيبدو أنه لم يرزق منها الكفاية، ولهذا نجده في كثير من قصائده ومقطعاته يشكو سوء الحال.

رأينا أنه هاجر في شبابه طلباً للرزق واشتغل مؤدباً وإماماً في بلد برجة - وربما في غيرها - وتعرض خلال تطوافه - فيما نقدر - للأسر.

ويحدثنا في شعره أنه عين بعد ذلك في بعض الوظائف الدينية

كالإمامة والعدالة وولي مرة ولاية ما ولكنه سرعان ما عزل، وله في هذا
العزل مقطعات منها قوله (153):

عُزِلْتُ فجدَّت في العِتاب لَكُونِها
رَأَتْ مَدَّةَ التَّقْدِيمِ نوعاً من الهزل
فقلتُ لَهَا إِنَّ الْوِلَايَةَ رُبَّمَا
يُؤَخَّرُ عَنْهَا بِالْمَمَاتِ أَوْ الْعَزْلِ
فَقَالَتْ نَعَمْ لَكِنْ وَلايَةٌ بَسْطَةٌ
أَبَى حَمْلَهَا ذُو الْعَقْلِ وَالنَّظَرُ الْجَزْلُ
فقلتُ وَلَا يَرْضَى الْمُقَامَ بِهَا امْرُؤٌ
وَفِي الْأَرْضِ مَا فِيهَا مِنَ الضُّمَرِ الْبُزْلِ
فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ عَزَّكَ تَلْتَمِسْ
وَاخْلُفْ بِهَا هِنْدًا تَعِيشُ مِنَ الْعَزْلِ

ويقول (153):

يَلُومُ خَلِيلٌ أَنْ عَزِلْتُ وَلَمْ أَبْتَ
بِهِمْ لَهُ أَشْكُو الْوَرَى مُهْجَةً حَرَى
فقلتُ لَهُ: الْمَمْلُوكُ لَيْسَ يَهْمُهُ
عَلَى رَغْبَةٍ عَتَقَ يَصِيرُهُ حُرّاً
وَأَنْ الْحُلَى لِلْمَرْءِ وَالْجَوْفُ فَارِغٌ
إِذَا اعْتَبَرْتَ لَيْسَتْ تَزِينُ لَهُ نَحْرًا
فَلَوْ كُنْتُ أَذْرِي قَبْلُ عَزْلِي تَرَكْتُ مَا
تَقَلَّدْتُهُ تَرَكَأً وَنَلْتُ بِهِ أَجْرًا
وَلَكِنِّي فِي قَابِلِ الْعُمَرِ بَعْدَ ذَا
عَلَى خَطَرٍ أَخْشَاهُ لَا أُرْكَبُ الْبَحْرَا

ولسنا نعرف طبيعة هاته الولاية التي أشار إلى عزله عنها في هاتين القطعتين، ونستفيد من قصيدة له أنه عزل عن خطة العدالة (التوثيق) بتدبير من بعض العدول (الموثقين) كانوا خصوصاً له، فقال مخاطباً قاضي بسطة حينئذ أبا حامد ابن الحسن المالقي (27):

قَدَّمْ وَأَخَّرْ فَمَا فِي الْأَرْضِ مُعْتَرِضُ
فَأَنْتَ مَوْلَايَ لِلْأَمْرَيْنِ مُفْتَرِضُ

لكن أَعِدْ نظراً فيما أُتيتَ به
من اهْتِصَامِي فَإِنِّي مِنْهُ مُمْتَعِضُ

وَدَعْ عُدَاتِي وَمَا شَدَّوْا بِكَيْدِهِمْ
فَإِنَّنِي بِكُمْ أَرْجُوهُ يَنْتَقِضُ

حاشا لِمَجْدِكَ أَنْ تَرْضَى جَلَالَتَهُ
فِي جَانِبِي بِالَّذِي - مَوْلَايَ - فِيهِ رَضُوا

وَقَدْ رَأَوْنِي وَقَدَّرِي كَانَ مَرْتَفِعَا
فَلَا يَرَوْنِي وَقَدَّرِي الْآنَ مُنْخَفِضُ

وهو لا يُلَحَّ في طلب العودة إلى خطة العدالة التي اشتمل عليها خصومه أو أعداؤه كما يقول وإنما يطلب من هذا القاضي الذي له فيه مدائح أن يعرضه عنها بخطة الجامع المعلوم في بسطة ويمنحه ما يستعين به على المعاش قال (27):

وَمَقْصِدِي مِنْكُمْ مَا أَسْتَعِينُ بِهِ
عَلَى الْمَعَاشِ فَذَاكَ الْقَصْدُ وَالْغَرَضُ

وَحُطْبَةُ الْجَامِعِ الْمَعْلُومِ آمَلُهَا
لَعَلَّ حُطْبَتَهُ مِمَّا حَوَّوْا عَوْضُ

وَأِنْ أَضَفْتَ إِلَيْهَا مَا ذَكَرْتُ فَقَدْ
شَفَعْتَ عِزِّي بِعِزِّ لَيْسَ يَنْقَرِضُ

فداوني بمرادي إني رجلٌ
أضربني عندهم من عزلي المرص
وإن هم نهضوا جهلاً لجحدكم
فاغزم وقدم ولا تنظر لما نهضوا
ولا تراع لهم حق الصفاء فهم
لمجدكم رعيه - والله - قد رفضوا

وفي هذه الظروف - على ما يبدو - قال الشاعر قصيدته التي يصف فيها إحراق حانوته وأولها (145):

وددت أناساً لم يُراعوا الوداد لي
وما سُمّتهم بالسوء حبة خردل

وهي قصيدة طويلة يصف فيها إجماع الناس في بسطة على اذايته لا لسبب إلا لأنه كان يقول كلمة الحق:

وأموا جميعاً بالاذاية جانبي
على غير ذنب للأذى بمحلل
سوى أنني أصبحت للحق ناصراً
ولم ألتفت منهم إلى عدل عدل

ويشير إلى أن خصومه كانوا في إلحاق الأذى به على قسمين:
فقسم آذاه باللسان، وقسم آذاه باليد، ومن هؤلاء أولئك الذين عمدوا إلى إحراق حانوته الذي كان يجلس فيه للفتيا وعقد الشروط وتقييد العلم:

فإحراق حانوتي لتنحط رُتبتي
يعود عليهم بانعكاس المؤمل
فقد كان للأحكام مجلسها الذي
تصان به من مُفسد أو مُبدل

وكان لتقييد العلوم وضبطها

وعقد شروط القوم أقرب منزل

ويبدو أن القاضي المذكور أسعف طلبه، وحُدِّدَ له مرتب شهري قدره ستون درهماً من قِبَل ناظر الأحباس، وهو شيخه أبو عبد الله البياني، ثم نجده بعد ذلك يشتكي إلى القاضي المذكور من نقص هذا المرتب في الأبيات التالية (72):

يا أثيراً لدى الأنام مكينا

زادك الله في العلى تمكينا

أنت تدري حقيقة أن شيخي

ردّ قدماً مُرتبى سِتينا⁽¹⁾

فلماذا أعاده لَيْت شعري

بعَداً قد شهدت لي خمسينا

كلموه إذا أتاكم فإني

خائف أن يرده عشرينا

واسفَعوا لي بفضلكم في ذنوب

خلت جهلاً قبيحها تحسينا

والظاهر أنه حرم بعد ذلك مرتبه فقال مخاطباً البياني الناظر في

الأحباس الذي خالف «الأمر الكريم» وضع رزق الشاعر المقرر له (67):

لئن ضاع رزقي عندك اليوم إنه

لدى قاسم الأرزاق ليس يضيع

وإن كنت للسلطان وحدك عاصيا

فإني له بين الأنام مُطيع

وإن كنت في مرضاته مُتباطئاً

فإني في مرضاته لسريع

وما بيدي مِنْ أَمْرِهِ إِنْ وَضَعْتَهُ

فمقدارُهُ عِنْدِي الْغَدَاةَ رَفِيعَ

ولعلَّه يقصد هذا الموضوع حين يقول من قصيدة أخرى مشيراً إلى أن الناظر المذكور تَغَيَّرَ عليه بعد أن كان له خليلاً، ومنعه حقه، ولم يلتفت إلى أمر الإمام في شأنه، قال (47):

وأبْدَى عُبُوسَ الْوَجْهِ مِنْ بَعْدِ بَشْرِهِ

وَصَيَّرَ لِي الْوُدَّ الصَّحِيحَ عَلِيلاً

وَدَانَ بِمَنْعِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ وَاجِبٌ

وَهَيَّجَ وَجْداً فِي الْحِشَا وَغَلِيلاً

ولو أَنَّهُ أَمْضَى مَرْفَعِ حَكْمِهِ

لَأَلْفَى إِلَى إِمْضَاءِ ذَاكَ سَبِيلاً

وَلَمْ يَرْعَ حَكْمَ الشَّرْعِ فِي ذَاكَ عَامِداً

وكان بزعم الشرع فيه كفيلاً

وهو في هذه القصيدة يعلن عزمه على الرحيل عن بلده فراراً من الظلم والعدوان وأنفة من تحمّل الضيم والهوان ونشداناً للأنس والسلوان:

خَلِيلِيَّ مَا مِثْلِي يَقِيمُ ذَلِيلاً

وَيَحْمِلُ مِنْ ضَمِيمِ الزَّمَانِ ثَقِيلاً

وَيَرْضَى بَعِيشٍ لَا يَزَالُ بَبْسُطَةً

يَجْدَدُ مِنْ خَطْبِ الْهُمُومِ جَلِيلاً

فَلَا تَعْدُلَانِي فِي رَحِيلِي عَنْكُمْ

فَلَمَّانِي لَمَّا أَلْفَى عَزَمْتُ رَحِيلاً

فَكَيْفَ لِنَفْسِي أَنْ تَقِيمَ بِلَدَةٍ

تَشَاهِدُ فِيهَا مِثْلَ ذَا وَثَقِيلاً

فَإِنْ مِنَ الْعَجْزِ الشَّوَاءَ بِمَوْطِنٍ
يَكُونُ بِهِ الظُّلْمُ الذَّمِيمُ نَزِيلًا

ولكنه - فيما يبدو - لم يستطع فراق أهله، ومكث ببلده نادباً حظه
باكياً محتته، رافعاً شكواه إلى بعض ذوي السلطان كما في هذه القصيدة
التي خاطب بها «الرئيس الوزير الحاجب أبا يحيى ابن عاصم» (حوالي
857هـ - 1453م) وقد استهلها بهجاء خصومه الذين تواصلوا بمنع حقه فقال
(62 - 63):

أنت الدواء إذا ما أعضل الداء
ورام هَضْمِي حَسَّادٌ وَأَعْدَاءُ
قَوْمٍ ضِعَافُ الْقَوَى فِي كَسْبِ مُنْقَبَةٍ
وفي اكتسابِ الْمَسَاوِي هُمْ أَشْدَاءُ
الشَّكْلُ شَكْلُ الْوَرَى وَالْخَلْقُ خَلْقُهُمْ
وَهُمْ إِذَا نَطَقُوا لَا شَكَّ أَصْدَاءُ
أمرُ الأمير مضاع بين أظهرهم
وَهُمْ إِذَا خَوَّصُوا قَوْمَ الدَّاءِ
والحقُّ عندهم أنواره خفيت
وعندهم لظلام الظلم إبداء
هُمُ الْعِدَاةُ إِذَا غَابُوا، فَإِنْ حَضَرُوا
قالوا بِمَكْرِهِمْ: إِنَّا أَوْدَاءُ
لِئَن تَوَاصَوْا بِمَنْعِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ
وقصدُهم بِي إِضْرَارٍ وَإِرْدَاءِ
فبالرئيس أبي يحيى بن عاصم لي
على جميعهم نصرٌ وإعداءُ

هو المؤملُ بعدَ اللهِ ينصُرُنِي
لو كَانَ من نحوه بالنصرِ إهداءُ
لَهُ بما نالني أصبحتُ مُشْتَكِيًا
وإن عدتُ عنه للمظلومِ بَيِّدًا
عساه يأخذُ حقِّي منهمُ عَجَلًا
فلم يَزَلْ منه لي بالفضلِ إِسْدَاءُ
ثم ختم القصيدة بأبيات في مدح الرجل، ويتضح من قول الشاعر:
لَهُ بِمَا نالني أَصْبَحْتُ مُشْتَكِيًا
وإن عدتُ عَنْهُ لِلْمَظْلُومِ بَيِّدًا
أنه أرسل القصيدة من بسطة إلى المذكور في غرناطة.

ولما استخلف أبو عبد الله محمد بن مالك الأليري على قضاء غرناطة
فرح شاعرنا بذلك لأنه صديق الشاعر ورفيق دراسته، وقد عبر عن فرحه في
أشعار هنأه فيها بالخطة السامية وذكره بحقه المهضوم، وهو يختتم قصيدة
في تهنئة القاضي المذكور قائلاً (88):

وعَجَّلْ سَيِّدِي نَصْرِي فَحَقِّي
كَمَا تَذْرِي وَتَعْلَمُ وَالسَّلَامُ

وقال في آخر قصيدة أخرى (51):

وَمَهْرَهَا اجْعَلْهُ بِلا مانعٍ
إِنْفَادَ مَا مِنْ قِصَّتِي تَعْلَمُ

ولا نعرف تاريخ تولي هذا الفقيه قضاء الجماعة. ويظهر أن ولايته
كانت قبل ولاية ابن عاصم لأن هذا ينقل عنه في شرح التحفة.

ولا يشير الشاعر في شعره الذي هنأ فيه القاضي ابن منظور بقضاء

الجماعة إلى قصته وإنما يذكر أن دولته أفضل من دولة ابن جماعة، وقد ولي ابن منظور قضاء غرناطة خلال 864هـ - 870هـ وكانت صلة الشاعر به متينة، وقد يكون أفتى في قضيته لصالحه كما سنرى، ولكننا لا نجد في شعره ما يدل على إنصاف مطلبه، وإنما نراه يستمر في شكواه، فمن ذلك تخميسٌ يذكر فيه أخلاق صنفه المعاصرين له، المتحزبين ضده، من خطباء وشيوخ وقضاة، ونورده هنا على سبيل التوثيق قال: (69):

إِسَاءَةُ الصَّنْفِ فِي ذِي النَّفْسِ قَدْ فَجَعَتْ
وَالْقَلْبَ قَدْ صَدَعَتْ وَالظَّهَرَ قَدْ قَطَعَتْ
وَقَائِلٍ قَالَ لَوْ أَقْوَالُهُ سُمِعَتْ
قَابِلُ أَخِي سَقَطَاتِ النَّاسِ إِنْ وَقَعَتْ
يَوْمًا بَعْفُو وَإِعْضَاءُ وَإِعْغَامَاضٍ
فَقُلْتُ وَالنَّفْسُ لَمْ تَجْنَحْ لِمَذْهَبِهِ
وَقَدْ رَأَتْ مَا رَأَتْهُ مِنْ تَجَنُّبِهِ
يَا قَلْبُ صَبْرًا لَصَنْفٍ فِي تَحْزِينِهِ
فَلَسْتَ تَبْصُرُ مَا تَرْجُو السُّرُورَ بِهِ
لَا مِنْ خَطِيبٍ وَلَا شَيْخٍ وَلَا قَاضٍ
حَسِبْتُهُمْ عُدَّةً مِنْ أَفْضَلِ الْعُدَدِ
وَاسْتَمْسَكْتُ بِهِمْ دُونَ الْأَنَامِ يَدِي
حَتَّى انْجَلَى أَتَهُمْ مِنْ كَثَرَةِ الْحَسَدِ
إِذَا رَأَوْا نِعْمَةً لَاحَتْ عَلَى أَحَدٍ
أَضْحَى الْجَمِيعُ وَمَا مِنْهُمْ بِهَا رَاضٍ
كَبِيرُهُمْ بِالْحَشَا مِنْ حَقْدِهِ مَرَضٌ
بِالشَّرِّ مَنِبَسُطٌ بِالْخَيْرِ مُنْقَبِضٌ

وإن أصغرهم بالسوء معترض
فهجرهم واجب عليّ مفترض
والحق إن يلتقوا يلتقوا بإعراض

ومما قاله مخاطباً حابس مرتبه (78):

ماذا تقولون لي يوم الحساب إذا
طلبتُ حقي لكم في واجب الطلبة
والله سبحانه ما بيننا حكم
يقضي عليكم به بالقهر والغلبة
فاجلب لنفسيك ما ترجو الخلاص به
من الأداء فيا توفيق من جلبه
وحظ نفسك دُع الله مُحْتَسِباً
قَبْلَ المماتِ وأعطِ الحقَّ من طلبه
فليس يرضى بمنع الحقِّ صاحبه
ظُلماً له مَنْ يَرَى لِلَّهِ مُنْقَلَبَهُ
وقد نصحتك نصحاً إن عملت به
عُصِمْتَ إذ لفظه حصن لمن قلبه

ويشير في البيت الأخير إلى أن مقلوب نصح هو حصن. وحين أعيته
الشكوى إلى ذوي السلطان لجأ إلى سلاح الدعاء والابتهاال إلى الله عزَّ
وجلَّ كي يأخذ له الحق ممن اهتمم حقه وحبس عنه واجبه، وهذا ما
تفصح عنه هذه القصيدة (48):

أيا ربّاً إذا يُدعى يُجيب
دعوتك فاستجب لي يا مُجيب

فإني لاهتضامي واحتقاري
بحس مرتبي مُضنى كئيبُ
أكاد لفرط ما ألقاهُ أفنى
وللشكوى التي أشكو أذوبُ
فدمعي في الخدود له انسكابُ
وقلبي للأوار به لهيبُ
وليلي للكتابة مُذلهمُ
ويؤمي للذي أشكو عصبُ
وقد أصبحت في كربٍ عظيم
وعيش لا يلدّ ولا يطيبُ
وأحبس واجبي رجلٌ ظلوم
غشوم لا يتوب ولا ينيبُ
يجور بحسبه جوراً عظيماً
ولا يخشى مكانك يا رقيبُ
ولا أحد سواك به انتصاري
عليه يا مهيمن يا قريبُ
فخذ لي يا إلهي الحق منه
وخفف من خطوب ما أصيبُ
فأنت الله تعلم ما ألاقي
وحالي عن عيانك لا يغيبُ

وبعد هذا يذكر - مرة أخرى - تواطؤ المتمتعين بمراتب الأعباس من
صنفه وطبقته على إبطال حقه وإنكار نصيبه، ويهجوهم هجاء مرّاً فيقول:

وَلَا تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ رَبِّي
فشأن الكل في أمري عجيبُ

وَقَالُوا لَيْسَ فِي أَحْبَابِهِمْ لِي
 إِذَا عَدُّوا نَفْسَهُمْ نَصِيبُ
 وَقَدْ كَذَبُوا وَمَا إِنَّ ذَاكَ بِدُعٍ
 فَمَا فِيهِمْ إِلَّا فَتَى كَذُوبُ
 بَطِيءٌ فِي اكْتِسَابِ الْحَمْدِ لَوْماً
 وَفِيمَا ذَمَّ سَبَّاقُ نَجِيبُ
 عَلَى ظَلَمِ الْوَرَى أَبْدَأُ مُصِرُّ
 وَفِي إِبْدَاءِ عَوْرَتِهِمْ دَعُوبُ
 فَدُونَ صَغِيرِهِمْ فِي اللَّؤْمِ كَلْبُ
 وَدُونَ كَبِيرِهِمْ فِي الظُّلْمِ ذِيبُ
 عَلَى وَجَنَاتِهِمْ لِلْخُبْثِ وَشْمُ
 فَكُلُّهُمْ لَشُهْرَتِهِ مُرِيبُ
 وَيَخْتَمِ الْقَصِيدَةَ بِالتَّشْفَعِ بِالرَّسُولِ وَالتَّوَسُّلِ بِجَاهِهِ عِنْدَ اللَّهِ فَيَقُولُ
 وَقَدْ صِيرْتُ جَاءَ مُحَمَّدٍ لِي
 إِلَيْكَ وَسِيلَتِي فَحُشَا أَخِيبُ

وانتهى أمر هذه الحادثة البارزة في حياة صاحبنا بتعطيل الوظائف التي
 كان يقوم بها في الجامع الأعظم ببسطة، وفي هذا يقول (151):

تَرَكْتُ كَلَامِي وَالْقِرَاءَةَ وَالْفُتْيَا
 بَبَسْطَةَ وَاخْتَرْتُ الْخُمُولَ بِهَا رَأْيَا
 فَلَسْتُ إِلَيْهَا مَا حَيِّتُ بِعَائِدِ
 وَلَوْ أَنَّنِي أُعْطِيَ عَلَى حَمْلِهَا الدُّنْيَا

وهكذا أدخل الفقيه الشاعر مكرهاً إلى الخمول والابتعاد عن هذه
 الوظائف الدينية التي كالفح كفاً مريراً من أجل استمرارها والبقاء فيها،

وقد توجع لتداعي دين الهدى ووهيه في بلده بسطة ووصم أهلها بالجهل
والبغي وقال فيهم:

مناهم مدى الأيام ذلّ إمامهم
وذلّ إمام القوم من أقبح الأشياء

وفي ديوان الشاعر أشعار أخرى خاطب بها ناظر الأحباس البياني في
طلب آخر لم يلق لديه القبول أيضاً على ما يظهر، فقد كتب إليه مرة راعياً
في كراء ملك للأحباس بجوار ملكه (119):

سَيِّدِي لِي رَغْبَةٌ فِي حُبْسٍ
بجواني في اكتراء الإغرش^(١)

لَأَذَى مِنْ أَجْلِهِ يَلْحَقُنِي
كلما يُسْقَى ضَحَىٍّ أَوْ بِالْعَشِيِّ
وَالْكَرَاءُ انْصَرَمَتْ مَدَّتُهُ

والمُكَارِي الْأَخْذُ مِنْهُ قَدْ خَشِيَ
بَانَ لِي ذَا مِنْهُ إِذْ قُلْتُ لَهُ

نَقَّ مَسْقَاكَ زَمَانَ الْعَطَشِ
فَعَسَى بِالْقَصْدِ تُلْفَى مُؤْنَسِي

لَا تَكُنْ بِالرَّدِّ تُلْفَى مَوْحِشِي

وأتبع هذا بمدحه مدحاً أطنب فيه، ولما تباطأ ناظر الأحباس كتب إليه
الشاعر يذكره بهذه الأبيات (122):

يَا سَيِّدِي الْحَبْسُ الَّذِي خَاطَبْتُكُمْ
فِي شَأْنِهِ، أَمْدُ الْكِرَاءِ فِيهِ انْتَهَى
وَأَنَا عَلَى مَا كُنْتُ مِنْ رَغْبَتِي
فِي أَخْذِهِ لَمْ أُنْتَقِلْ عَمَّا مَضَى

فَعَسَاكُمُ أَنْ تُبْرَمُوا فِيهِ مَعِيَ
عَقْدَ الْكَرَاءِ عَلَى الَّذِي الْحُبُّ اقْتَضَى
وَلَمَدَةٍ شِئْتُمْ بِمَا قَدْ شِئْتُمْ
إِنِّي جَعَلْتُ إِلَيْكَ ذَاكَ مُفَوَّضَا

ويبدو أن ناظر الأحباس لم يلبّ رغبته في ذلك ومن ثم فسد ما بينه وبين الشاعر، وها هو يقول مخاطباً إياه في شأن خراجة حكم عليه بتعطيلها جوراً وظلماً كما يقول (148):

عَطَلْتَ خَرَاஜَةَ⁽²⁾ الدار التي قَدَمْتُ
جَوْرًا وظُلْمًا كما قد شاءه القَدْرُ
ولم يَكُنْ في حِسَابِي ذَاكَ مُعْتَبَرًا
حتى بَدَتْ لِي من تعطيلها عِبْرُ
فَأَذْهَلَ النَّفْسَ حَتَّى عَنْ مَرَاشِدِهَا
وَاسْتَقْبَلْتَنِي بِهِ الْأَشْجَانُ وَالْغَيْرُ
فَالهَطْلُ عِنْدَ نَزْوِلِ الْغَيْثِ وَاكْفُهُ
قَدْ ضَرَّنِي ضَرَرًا مَا مِثْلُهُ ضَرُرُ

ولعلّ مما يتصل بكراء الحبس السابق قوله مخاطباً بعض أصحابه

(111):

يَا مَنْ عَلَا قَدْرًا عَلَى نُظَرَائِهِ
بِدَائِعٍ قَدْ أَعْجَزَتْ نُظَرَاءَهُ
إِنْفَاقُ مَنْ تَدْرِيبِهِ زَادَ وَإِنَّهُ
لِيَوْدُ مِنْ حُبْسٍ إِلَيْكَ كِرَاءَهُ
فَابْعَثْ بِهِ مَعَ وَاصِلٍ، أَوْصِلْ بِهِ
مَنْفَضًّا تُذْهِبُ بِهِ ضَرَاءَهُ

فَلَقَدْ غَدَا مِنْ حَاجَةٍ حَلَّتْ بِهِ
فِي مِصْرِهِ سَاوَى بِهَا فُقَرَاءَهُ

وقوله مخاطباً آخر في شأن مغرم حبس (115):

أَصْخُ لَذِكْرٍ مُحِبٍّ لَمْ يَزَلْ أَبَدًا
يُرْعَى لَكَ الْحَبُّ رَعِيًّا غَيْرَ مُلْتَبَسٍ
جَاءَ ابْنُ عَمِّكَ مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهَتِهِ
فَأَيْنَ مَا قُلْتَهُ مِنْ مَغْرَمِ الْحُبْسِ

ولما مُنِعَ مِنْ حَقِّهِ واشتدت عليه وطأة الحاجة وكثرت مطالبه ومطالب
عياله خاطب القاضي الرئيس أبا حامد ابن الحسن المالقي بقصيدة طريفة
يمتزج فيها الجد بالهزل، وقد بدأها بالشكوى فقال (23 - 24):

مَنْ لَخَطْبِي مَنْ لِيْغَمِّي
مَنْ لِكَرْبِي مَنْ لِهَمِّي
مَنْعَ الْأَعْدَاءِ حَقِّي
مَنْعَ عُدْوَانِ وَظُلْمِ
قَدْ مَضَى عَامٌ وَنِصْفُ
لَمْ أَصِلْ مِنْهُ لِقَسَمِ
وَأَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ
رُبُّ إِنْفَاقٍ وَغُرْمِ
رُبُّ بَيْتٍ أَكْثَرِيهِ
لِعِيَالِي مَعَ كَرَمِ
وَدَقِيقِ أَشْتَرِيهِ
مَعَ مِلْحٍ ثُمَّ لَحْمِ

ثُمَّ زَيْتٍ لَوْقُودٍ
 مَعَ حَطْبٍ ثُمَّ فَخْمٍ
 ثُمَّ عَسَلٍ مَعَ سَمْنٍ
 وَخَلِيعٍ مَعَ شَحْمٍ
 ثُمَّ أَبْزَارٍ لِإِضْلَا
 حِ مَطَاعِمِي وَأَذْمٍ
 ثُمَّ تَمْرٍ مَعَ تِينٍ
 وَزَبِيبٍ دُونَ عَجْمٍ
 ثُمَّ فَخَّارٍ لَطَبْخٍ
 ثُمَّ شَرْبٍ ثُمَّ طَعْمٍ
 ثُمَّ صَابُونٍ لِفَسْلِ
 ثُمَّ أَزْهَارٍ لَشَمِّ
 دَعِ غِطَائِي وَوِطَائِي
 وَثِيَابِي دُونَ ضَمِّ
 وَسَوَى ذَلِكَ مِمَّا
 نَوَّعَهُ لَسْتُ أَسْمِي
 وَرَدَ النَّصَّ بِهِ فِي
 غَيْرِ مَا دِيَوَانِ عِلْمٍ
 مَنْ أَتَاهُ لَمْ يَصِفْهُ
 أَحَدٌ قَطُّ بَظْلَمٍ
 لَمْ أَحْصَلْ مِنْهُ شَيْئاً
 لافْتِقَارِي مَعَ عُدْمِي

وهذا سرُّ لقائمة النِّفَقَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الحَضَرِيَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ الَّتِي
 كَانَتْ تَعُدُّ شَرَاءَ الْأَزْهَارِ مِنْ جُمْلَةِ نَفَقَةِ الْبَيْتِ .

وفي هذه القصيدة حديث طريف عن الدرهم هو بالغزل أشبه منه بالمديح، وهو يذكرنا بشعر الحريري فيه، وفي آخر القصيدة مدح للقاضي المذكور.

والقصيدة في نسيجها تذكرنا بقصيدة هزلية لابن الأزرق معاصر شاعرنا وأخرى لأبي عبد الله العقيلي⁽³⁾.

ولا نعرف من هو كاتب سر هذا القاضي الذي يصفه في هذه القصيدة قائلاً:

وَلَهُ كَاتِبٌ سِرٌّ	لَمْ يَصُنْ سِرًّا بِكُمْ
أَصْفَرُ اللَّوْنِ ضَائِلٌ	يَفْعُلُ الْفِعْلُ كَضَخْمٍ
مَنْ تَعَرَّى مَا كَسَاهُ	وَهُوَ ذُو أَنْفٍ أَشْمٍ
يَحْسِمُ الدَّاءَ إِذَا مَا	كَانَ مُحْتَاجاً لِحَسْمٍ
قَدَرُهُ خُصَّ بِرَفْعٍ	أَمْرُهُ خُصَّ بِجَزْمٍ
ثُمَّ أَعْلَاهُ خَطِيباً	وَأَمَاماً دُونَ حَجْمٍ
فَشَفَى النَّاسَ بِوَعْظٍ	جَامِعٍ لِلْخَيْرِ جَمٍّ
وَتَأْدَى خَلْفَهُ الْمَفْ	رَوْضُ لِلْفُضْلِ الْأَتَمِّ

ولعله نائبه ابن مفضل الذي قال فيه في بعض أشعاره إن علمه أمضى من السمر الرقاق وأشار في رثائه إلى أنه كان إماماً مقرئاً واعظاً، وكل هذا تلمح إليه الأبيات ولا سيما الأخير. وقد يكون يعني بها نفسه.

وهو يذكر فقره واحتياجه في أبيات يداعب بها أصحابه كقوله:

إِذَا مَا لَحَا أَهْلِي وَطَالَ اعْتِرَاضُهُمْ
 عَلَى قَلَّةِ الْإِذْرَاكِ أَوْ ظُلْمَةِ الْبَيْتِ
 أَقُولُ لَهُمْ مَهْلاً عَلَيَّ فَيَسِدِي
 أَبُو جَعْفَرٍ ذُو الْفَضْلِ يُنْعَمُ بِالزَّيْتِ

ويبدو أن صاحبه أبا جعفر الذي طلب منه هنا الزيت هو أبو جعفر
أحمد القصار الذي طلب منه كتاب صحاح اللغة في هذين البيتين (67):

ثَوْبِي مِنَ اللِّغَةِ الَّتِي أُحْتَاجُهَا
عِنْدِي لِنَقْصِ كَمَالِهِ اسْتِقْصَارُ
وَعَلَيْكُمْ تَكْمِيلُهُ بِصَحَاحِكُمْ
نَقْصُ الثِّيَابِ يُزِيلُهُ الْقَصَارُ

ولعل من مظاهر فقره أنه كان يستعير الكتب من أصحابه كما في هذا
المثال وكما في قوله شاكراً بعض الأصحاب على إعاره بهرام وهو فقيه
مالكي معروف غلب اسمه على كتابه (82):

جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ أَخِي ثَقَةٍ
جُدْتُمْ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتُمْ بِيَهْرَامِ
وَكَانَ إِكْرَامُهُ فِي ذَاكَ مَتَضَحًا
لَا زِلْتُمْ الدَّهْرَ فِي بَرٍّ وَإِكْرَامِ

ويقول أيضاً في شكر بعض الأصحاب الذين أعاروه كتاب الصيب
والجهام، وهو ديوان شعر لابن الخطيب (105):

إِنِّي لِأَقْطَعُ مَدَّتِي مِنْ ذِكْرِكُمْ
يَا أَهْلَ وَدْيَ بِالثَّنَاءِ الطَّيِّبِ
فَلَقَدْ قَضَيْتُمْ لِي مَارَبَ جَمَّةٍ
لَمَّا أَعْرُتُمْ لِي كِتَابَ الصَّيِّبِ

وكان يبيع كتبه وهي آخر ما يباع من المتاع كما قال بعضهم، فقد كتب
على ظهر كتاب اضطر إلى بيعه هذين البيتين (108):

قَسَمًا لَوْلَا مَعَادَاةُ الزَّمَنِ
وَاحْتِيَاجِي مِنْ كِتَابِي لِلثَّمَنِ

ما به نفسي لبيعٍ سمحتُ
ولو اعتضتُ به مُلكَ اليمَنِ^(٣)

وقد باع نفائس كتبه ليجمع ما يفتدي به نفسه من الأسر، قال في
مخاطبة أبي حامد ابن الحسن النباهي (34):

أعلاقٌ علّمي بعثُ في الخطب الذي

هو ظاهرٌ للمبتدي والشادي
والجبرَ أرجو إنَّ عليَّ عطفتم
برسالةِ التنبيهِ والإرشادِ

إن الاهتضام الذي تعرض له الفقيه الشاعر في بلده كان له انعكاس
على رأيه فيه، فقد كان في شبابه يتغنى بطبيعة بسطة الجميلة، وله في
ذلك شعر رأينا بعضه فيما سبق، ولكنه عدلَ عن هذا الرأي بسبب تفريط
أهل بلده في حقه وأصبح يقولُ أشعاراً في ذمها وهجو أهلها فمن ذلك قوله
(152):

أيُّها الصَّبُّ بسُكنى بسطةٍ
يبتغي العِزَّ بها والشرفا
انصرف عنها لسُكنى غيرها
فكلاً الأمرين عنها انصرفا
لا تؤمِّلْ نيلَ شيءٍ منهما
ما عليهما المَلَوَانِ اختلفا
بلدةٌ فيها الهَوُا مُنحرفٌ
كمزاجِ النَّاسِ فيها أنحرفا
حَسَدٌ صاحبه البَغْيُ بها
ذَا عَلَى هذا بها قَدْ وَقفا

أَكْثَرُ النَّاسِ بِهَا مَنْ تَلْفِيهِ

بِكَلَا الْوَصْفَيْنِ فِيهَا عُرِفَا

ويبدو أن أهلها كانوا يؤثرون الغريب على القريب وفي هذا يقول

(93):

قَالُوا غَدَا الْبَرَّانِي فِي غُلَيْرَةٍ

فِي الْوَقْتِ صَدَرَ صُدُورِهَا الْأَعْيَانِ

فَأَجَبْتُهُمْ لَا تُنْكِرُوا فَبَسْطَةً

مَا زَالَ صَدَرَ صُدُورِهَا الْبَرَّانِي

(غليرة بلد من أحواز بسطة. انظر نازلة شراء أموال أهل غليرة من

الروم في المعيار 2: 110).

وقال في التعريض بها وبأهلها «لموجب أوجب ذلك» (103 - 104):

لَا رَعَى اللَّهُ بَسْطَةً وَأَنَاسًا

بِحِمَاها أَضْحَوْا مِنَ السَّكَّانِ

فَلَقَدْ أَكْرَمُوا اللَّئَامَ افْتِخَارًا

وَأَهَانُوا الْقُرَاءَ لِلْقُرْآنِ

لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتِنَا ذَا بَلٍ عَلَيْهِ

لَمْ يَزَالُوا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

وقال في الغرض نفسه (104):

الْكَلْبُ صَارَ بِبَسْطَةٍ أَعْلَى وَأَشْرَفَ مِنْ فَقِيهِ

أَنْتَى فَقِيهِ يَغْتَلِي لِمَحَلِّهِ أَوْ يَرْتَقِيهِ

الْكَلْبُ مَالِكُهُ بِهَا مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى يَقِيهِ

وَفَقِيهٌ مِنْ أَهْلِهَا مَا سَاءَ مِنْهُمْ يَتَّقِيهِ

فَتَرَاهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ يَرْتَاعُ مِمَّنْ يَلْتَقِيهِ

أَفْعَاقُلْ يَرْضَى بِهَا وَطْناً لَسْكُنَى يَتَّقِيهِ
وقال أيضاً (104):

عَجَباً لِمَادِحِ بَسْطَةٍ مِنْ جَاهِلٍ
عَمَّا بِهِ فِي النَّاسِ عَيْبٌ لَاهٍ
وَعَزِيزُهَا [ذُو الْفَسْقِ] عَزَّ لَفْسِقِهِ
وَذَلِيلُهَا تَالِي كِتَابِ اللَّهِ

إن هذه الأشعار التي يشكو فيها الشاعر خالية من التاريخ كما هو الأمر الغالب في دواوين الشعراء الأقدمين، ولكن الشاعر كما رأينا يشكو تارة من حبس حقه في واجب الطلبة، ويشكو تارة أخرى من نقص مرتبه ثم من إيقافه، كما يشكو من عزله ومنعه من خطة العدالة وإحراق حانوته، وقد بدا لي بعد إمعان النظر فيها أنها تتعلّق بثلاث حوادث في حياة الشاعر: فالحادثة الأولى هي التي يطلب فيها حقه «في واجب الطلبة» حين يقول:

مَاذَا تَقُولُونَ لِي يَوْمَ الْحِسَابِ إِذَا
طَلَبْتُ حَقِّي لَكُمْ فِي وَاجِبِ الطُّلْبَةِ

وينبغي أن تكون هذه الحادثة في آخر مرحلة الطلب وكان فيها الشاعر - على ما يظهر - ما يزال يعيش في كنف والده، وكان يستفيد من الأحباس المحبسة على الطلبة الضعفاء في مدينة بسطة، ويبدو أن الشاعر لم يعد يواظب على حضور مجالس العلم وأخذ يشتغل بتأديب الأولاد وكتابة العقود وغير ذلك، فحبس عنه ناظر الأحباس ما كان يأخذه بحجة عدم المواظبة على الدروس والاشتغال بالتأديب والوراقة، وهنا رفع الشاعر عقيرته بالشكوى في القصيدة المشار إليها وغيرها، ويبدو أن ناظر الأحباس استند في موقفه على فتوى مفتي الحضرة (غرناطة) يومئذ أبي عبد الله محمد المواق، وقد وقفنا على هذه الفتوى التي لعلها تعني صاحبنا، وإذا كان لم

يذكر فيها بالاسم فإن القرائن تدل على أنه المقصود بها في الغالب، وها هو نص الفتوى كما وردت في المعيار للونشريسي (7: 124 - 145):

«وسئل المواق⁽¹⁰⁾ عن أحباسٍ ببسطةٍ محبسةٍ على الطلبة الضعفاء وعندنا من يحضر مجلس العلم في وقت من الأوقات وهو مؤدّب يقطع جل أوقاته في التأديب وآخر يشتغل جل أوقاته بصناعة من الصنائع يتعيش منها فأشكل علينا، هل يعطى من هو على هذه الحالة من الأحباس المذكورة؟ فإن ظاهر الأمر أن الإعانة من مقصد المحبس فيها أن تكون إعانة لمن يهتم بالطلب ولا يتكلّف معيشة غيرها لكون أوقاته يعمرها بطلب العلم. أما من يحضر مجلس العلم في وقتٍ ما من الأوقات مثل ما يحضره العامي فبعيدٌ من المحبس قصد إعانته، وكنا نسمع من أصحابنا مدة الإقامة أن من برز للشهادة مع الموثقين لاحظ له مع الطلبة في مرتب الطالب، فأردنا منكم الإتحاف بما عندكم في هذه المسألة.

فأجاب: من تلبس إلبس أخذ حبس الطلبة لمن وقف عند غاية لا هو ينمو في نفسه ولا ينمي في غيره. قال الشاطبي في موافقاته في مثل هذا: إنه من باب العبث بالنسبة للمصلحة المجتلبة ومن تكليف ما لا يطاق في حقّه، وكلاهما باطلٌ شرعاً فلا يأخذ من الوقف على طلبة العلم إلا من جاد فهمه وحسن إدراكه وطابت سجيته، وتجرد لأن ينتفع وينفع، وأما إن كان خبره بالقراءة لا يتجاوز عتبة بابه فليطلب أجره من ربّه وليخل الوقف لأهله أو يصرف فيما هو أعود نفعاً للعامّة، لأنه لمصالح العامة، وما ذكرتم أن من سرحت شهادته منع من مرتبه على الطلبة، فشيخنا أبو القاسم ابن سراج كان هذا مأخذه، سرح شهادة بعض أصحابنا وشرط عليه إن ارتفع لحنوتٍ أنه يمنعه المرتب».

وله فتوى ثانية في هذه النازلة مع تعديل في صيغة السؤال هذه المرة، ونظن أنها مثل الأولى تتعلق بموضوع شاعرنا، وها هو نصها كما في المعيار (7: 130).

وسئل (أي المواق) عن قرية حبست على مصالح قشتال⁽⁵⁾ وطلاعه عين لذلك ربع فائدها [وربع] على ضعفاء الفرسان ببسطة، وعين للضعفاء من طلبة العلم ببسطة ربع آخر، وعين الربع الرابع للناظر، فظهر للناظر الآن فيها أن في طلبة العلم بها من هو غني بمال أبيه لكونه تحت إنفاقه وكسوته وأحب مطالعة سيادتكم بذلك، وهل يعدّ من كان قد بلغ وخرج من حجر أبيه - إذا كان لا شيء أو له شيء يسير - غنياً بسبب كونه ساكناً مع أبيه وتحت إنفاقه وكسوته، أو هو ضعيف يعطى من هذه الأعباس مع جملة ضعفاء الطلبة.

ومن سؤال الناظر أن الأرض المحبسة لها جبّ وقرار مفتقران للإصلاح وفيها أرض غامرة عليها مساقى لسواها من أرضها العامرة تفتقر لمن يعملها، هل له أن يأخذ من جملة غلتها ما يصلح به ما ذكر أو لا؟.

فأجاب أما أن الطالب المذكور ليس له شيء فلا يشك أنه فقير، لكن غيره يستعين بما يعطى في سد جوعه وستر عورته، وهذا الطالب قد كفي هذه المؤنة يستعين بما يعطى في ترفه.

وهذه المسألة فيها نظر قد يكون مرجواً أكثر من غيري وهو يحتاج لكتب وغيرها.

ولكن الفقيه ابن منظور، وهو أبو عمرو ابن منظور الذي استنجد به الشاعر كما رأينا كان له رأي مخالف لرأي المواق في هذه النازلة، وإذا كان المواق أفتى بمنع الطالب في حالتي النازلة من حقه في الحبس المذكور فإن ابن منظور أفتى بخلاف ذلك، وما هي فتواه كما أوردها الونشريسي أيضاً في المعيار بعد إعادة السؤال المذكور (7: 124).

«فأجاب بأن القرية المذكورة يتبع فيها قصد المحبس الذي يفهم من ألفاظ رسم التحبّيس ولا يخالف في شيء منه، فما كان للقشتال فيما ذكر فهو كذلك ولا يغير، وما كان لضعفاء الفرسان ممن ذكر فلهم، وما كان

لضعفاء الطلبة فلهم، ولا فرق في الضعفاء بين من هو ضعيف ولا والد له أو له والد ضعيف، وبين من له والدٌ غني لأنَّ غنى الوالد لا يوجب وصفاً للولد أنه غني لا سيما مع بلوغ الولد، فقد خرج على إيجاب النفقة عليه من أبيه، وأن أرفق الوالد ولده فאלله يشكره، فقد يجدي ما يعطيه الأب لشراء كتاب أو كاغط، وله سهمه في الحبس إن شاء الله، وكذلك سكني الولد مع الأب لا يحرمه حظه إن شاء الله، والطلبة الساكنون في البلد المستوطنون وإن لم يكونوا في الأصل من البلد إذا كانوا ضعفاء يعطون إلّا أن يكون في الرسم نص على إخراجهم، وأما من غير نص فلا، وأما تصريح فائد الحبس في جب أو قرار فليس ذلك له، وإنما يصلح ما يعود بمصلحة للحبس غالباً إلّا أن يُكرّى القرار فيعود بمنفعة، فقد يقال بجوازه، وهذه المنفعة للحبس لا لغيره».

وإذا صحَّ أن هذه الفتوى هي في نازلة صاحبنا البسطي فقد تكون هي «الحكم» الذي أشار إليه في قصيدة سابقة له في الموضوع إذ يقول متحدثاً عن منعه حقّه من قصيدة (47):

وَدَانَ بِمَنْعِ الْحَقِّ وَالْحَقُّ وَاجِبٌ
وَهَيَّجَ وَجْداً فِي الْحِشَا وَغَلِيلاً
وَلَوْ أَنَّهُ أَمْضَى مَرْفَعِ حُكْمِهِ
لَأُلْفَى إِلَى إِمضَاءِ ذَاكَ سَبِيلاً

ولعله يشير إلى أن ناظر الأحباس كان يلتمس السبل إلى عدم تنفيذ الحكم بتعلات مختلفة - كما رأينا - مع أنه كان في وسعه أن يجد سبيلاً ومخرجاً إلى تنفيذ الحكم بالاستناد إلى فتوى ابن منظور.

وقد عبّر الشاعر في أوّل هذه القصيدة عن عزمه على الرحيل عن بسطة وذلك في أبيات ذكرناها سابقاً، ويقول في آخر القصيدة (48):

لَعَلَّ الَّذِي أَلْقَاهُ يَذْهَبُ جُمْلَةً
وَأَبْصُرُ وَجْهًا لِلْسَّرُورِ جَمِيلاً

بَلِّقِيَا رَجَالٍ فِي مَوَاطِنَ طَالَمَا
 بَنَتْ وَبَنُوا فَخَرَ الرِّجَالِ أَثِيلاً
 وَيُلْفِي لَدَيْهِمْ مِنْ أَتَاهُمْ بِأَرْضِهِمْ
 مِنْ الْفَضْلِ حَظًّا فِي النُّفُوسِ جَزِيلاً
 وَظِلًّا ظَلِيلاً فِي رِيَاضِ تَنْعَمٍ
 يُطِيبُ مَشْوًى لِّلْفَتَى وَمَقِيلًا
 وَسَعْدًا بِمَا يَهْوَى الْفَوَادِ مُسَاعِدًا
 وَأَنْسَاءً وَصَوْلًا بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا
 هُنَالِكَ مَا بِي مِنْ خُطُوبٍ عَظِيمَةٍ
 يَخْفُ عَنْ الْقَلْبِ الْقَرِيحَ قَلِيلًا

فهل كان الشاعر يفكر في برجة وأهلها الذين قصدهم واشتغل عندهم
 إماماً ومدحهم في شعره، بمثل ما مدحهم ابن الخطيب في نثره، ولقي
 عندهم ما أمل في الأبيات الأنفة فاستراح خاطره وطابت نفسه كما يقول:

فطابت نفوس طالما قد تغيّرت
 وصحّت أنوفٌ تشتكي بزُكام
 أمثلُ شخصي عندهم في حديقةٍ
 سقاها سحابُ الجود صوبَ سِجَامٍ
 فجادت بما تهوى النفوسُ وتشتهي
 فما شئتُه أجنبيهِ دون مَلامٍ

وأغلب الظن أن رحيله إلى برجة كان بعد هذه الحادثة، ولعل مما
 يدل على ذلك أنه يشير إلى صغر سنه في هذه القصيدة:

فقد شَيَّبَتْ هَـذِي الْبُشْرَاتِ مَفْرَقِي
 وَسَنِي كَمَا تَذْرُونَ سِنٌ غَلامٍ

وقد قدّرنا فيما سبق أن محنة أسره جاءت في أعقاب هذه المرحلة من حياته، والأشعار التي قالها وهو في الأسر تشهد بهذا.

أما الصنف الثاني من شكاوى الشاعر - حسب تقسيمنا السابق - فيتعلق بمرتب كان يأخذه من الأوقاف لقاء عملٍ مّا، وقد أشار الشاعر كما سبق إلى أن هذا المرتب كان «ستين» وأصبح «خمسین» وكان خائفاً من أن يصير «عشرين» ثم حبس عنه، فشكا من ذلك وأكثر من الشكوى، ولجأ إلى القضاة والمفتين علّه يستنصر بفتواهم، ويبدو أن الفتوى في هذه النازلة طلبت من فقهاء فاس فأفتى فيها مفتي المغرب عبد الله العبدوسي والفقهاء ابن املال.

وقد وردت النازلة مرتين في المعيار للونشريسي (7: 12 - 14، 297 - 298) ونقلها فيما يلي:

«وسئل (العبدوسي) رحمه الله عن مرتب القيسي الذي كان يأخذ من الأحباس نحواً من خمسة أعوام ثلاثين ديناراً في الشهر وهو لم يكتب قط في الحبس يوماً واحداً ولا جلس فيه ولا شهد فيه لا في داخل ولا في خارج، هل يجب عليه رد جميع ما أخذ أو يسوغ له؟ ما حكم الله في ذلك؟ بينوا لنا ذلك مأجورين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجاب: الحمد لله تعالى وحده دائماً. الجواب، والله سبحانه المرشد للصواب بمنه أنه إن جعل له المرتب المذكور على القيام بمصلحة من المصالح، من نظر أو إشراف أو شهادة أو غير ذلك من مصالحه فلم يقم بها فأخذه ما أخذ باطل يجب عليه رده لأنه أخذه من غير عوض ولا يجوز للنظر في الحبس السكوت عنه، بل يجب عليه طلبه واستخلاصه منه فإنه مطلوب بضم أموال الأحباس واستخراجها من يد مغتصبها أو أخذها بغير حق، وقد كان الأخذ المذكور استفتانا في ذلك فأفتيته بأنه لا يجوز له أخذ المرتب إلاّ بشرطين: أن يكون عن أمر من ولاة الله سبحانه النظر في مصالح المسلمين على حسب ما اقتضاه اجتهاده في ذلك وأن يقوم

بالمصلحة التي جعل له المرتب عليها وإلا فلا يجوز له أخذه وبالله سبحانه التوفيق.

وأجاب عن السؤال المذكور الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي المديوني الشهير بابن أملال بما نصه: الجواب، والله الهادي إلى الصواب أن يرد ما تحصل بيده من مال الحبس، لأنه أخذه بغير حق ولا وجه شبهة، وهو متعدّ في أخذ ما أخذ من ذلك لأنه لم يغن عن الحبس شيئاً والواجب على من تعين للنظر في الحبس أن يقوم بذلك ويطلبه بذلك ولا يسعه ترك القيام في ذلك، لأن ذلك حق من جملة حقوق الحبس وهو دين متعلق بذمة أخذه من غير شك في ذلك ولا ارتياب والله الموفق للصواب بمنه.

وتقيد بعقبه ما نصه: أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير الصدر الأوحّد الخطير القدوة الفقيه المدرّس أبو عبد الله محمد بن أملال المذكور مجيباً فوقه يليه أن الجواب فوقه هو وتقيد بعقبه ما نصه:

الحمد لله أشهد الشيخ الفقيه المعظم العلم الشهير، الصدر الأوحّد الخطير، القدوة الحجة المفتي المدرّس الأجل الأفضل الأكمل أبو محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه المعظم الصدر المعتبر الأشهر المفتي المدرّس الأحفل الأفضل أبي عبد الله محمد بن محمد بن موسى بن معطي العبدوسي على نفسه أن الجواب على السؤال المذكور فوقه الذي في أوله: الحمد لله تعالى وحده دائماً وآخره: وخار له بمنه وفضله. جوابه عن المسألة المذكورة الذي تقلده فيها من غير شك في ذلك بمن علم خطه، قيد عليه شهادته في أوائل شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة. عرفنا الله تعالى قدره.

جوابه، وبخط يده في النازلة المتضمن لها السؤال أولاً أعلاه جواب ارتضاه، وقال به في النازلة المذكورة. شهد عليه أكرمه الله تعالى بذلك وهو بحال كمال الإشهاد وعرفه وفي رابع شوال عام ثمانية وثلاثين وثمانمائة عرفنا الله خيره.

وجاءت صيغة السؤال عن هذه النازلة في موضع آخر من المعيار مغايرة للصيغة السابقة وهذا نصها: «وسئل سيدي عبد الله العبدوسي عن مرتب القيسي الذي كان يأخذ من الحبس وهو لم يكتب ولم يُحضر متجماً لا حصيراً ولا زيتاً ولا بناءً ولا أخذاً ولا إعطاءً، هل يسوغ له وهل يرد، وهل يجب طلبه؟».

إنَّ عندنا من القرائن هنا ما يجعلنا نقدر أن المقصود في هذه النازلة هو صاحبنا، وأول هذه القرائن ذكر القيسي وهي الشهرة التي عرف بها الشاعر، ومما يؤسف له عدم ذكر اسمه، وثانيها ذكر مرتب الأعباس، وثالثها تاريخ النازلة فهو ملائم لزمن الشاعر، ورابعها الإشهاد على الفتوى مما يشعر بأنها للاستظهار بها في غير البلد الذي صدرت عنه، ويستفاد من جواب العبدوسي أن سؤال الفتوى جاء من جهة القيسي ومن جهة ناظر الأعباس معاً.

ويبدو أنه بناءً على هذه الفتوى قطع المرتب عن الفقيه الشاعر، وقد شكّا من ذلك كثيراً.

والحادثة الثالثة التي رأينا يشكو منها كثيراً أيضاً هي تأخيره عن خطة العدالة والتوثيق، والظاهر من شعره أنه اشتغل بالتوثيق زمناً وكان له حانوت يجلس فيه لذلك، وفي شعره ما يشير إلى هذه الفترة، فمن ذلك قوله يخاطب بعض القضاة (121):

برعي عدول الوقت غيباً ومشهداً
تحلّ من الفردوس أعلى الأرائك
وقد ساءهم أن يُحرّموا كل فائدٍ
لديكَ اغتدى حتّى حضور الترائك

فهو هنا يدافع عن حقوق العدول، ومن هذا قوله مخاطباً بعض القضاة أيضاً (113):

بذلُ النَّصِيحَةِ واجبٌ لك سيدي
فأصِخْ فعنكَ نصيحتي لَمْ أُخْزَنْ
إِنَّ العدُولَ مِنَ الشَّهْوَ يسوءُكم
جعلُ المبرِّزِ منهم كالمُخْزَني

وكذلك قوله (113):

رَأَيْتَ عَظِيمَةً أَشْفَقْتُ مِنْهَا
وَشِيمَةً سَيِّدِي دَفَعُ العِظَامِ
عَدُولَكَ فِي حَوَانِيهِمْ قَعُودُ
وغير العدلِ بالتحليف قائم

وله في مخاطبة هذا القاضي الذي لم يسمه (73):

يَا قَاضِيًّا يَعدِلُ فِي حُكْمِهِ
وغيرُهُ فِي حُكْمِهِ قَدْ يَجُوزُ
مَالِي بِمَا تَقْضِيهِ إِلَّا الرِّضَى
قَضَيْتَ لِي بِالْحُزْنِ أَوْ بِالسُّرُورِ

وله فيه أيضاً (77):

سِوَاكَ إِذَا يَقْضِي يَجُورُ وَيَظْلِمُ
وَيَرْضَى بِهَتِكِ العِرْضِ وَهُوَ مُحَرَّمُ
وغيرُكَ يُعْطِي العَوْنَ خَمْسِينَ دِرْهَمًا
وَلِي ثُلُثُهَا أَوْ دُونُهُ حِينَ يَقْسِمُ
أَعِدْ نَظْرًا فِيمَا أَتَيْتَ بِهِ فَقَدْ
بَدَأَ أَنَّ هَذَا الفِعْلَ مِنْكَ تَحْكُمُ
وَبَادِرْ زَمَانَ الحُكْمِ مِنْ قَبْلِ قَوْتِهِ
فَمَا كُلُّ وَقْتٍ أَنْتَ تَقْضِي وَتَحْكُمُ

وَأَحْسَنُ مَكْسُوبٍ الْفَتَى فِي زَمَانِهِ
ثَنَاءٌ جَمِيلٌ مُنْجِدُ الذِّكْرِ مُتَّهِمٌ

ويبدو أن طول لسان الشاعر الفقيه وميله إلى النقد اللاذع لبعض
قضاة بسطة ومشاكسته لبعض عدولها كانت من أسباب تأخيره عن العدالة
ومنعه من التوثيق، وما نظن أن السبب يرجع إلى عدم الكفاءة والأهلية
للخطة فقد كان كما يدل شعره عارفاً بالفقه بصيراً بالوثائق، وقد كتب على
ظهر نسخته من وثائق ابن سلمون التي كانت عمدة الموثقين في الأندلس
والمغرب يومئذ ما نصّه (92):

جواهرُ أحكامٍ ودرُّ وثائقٍ
بترتيبها جمعاً أجادُ ابنُ سَلْمُونِ
تضمّنَ ذا الديوانُ منها فرائداً
من ابتاعها بالروح ليس بمَغْبُونِ
تقوّدُ إلى التحقيقِ مستمسكاً بها
وتصلحُ للدنيا اقتناءً وللدّينِ
بها كلّ قاضٍ يكتفي وموثّقٍ
وملكها يُغني عن جميعِ الدّواوينِ^(٩)
فخذها لحكمٍ أو لعقدٍ وثيقةٍ
على ثقةٍ منها بشرحٍ وتبيينِ
ولا تلتفتُ فيها إلى قولٍ قائلٍ
وكن بالذي جاءتْ به جدّ مفتونِ
وطالعٌ معَ الأيامِ منها حديقةٌ
من العلمِ بالأحكامِ ذاتُ أفانينِ
ووجهَ الإلَهِ اقصدْ بفعلِكَ دائماً
تنلْ منه أجراً عاجلاً غيرَ ممنونِ

كما أنه كان يفتي ويجيب على المسائل الفقهية نثراً ونظماً، فمن ذلك قوله مجيباً بعض الأصحاب (90):

نَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ يَا خَبِيرُ
يَا مَنْ لَهُ فِي مَلِكِهِ التَّدْبِيرُ
أَبْدَأْ نَظْمِي هَا هُنَا مُجِيبَا
خِلَا صَفِيّاً طَالِباً نَجِيبَا
فِي مَا غَدَا بِالنَّظْمِ عَنْهُ سَائِلِي
إِذْ ذَاكَ لِلوَدِّ مِنَ الْوَسَائِلِ
وَذَاكَ قَسْمٌ قُلِّلِ ثَمَانِ
مِنْ زَيْتِ زَيْتُونٍ مَدَى الزَّمَانِ
بَيْنَ شَرِيكَيْنِ عَلَى الْمَعْرُوفِ
بِمَا لَدَيْهِمَا مِنَ الظَّرُوفِ
وَهِيَ ثَلَاثَةٌ كَبِيرُهَا اجْتَمَعَ
فِيهِ جَمِيعُهُ وَذَاكَ مَا يَسَعُ
وَيَسَعُ الثَّانِي ثَلَاثاً عِدداً
وَالثَّالِثُ اثْنَتَيْنِ لَيْسَ زَائداً
وَقَسْمُهُ عَلَى السَّوَاءِ دَانِ
وَفِيهِ لِلْقَاسِمِ صَوْرَتَانِ
إِحْدَاهُمَا تَعْلَمُ دُونَ مَيِّنِ
بِمَلِّئِنَا الصَّغِيرَ مَرَّتَيْنِ
وَالصُّورَةُ الْآخَرَى بِمَلءِ الْأَوْسَطِ
ثُمَّ بِمَلءِ أَصْغَرٍ مِنْهُ أَضْبِطِ
وَرُدِّ مَا يَبْقَى إِلَى الْكَبِيرِ
ثُمَّ لِلْأَوْسَطِ مِنَ الصَّغِيرِ

وأَمَّا الصَّغِيرُ بَعْدَهُ وَهَذِي
 تَعُودُ لِلأَوَّلَى بِلا اِنْتِباذِ
 وَصُورَةٌ ثَالِثَةٌ فِي الْقَسَمِ
 ظَاهِرَةٌ يَعْلَمُهَا ذُو الْفَهْمِ
 تَرَكْتُهَا لِعَوْدِهَا لِمَا مَضَى
 فَافْهَمُ حَبَاكَ اللَّهُ مِنْهُ بِالرَّضَى
 فَيَا أَخِي هَذَا جَوَابِي عَمَّا
 سَأَلْتَ عَنْهُ لَا عَدِمْتَ نُعْمَى
 وَاللَّهُ يُبْقِيكَ خَلِيٍّ الْبَالِ
 مِنْ مَضَضِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَالِ
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَهِ الْخَلْقِ
 عَلَى الْهَدَايَةِ لِدِينِ الْحَقِّ

ومهما يكن الأمر فإنَّ مستوى شاعرنا في الكتابة والتوثيق كان فوق
 مستوى بعض الموثقين في بسطة وغيرها يومئذ ، وبين أيدينا صور من
 عقودهم ، بل إن شاعرنا الفقيه كان يسخر من جهل بعضهم وعجزهم ،
 ويبدو أن هذا الصنف من العدول هم الذين تحزَّبوا ضده وكادوا له حتى
 أخر عن التوثيق كما تسببوا قبل ذلك بالاستحواذ على حقه في الأحباس كما
 يقول شاكيًا في صدر رسالة كتبها إلى بعضهم (93):

إِلَى اللَّهِ نَشْكُو مَا نَلَاقِي مِنَ الْأَذَى
 فَمَنْهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَلْتَمِسُ الضَّرًّا
 فَقَدْ أَفْرَطُوا فِي ظَلَمِنَا وَاهْتِضَامِنَا
 وَجَاءُوا بِأَمْرِ لَا نَطِيقُ لَهُ صَبْرًا
 قَرَأْنَا وَبِالتَّوْثِيقِ رُمْنَا مَعِيشَةً
 فَقَدْ عَطَلُوا التَّوْثِيقَ وَاطَّرَحُوا الْإِقْرَا

ومن قبلُ في الأحباسِ واجِبنا حَوَّوا
ليستَجلبُوا قَصْداً بذاك لنا الضراً
وما عُدُّهُمْ إِلَّا تحقِّقَ فَضْلِنَا
وأنَّهُمْ حَسادنا إن جَلَّوا عُدْرا

وللشاعر قصيدة نظمها عند إحراق حانوته في بسطة ظلماً وعدواناً
وذلك بتحريض من خصومه ذكرنا طرفاً منها فيما سبق وقصيدة أخرى طويلة
في تعطيل التوثيق ببسطة، وهو يشير في هذه القصيدة على الخصوص إلى
فقيهين كانا وراء هذا التعطيل (94):

إِلَّا فقيهِينِ لا كانا ولا وُجدا
في الناسِ لم يجدا مثلاً الذي وَجَدوا
سُراً لِمِضْرِهِما بَعْدَ الظهور بما
لِمِضْرِهِ في الورى لَمْ يَرْضَهُ أَحَدُ
سُراً لَهُ وَهُوَ في البلدانِ نَحْبَتُها
بأن يَرى ضُحْكَةً ما مِثْلُهُ بَلَدُ
سُراً لَهُ بَعْدَ ما التوثيق زَيَّنَهُ
بأن يُعْطَلَ مِنْهُ الهُدْيُ والرَّشْدُ

ونحسب أنه يقصد نفسه حين يقول:
زَكَّى العدولُ العدلَ في بَسْطَةِ
لكن سوى العدلِ بها جَرَحَهُ
فَأَمْضِيَ الحُكْمَ بتجريحه
رغماً على أنف من استَقْبَحَهُ
فاعجبْ لحكمٍ باطلٍ قَدْ مَضَى
بها وقاضٍ بِالْهَوَى صَحَحَهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
 بَاعَ أَخِي ابْنُ حَاجٍ يَوْمَئِذٍ الْبَيْعَ الْبَارِعَ
 أَبِي جَعْفَرٍ إِذْ أَوْفَى بِلَيْلَانِ مِنْ أُمَّهِ الْبَارِكَةَ أُمُّ الْبَيْتِ
 أَنْسَبَ مَا لَسْتُ أَخِي الْمَحْمُودُ أَلِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 الْغُلَامُ الْمَعْلُومُ لَهُ مَحْرُومٌ حَاجٌ خَارِجٌ نَسْلُكَ طَرِيقَهَا اللَّهُ
 لِلْحَبَابِ وَحَسْبُ مَحْفُوفُهُ وَحَمْدُهُ وَمِنْ خَلْدِهِ وَخَيْرُ حَبْرَةٍ
 مِنْهَا بَعْدُهُ وَمِنْ أَفْقِهِ بَيْعَاتُهَا بِثَمَنِ قَدْرٍ مَا تَسْتَأْجِرُ
 مِنْ الْبَيْعَةِ الْعَشْرِ الْبَعْدِيَةِ فَكَيْفَ يُدَايِعُ الْبُزْجُورُ مِنْ بَيْعِ كَلَامٍ
 بِدَنَانٍ مِنْ أَلْفِ بَيْعَةٍ الْبُزْجُورُ الْبُزْجُورُ الْبُزْجُورُ
 الصَّوْحُ الْحَسَنِيُّ قَرِيبُهُ لَيْلِي بِرَأْسِ الْحَكَمِ مَتَى كَيْفَ قَبْلَهُ
 خُذْ صَبْرًا وَعَدَدًا أَوْ بِنَاكَ خَلْمٌ لَكَ تَهْلِكُ مَا تَمُوتُ مِنْ جُلُودِ
 نَامٍ وَحَلَّتْ فِيهِ مَعْلُومَاتُكَ عَلَى أَلْسِنَةِ رَأْسِ جَمْعٍ بِالْأَرْبَعِ وَاتَّقِ
 بَعْدَ عَوْنِهِ وَكَيْفَ جَعَلَ الْخَيْرَ وَجَوَارِئُ الْبَارِكَةِ الْمُسَوِّدَةِ
 سُؤَالَ عَامٍ تَائِبَةٍ وَتَائِبِينَ فِي مَدَنَةِ وَسْطِ الْعَالَمِ
 بِعَلَى بَحْرٍ مِنْ بَيْعَتِهِ بِأَذْنِ بَايَعٍ لَهَا يَوْمَ كَلَامٍ مِنْ أَشْجَارِ
 مَسْجِدِ

صورة عقد بيع مؤرخ في 888 هـ لعدلين من بسطة عن كتاب وثائق عربية
 غرناطية: 90-91.

ولا نعرف ما هي الجرحه التي اتهم بها كذباً وبهتاناً وبغياً وحسداً كما يقول (95):

وأضِلُّ ذاكَ على التحقيق سببَهُ
- فيما فشا عَنْهُمْ واستحكم - الحسد

وفي نهاية المطاف قنع صاحبنا بالإمامة والخطابة، وقد زوحم عليهما من صنفه وأهل طبقته كما رأينا مما سبق، ورثى كثيراً لحال المساجد وإهمالها وشكا من تأخير مراتب أئمتها والقائمين عليها كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

إن هناك سبباً عاماً يمكن أن نرجع إليه شكاوى الشاعر زيادة على ما ذكرناه ألا وهو كثرة صنف العدول والأئمة وما يكون بينهم في العادة من تنافس وتزاحم على المناصب في مدينة صغيرة كبسطة مع ظروف هذا البلد الذي كان ثغراً على حدود مملكة غرناطة مهدداً بالسقوط في كل حين.

وقد أشار القلصادي، وهو معاصر القيسي وبلديه إلى كثرة أهل الطلب والعلم وتنازعهم على المناصب في بسطة والقرى المجاورة لها فقال: «وكان هذا وقت كانت بسطة وسوق العلم فيها قائمة، وكذلك كانت الحصون التي ببسطة، الغالب على أئمتها أن يكونوا من أهل العلم، وقد كان يقع التنازع بين أهل الموضوع فيمن يكون الإمام منهم، وقد أدركت من ذلك وشاهدته في حصن شوجر وقلالش... وأما الآن (851هـ):

فقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سأمها كل مفلس⁽⁶⁾»

وإشارة القلصادي إلى ما أصبحت عليه الحال في بسطة والتي أوجزها بإنشاد البيت المذكور سنجدها مبسوطة في شعر القيسي الذي ينتقد فيه بعض القضاة والعدول والأئمة والمقرئين في الفترة التي أشار إليها القلصادي.

ولعلّ من أسباب محنة الشاعر هذه تلك الأزمات الإدارية والمالية المتعاقبة بتعاقب الدول وتتابع الفتن، وقد لا نستبعد الأسباب السياسية نظراً لمواقف الشاعر وآرائه الجريئة التي سنشرحها فيما بعد.

ومهما يكن الأمر فقد كان لما لقيه فقيهما الشاعر من أهل بلده على العموم ومن الصنف الذي ينتمي إليه على الخصوص انعكاس على شخصيته ونفسيته، فبعد أن كان في شبابه يتغنى ببسطة أصبح يذمها ويذم أهلها كما رأينا فيما سبق، وبعد أن كان اجتماعياً يكثر من مخالطة الناس واتخاذ الإخوان ومكاتبتهم والوفاء بحقوقهم صار في آخر حياته - بعد أن ناله الأذى من بعضهم - يدعو إلى العزلة والحذر من الأصدقاء، وله بيتان طريفان صور فيهما حاله مع الأصدقاء وهما قوله (93):

حَصَلْتُ مِنَ الْإِخْوَانِ إِخْوَانٍ جِيرَتِي
بِبَسْطَةٍ مِنْ عِلْمِ الْحِسَابِ عَلَى شَرْحِ
فَفِي الْجَمْعِ دَهْرًا لَمْ أَزَلْ مِنْ حُقُوقِهِمْ
وَهُمْ دُونَ ذَنْبٍ مِنْ حَقُوقِي فِي الطَّرْحِ

ومما قاله في التحفظ من الأصدقاء (144):

إِنْ شِئْتَ مِنْ دُنْيَاكَ حَسَنَ تَخْلُصِ
لَا تَطْمِئَنَّ إِلَى صَدِيقٍ مُخْلِصِ
وَإِذَا تَخَالَطُهُ [كَثِيرًا] عُدَّهُ
فِي النَّاسِ كَالْمَجْذُومِ أَوْ كَالْأَبْرَصِ

وَالزَّمْ سَكُوتَكَ عِنْدَهُ وَإِذَا اقْتَضَى
مِنْكَ الْكَلَامَ بِمَا اقْتَضَاهُ تَرْبِصِ
وَانْظُرْ مُحَاسَنَهُ الَّتِي يَزْهَوُ بِهَا
وَيَتَبَّعُ إِعْجَابًا بَعْضَ الْأُحْصِ

إِنَّ الصَّدِيقَ لَيْسَتْحِيلٌ تَغْيَرًا
 فَيَجِيءُ مِنْ عُذْوَانِهِ بِمُلَخَّصٍ
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ سَرَّنِي بِتَعْظَمٍ
 لَمَّا تَغْيَّرَ سَاءَنِي بِتَنْقُصٍ
 فَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ الصَّدَاقَةَ لَمْ تَكُنْ
 وَلَوْ أَنَّنِي أَحَدًا بِهَا لَمْ أُخْصَصِ
 وَعَلَى الْوَفَاءِ بَشْرَطُهَا لَمْ أُعْتَمِدْ
 وَعَلَى الْقِيَامِ بِحَقِّهَا لَمْ أُحْرِصِ

وقال في المعنى نفسه (144):

لَا تَلْتَفِتْ لَصَدِيقٍ سَرَّ ظَاهِرُهُ
 فَسَوْءُ بَاطِنِهِ لَا شَكَّ يَعْكُسُهُ
 وَاحْذَرْ تَوْهُمَهُ مِنْكَ الْوَدَادَ لَهُ
 أَوْ أَنْ يَشَاهِدَ يَوْمًا مِنْكَ يُونُسُهُ
 وَذَاكَ تُدْرِكُهُ بِالْقُرْبِ تَقْطَعُهُ
 عَنْهُ كَمَا مِنْهُ بِالْإِبْعَادِ تُؤَيِّسُهُ
 فَالْأَصْلُ يُغْرَسُ قَرَبَ الْأَصْلِ تُبْصِرُهُ
 يَكُونُ دُونَ الَّذِي بِالْبُعْدِ تَغْرِسُهُ

وقد شكنا من جحود الأصدقاء وتأسف على الغبن والانخداع فيهم

(145):

وَدِدْتُ أَنَسَاءً لَمْ يَرَاعُوا الْوَدَادَ لِي
 وَمَا سَمَّتُهُمْ بِالسَّوَةِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

وَعَابُوا وَفَاءَ الْعَهْدِ مِنِّي لَوَدَّهِمْ
عَلَى مُقْتَضَى طَبْعِي وَفَاءَ السَّمَوَالِ
وقال (135):

أَسْفَاءُ لِصِدْقِي فِي هَوَى
مَنْ فِي هَوَايَ جَهَلْتُ صَدْقَهُ
وَبَذَلْتُهُ مَخْضُ الْوَدَا
وَكَانَ مِنْهُ الْبَذْلُ مَذْقَهُ
إِذَا مَذْهَبِي مَذْ كُنْتُ مَنْ
لَمْ يَرْعَنِي لَمْ أَرْعَ حَقَّهُ
وفي معنى البيت الأخير يقول في موضع آخر: (139):
ارْعَ الْوُدَادَ لِمَنْ رَعَى لَكَ وَدَّهُ
وَلتَجْزِهِ مِنْهُ بِمَا هُوَ جَارِ
ويقول أيضاً (138 - 139):

إِذَا الْمَرْءُ أَكْرَمْتَهُ دَائِماً
وَقَابَلَ ذَلِكَ مِنْكَ بَعْكَسَهُ
فَدَعُهُ وَمَا اخْتَارَ مِنْ فَعْلِهِ
فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى خُبَيْثِ نَفْسِهِ
وقال في المعنى نفسه (149):

صَافِ الصَّدِيقَ وَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ
وَعَدَّهُ مِثْلَ مَا قَدْ عِفَّتَ مِنْ قَدَرٍ
أَقِلَّ [كَلَامَكَ] لَا تُكْثِرْ بِحَضْرَتِهِ
وَصِمِّ سَمْعَكَ عَمَّا قَالَ مِنْ هَذَرٍ

إِنَّ الصَّدِيقَ إِذَا أَبَدَى تَغْيِرَهُ
لَمْ يُبْقِ مِمَّا بِهِ يَأْتِي وَلَمْ يَذَرِ

وقال في بعضهم (74):

وَجُومٌ وَجْهَكَ إِنْ أَلْقَاكَ يُخْبِرُنِي
عَمَّا بِقَلْبِكَ مِنْ حَقْدٍ وَمِنْ حَسَدٍ
سَرَّائِرُ الْقَلْبِ وَجْهَ الْمَرْءِ يُظْهِرُهَا
إِلَى الْوُجُودِ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ

وله أبيات قالها مرغباً في العزلة كقوله (79):

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبَغْيَ فِي النَّاسِ ظَاهِرًا
وَلَمْ أَرْ مِنْهُمْ جَانِحًا لِمَتَابٍ
وَكُنْتُ خَصَصْتُ الْبَعْضَ مِنْهُمْ بِخَلَّةٍ
عَتَبْتُ عَلَيْهَا النَّفْسَ أَيَّ عِتَابٍ
رَغِبْتُ بِنَفْسِي عَنْ مِرَاعَاةِ وُدِّهِمْ
وَأَصْبَحْتُ عَنْهُمْ أَمَّةً بَكْتَابٍ

وقوله (75):

وَاللَّهُ مَا يَصِلُ الْفَتَى
فِي ذَا الزَّمَانِ إِلَى مُرَادِهِ
إِلَّا إِذَا تَرَكَ الْوَرَى
طُرّاً وَأَنْسَ بَانْفِرَادِهِ

وما نحسب الشاعر الفقيه نَظَمَ في هذه المعاني بوحى من الأدبيات
المعروفة في الصداقة والصديق، ولكنه قال ما قال بعد محنة شديدة وعن
تجربة مريرة أو علم بالناس كما يقول (101):

إِذَا أَحْبَبْتُ أَوْ أَبْغَضْتُ شَخْصاً
فَعَنْ عِلْمٍ بِهِ حَبِّي وَبُغْضِي
عَلَى أَنِّي حَقِيرَ الْقَوْمِ أَرْعَى
وَأَنِّي عَنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ أُغْضِي

على أن ديوانه حافل بالإخوانيات وما يتصل بها من معاني حفظ
الوداد ورعي الوفاء، وكان في شبابه يذكرُ عَهْدَ الدراسة وصحبة الرفقاء كما
رأينا من نماذج سابقة، وكان يتغنى بمجامع الأصحاب وأيام الأنس كقوله
(71):

رَعَى اللَّهُ يَوْماً طَالَ عَهْدُ بَمَثَلِهِ
وَعَهْدِي بِأَيَّامِ السُّرُورِ طَوِيلُ
سَقَانَا كُؤُوسَ الْأَنْسِ فِي فَحْصِ بَسْطَةٍ
إِلَى أَنْ دَنَا مِنْهُ وَحَانَ رَحِيلُ
وَمَا بَعْضُنَا لِلْبَعْضِ عِنْدَ اعْتِبَارِنَا
لَصِذْقِ الْهَوَى إِلَّا أَخٌ وَخَلِيلُ

وقوله في وصف نزهة أخرى بحمة سالحة (149):

لِلَّهِ لَيْلَتُنَا بِحَمَّةٍ صَالِحَةٍ
وَالنَّفْسُ فِيهَا بِالتَّنْعَمِ فَارِحَةٌ
بَتْنَا بِهَا فِي فِتْيَةٍ مِنْ حُسْنِهِمْ
فِي رَوْضَةٍ مِّنَ اللَّوَاظِطِ سَارِحَةٌ

أنا مدنفٌ مِنْ عَهْدِهَا مُضْنِي الحشا
عَانِ أَشْبَهُ لَيْلَتِي بِالْبَارِحَةِ

وقال يذكر ليلة فرح وأنس اجتمع فيها شمل الأحاب (62):

مَاذَا جَنَيْتِ عَلَى قَلْبِي مِنَ التَّرَحِّ
وَمِنْ عُمُومِ الْهَوَى يَا لَيْلَةَ الْفَرَحِ
حِينَ اغْتَدَى الشَّمْلُ بِالْأَحْبَابِ مُجْتَمِعاً
وَالْأَنْسُ مِنَّا قَرِيباً غَيْرُ مُتَنَزِّحٍ
وَقَدْ شَرِبْنَا شَمولاً هَيَّجَتْ شَغَفاً
مِنْ خَمْرَةِ الْوَصْلِ لَا مِنْ خَمْرَةِ الْقَدَحِ
عَلَى بَسَاطِ بَسْطَنَاهُ لِكُلِّ مُنَى
مُحِبُّوْبَةٍ وَهَوًى لِلنَّفْسِ مُقْتَرَحِ
وَمُنْشُدُ الشَّعْرِ يُغْرِينَا بِنَعْمَتِهِ
إِذَا شَدَا بِسَرِيعٍ أَوْ بِمُنْسَرِحِ

وتجدر الإشارة إلى جانبٍ مهم في علائق شاعرنا بإخوانه وأصدقائه
ألا وهو حرصه على مكاتبتهم ومخاطبتهم ومعاتبتهم إذا تأخروا عن مكاتبتهم،
ونلاحظ أن عدداً من قصائده ومقطعاته خاطب فيها أصدقاءه أو صدّر بها
رسائله وكتبه إليهم، ولعلّ هذه - لو حفظت - كانت تفيد في إلقاء مزيد من
الضوء على حياته.

ونريد أن نطرح في آخر هذا الفصل جملة أسئلةٍ وهي: لماذا لم
يرحل الشاعر من بلده بسطة إلى العاصمة غرناطة كما فعل القلصادي بعد
رجوعه من رحلته المشرقية، وكما فعل جاره أحمد الوادي آشي وأبوه
وغيرهما من الأعلام الذين كانت تجتذبهم الحضرة ودار الملك؟ ولماذا
كانت محاولاته في الخروج من بسطة تقتصر على الاتجاه إلى جهات أخرى

كبرجة وبرشانة والمرية ومالقة؟ فهل كانت أدواته العلمية والأدبية تقعد به عن مزاحمة قُصَاد غرناطة أم ثمة أسباب أخرى؟.

نطرح هذه الأسئلة لأننا لم نجد في ديوانه ما يشعر بأي وجود له في غرناطة، وهو أمر غريب حقاً، ونحسب أنه من أسباب خمول ذكره وعدم اشتهاؤه، وإلا فإنه في فقهه وأدبه لم يكن دون عددٍ ممّن ذكرتهم كتب التراجم من أهل زمنه.

وقد وجدناه في بعض شعره يتشوق إلى الحج ويحن إلى الديار المقدسة، ويحلم بذلك قال: «رأيت في المنام، كأني دخلت المسجد الحرام. فقلت من غير روية (93):

يا بُقْعَةً شَرَّفَهَا اللَّهُ
ماذا بِحُبِّي فيكَ أَلْقَاهُ
بِالْقُرْبِ مِنْ مَغْنَاكَ يَنْغِي الشُّفَا
مُتَيِّمُ الْقَلْبِ بِشَكْوَاهُ»

فلماذا يا ترى لم يحج أو يرحل إلى المشرق أو المغرب شأن كثير من الأعلام يومئذ، أم أن شروط الاستطاعة والرحلة لم تكن متوفرة لديه؟. مهما يكن الأمر في هذا كله فإن القرائن تدلّ على أنه ظل مقيماً في بسطة إلى أن وافاه الأجل المحتوم في تاريخ لا نستطيع تحديده.

الحواشي

(1) توجد نازلة في المعيار تنطبق على ما يذكره الشاعر هنا وهي: «وسئل القاضي أبو عمرو ابن منظور عن إمام مسجد وأضيف لذلك المسجد المذكور محضرة يقرء فيها الأولاد، وصدر أمر مولانا السلطان بدرهمين في اليوم ليتقوى راتب ذلك المسجد وانفتحت فوقها محضرة ثانية فتفرقت الأولاد ونفرت أفيجوز له أن يؤاجر على ولدين أو ثلاثة أو أقل أو أكثر أو يتركها؟ فأجاب: يجوز للإمام أن يبقى في محضرة يقرء كتاب الله وإن لم يبق إلا واحد أو اثنان ويأخذ من عين له السلطان، فهذا جواب ما سئل عنه بمحوله المعيار 7: 156 ومما يؤكد هذا الافتراض التوافق في المبلغ وإشارة الشاعر إلى أمر السلطان.

(1م) كذا في الأصل، ولعلها الأحرش شهرة شخص.

(2) الخراجة: ربما يقصد بها بوابة صغيرة أو مسرباً للماء.

(3) انظر قصيدة ابن الأزرق في نفع الطيب، وكذلك قصيدة العربي.

(3م) قول البسطي يشبه قول أبي الحسن الغالي الذي اضطرَّ إلى بيع نسخة من كتاب الجمهرة بخط مؤلفها:

وَقَدْ طَالَ بِي وَجَدِي بِهَا وَحِينِي
وَلَوْ خَلَدْتَنِي فِي السَّجُونِ دِيُونِي
صَغَارَ عَلَيْهِمْ تَسْتَهْلُ شُؤُونِي
مَقَالَةً مَكْهُوِي الْفُؤَادِ حَزِينِي
كَرَائِمٍ مِنْ رَبِّ بَهَنَ ضَنِينِي

أَبَسْتُ بِهَا عَشْرِينَ عَاماً وَبَغْتَهَا
وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنِّي سَأْبِعُهَا
وَلَكِنْ لِعَجْزٍ وَافْتِقَارٍ وَصِيبَةٍ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سِوَابَقِي عَبْرَةٍ
وَقَدْ تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أَمَّ مَالِكٍ

وقول الحداد المهدي:

كَالشَّمْسِ مِنْ تَحْتِ الْقِنَاعِ
خِرَ مَا يَبَاغُ مِنَ الْمَنَاعِ
كَبْدِي وَهَمَّتْ بَانِصِدَاغِ
بِتْ فَنَحْنُ فِي زَمَنِ الضِّيَاغِ

قَالَتْ وَأَبَدْتُ صَفْحَةً
بَعَثَ الدَّفَاتِرَ وَهِيَ آ
فَأَجَبْتُهَا وَيَدِي عَلَى
لَا تَعْجِبِي مِمَّا رَأَيْتِ

(4) من فقهاء هذا العصر ومفتيهم. ترجمته في نيل الأتھاج: 324 وشجرة النور الزكية: 262.

(5) القشتال كلمة عجمية معناها الحصن أو برج الحراسة والمراقبة.

(6) رحلة القلصادي : 91 - 92.

(7) حمة صالحة من الحمّات التي كانت تقصد للنزهة والاستجمام والاستشفاء وكان بها حصن وقد استولى عليها النصارى في شهر رمضان من عام 890هـ. انظر أخبار العصر: 382 في ذيل آخر بني سراج وانظر كذلك في حمة صالحة «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: 93 والمعيار 7: 94.

صلاته بمعاصريه

ممّا يلفت النظر أن شاعرنا البّسّطي - الذي لم نعثر على ذكره أو شعره في المصادر الموجودة - لم يكن نكرة في عصره أو مجهولاً بين أعلام وقته في الأندلس، والدليل على هذا ديوان شعره، فهو حافلٌ بأسماء الأعلام الذين عرفهم في مختلف أطوار حياته، ومنهم بعض شيوخه، ورفاقه زمن الطلب والدراسة، ومعاصريه من القادة والقضاة والأئمة والعدول وأهل الأدب، وجلّ الذين سماهم في ديوان شعره لهم ذكر أو إشارة في كتب التراجم والتاريخ، وإنّ من شأن هذا كله أن يعوّضنا في الجملة عن فقدان ترجمته، ويعرفنا بظروف عصره، ويحدّد لنا بعض التواريخ من حياته.

ومع أنه قضى معظم عمره في بسطة ولم يخرج منها إلّا قليلاً كما يبدو من ديوانه فقد كانت له صلات كثيرة بأهل عصره في بلده بسطة وجارتها وادي آش وغرناطة وبرجّة وبرشانة والمرية والمنكب وغيرها.

ويرد ذكر الاعلام في الديوان في معرض مخاطبة الشاعر إياهم بشعره

في مختلف الأغراض والمناسبات؛ ومن هنا يمكن عد ديوان البسطي في المصادر التاريخية واعتبار شعره شعراً وثائقياً.

- إن أول الأعلام الذين نصادفهم في ديوان البسطي هو «الشيخ الأستاذ أبو عبد الله البياني» وللشاعر في مدحه ومخاطبته في أغراض مختلفة نحو اثنتي عشرة قصيدة ومقطوعة، وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق، ورأينا أنها تعرّف به أكثر من ترجماته القصيرة في رحلة القلصادي والضوء اللامع ونيل الابتهاج، كما رأينا من خلال بعضها تطور العلاقة بين الرجلين، بعد أن حُبس عن الشاعر الفقيه مرتبه من قبل البياني ناظر الأحباس، (والغالب أنه هو نفسه شيخ الشاعر وممدوحه).

وفيه - على ما يبدو - يقول مشيراً إلى سبب ذلك التطور من مدحه إلى الشكوى منه (76):

أصبحَ الأستاذُ عنيَ معرضاً
وغدا باطنه لي قد فسَدُ
فأطلتُ البحثَ عن موجبِ ذا
كَ فلم أَلِفْ له غيرَ الحَسَدِ

وقال فيه أيضاً (76):

أيّها المُعْرِضُ عنيَ ما الَّذي
جئتُ حتّى صرتَ عنيَ مُعْرِضاً
لَسْتُ ذِمِّيًّا وَلَا مُبْتَدِعاً
فَلِمَاذَا أَيُّهَا الْعَدْلُ الرُّضَى

ولعله أعلنَ ندمه على ما مدحه به قديماً في قوله (76):

أقيلوني فَقَدْ أَخْطَأْتُ فيما
مَدَحْتُكُمْ بِهِ خِطْأً كَبِيراً

وإن ملّتم إلى الإغراض عني
فبالإغراض تُلّفوني خبيراً

وفي قوله (76):

جُرّت في الإغراض عني
أيها الشيخ الذّميمُ
بَعْدَ مَدْحِي لَكَ جُهْدِي
إِنَّكَ الْخَبُّ اللَّئِيمُ

- وإذا سرنا في ترتيب الاعلام على حسب ورودهم في الديوان
فسنجد - بعد البياني المذكور - «الوزير الحاجب أبا إسحاق إبراهيم بن عبد
البر»، وأخباره مذكورة في المصادر المسيحية⁽¹⁾، إذ كان رجل الدولة في
عهد أبي عبد الله محمد بن نصر الملقب بالأيسر حيث سافر له لدى ملك
قشتالة، وقاد الجيش في عدد من الوقائع، ودبر أمور الدولة، وكانت له
مواقف معلومة.

وفي ديوان البسطي قصيدة في مدحه «أيام ولايته بسطة» وقطعة جعلها
صدر رسالة كتب بها إليه، أما قصيدة المدح فيفهم من مطلعها أنها أنشئت
في مناسبة عيد (20):

بشائرُ هذا العيدِ بالعودِ تُفصح
لتدبيرِ أمرِ الملكِ إذ بك يصلحُ

والمطلع يشير إلى الأمل في عودة الوزير الحاجب إلى تدبير أمر
الملك في غرناطة، والظاهر أن القصيدة قيلت بعد خروجه من غرناطة،
ويمكن أن يكون ذلك بعد خلع الأيسر سنة 1445م، وفي آخر القصيدة
إشارة إلى شيء من ظروف إبعاده عن غرناطة وولايته بسطة:

ولكنَّ للأيامِ شيمَةً غادرٍ
إذا حسنتُ حالاً تعودُ تُقبِّحُ

فغارت عليه لا لنقصٍ ووصمةٍ
ولكن طباع ليس عنهن تبرح

إن هذه القصيدة تؤكد ما جاء في المصادر المسيحية التي تشيد
بشجاعة الرجل ودهائه وحسن سياسته وتدبيره:

ومن كابين عبد البر رب فضائل
بها الدهر يزهي والطروس توشح
وزير أمير شد بالملك أزره
وحاجب سلطان له الحجب يجنح

وقد أفاض عليه الكثير من صفات الكمال وقال إنه جمع فضائل شتى
يكل اللسان عن وصفها، ونقتبس من القصيدة قول الشاعر وقد يكون فيه
شيء من الصدق:

يميناً لما أبقي الجزيرة غيره
يقدس في أرجائها ويسبح
بحفظٍ ولحظٍ واحتياطٍ وعزيمة
تطيب لنا أخبارها حين تشرح

وتذكر المصادر المسيحية أنه قاد الجيش مراراً قبل توليه الوزارة وفي
أثنائها، وهذا ما يؤيده قول الشاعر:

فسل عن جموعٍ للعدى قد أبادها
تجد مخبراً في كل قطرٍ يصرح
عظامٌ وأشلاءٌ وهامٌ كريهة
لها الأرض مرمى لا تزال ومطرَح
يضيق بما منها أتيح له الفضا
فتملاه أنواعها وهو أفيح

فَللَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَاهُ لَدَى الْوَعَى
يُجَدِّلُ أَبْطَالَ الْأَعَادِي وَيَجْرَحُ
عَلَى ظَهْرِ مَرْكُوبٍ يُبَارِي إِذَا جَرَى
لِخَفَّتِهِ رِيحَ الصَّبَا حِينَ تَنْفَحُ
رَعَتْ عَيْنُهُ الْإِسْلَامَ وَاللَّهُ عَالِمٌ
لِيَحْفَظَهُ يَوْمَ السَّرَائِرُ تَفْضَحُ

وفي الديوان قطعة مَهَّد لها الشاعر بما يلي: «وقلت أيضاً مخاطباً ابن عبد البر وصَدَّرت بذلك رسالة كتبت بها إليه»: وهو يعرب فيها عن شوقه إليه وحبه له (67):

وَحُبُّ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ مِنْذُ غَرَسْتُهُ
بِقَلْبِي جَنِيْتُ الْجَاهَ وَالْعِزَّ مِنْ غَرَسِي

ونحسب أنه ابن عبد البر الوزير، وقد يكون الشاعر قال هذه القطعة بعد رجوع المذكور إلى الوزارة في غرناطة إثر مبايعة مخدومه السلطان الأيسر من جديد سنة 1448م.

وقد تحدثت المصادر القشتالية عن نهاية هذا الوزير المفجعة في غرناطة بعد هزيمته المنكرة في كائنة لورقة التي يسميها المسيحيون Al Porchones ووقعت يوم الجمعة 25 صفر سنة 856هـ (17 مارس 1452) واستشهد فيها خيرة المجاهدين من المغاربة وغيرهم، وقد رثاهم شاعرنا بتخميس مؤثر سنذكره فيما بعد.

ولسنا نعرف هل ثمة دلالة سياسية في مدح الشاعر هذا القائد الوزير الذي ينتمي إلى عائلة غرناطية كان لها - طوال قرن ونصف تقريباً - دور سياسي بارز، فقد كان جده أبو إسحاق إبراهيم بن فرج ابن عبد البر وزيراً ليوسف الأول، كما أن ولد هذا القائد خدم دولة محمد الأخير (بوعبدل)، ويذكر المؤرخون القشتاليون أن إبراهيم ابن عبد البر كان زعيم حزب بني

سراج أصحاب الأدوار المعروفة في آخر العهد النصري .

- وبعد إعدام إبراهيم ابن عبد البر في السنة المذكورة أسند الأيسر مقاليد حكومته إلى أبي يحيى محمد بن عاصم ولد القاضي المشهور ابن عاصم صاحب التحفة وغيرها من المؤلفات، وهو العلم الثالث الذي نجده حين نتصفح الديوان بالترتيب، وهذا نص ما فيه (22):

«وقلت مخاطباً بعض الأصحاب ومادحاً الشيخ الرئيس الكبير أبا يحيى ابن عاصم» ويبدو من التحلية أن القصيدة قيلت بعد توليه الوزارة أي بعد سنة 856هـ وترجمة أبي يحيى الذي كان ينعت بابن الخطيب الثاني موجودة في نفح الطيب وأزهار الرياض ونيل الابتهاج وغيرها وأخباره مبثوثة في شرحه المخطوط على تحفة الحكام لوالده والمعيار للونشريسي، وغيرهما، ومن مؤلفاته تقييد في التعريف بأهل بيته، وكتاب جنة الرضى، وكتاب الروض الأريض وغير ذلك، وذكر في ترجمته أنه «تولّى اثنتي عشرة خطة في وقت واحد من القضاء والوزارة والكتابة والخطابة والإمامة وغيرها»⁽²⁾ وفي ترجمته أيضاً أنه «توفي على ما قيل ذبيحاً من جهة السلطان»⁽³⁾.

أما قصيدة البسطي فتألف من 30 بيتاً ومطلّعها (22):

ما كنتُ أحسبُ أن الحسنَ يلعبُ بي
حتى انجلى كَتَبُكُمُ للعَيْنِ مِنْ كَتَبِ

وهو يخاطبُ بها بعض أصحابه المتصلين بالرئيس ابن عاصم - ولعله ابن الأزرق الشاعر لا الفقيه الذي له شعر في مدح الرئيس المذكور - ويبدو أنه بعث قصيدته من بسطة إلى صاحبه في غرناطة، وفي قسمها الأول وصف ومدح لكتابة صاحبه، وتذكر لزمن المعاشرة:

ذكَرْتَنِي زَمناً قَضَيْتُ فِيهِ مُنًى
مَنْ قُرْبِكُمْ ذَكَرُهَا بِالْقَلْبِ لَمْ يَغِبْ

وأما القسم الثاني فأوله إشارة إلى رغبة الرئيس في شعر الشاعر

البسطي ليدرجه - على ما يظهر - في كتابه «الروض الأريض» الذي ذيل به
«الإحاطة» لابن الخطيب، قال مخاطباً صاحبه المذكور

أشرت فيه إلى قصد الرئيس أبي
يحيى بن عاصم أعلى السادة النجب

وبعد هذا مدح مسهب للرئيس، وخاتمتها تشرح الموضوع
وما أشار به من بعث شعري قد
وافاه ما بين وحشي ومخشلب
ولو قدرت على در أتيت به
إلى حماه وما يمت بالحصب
لكن طاقة مثلي غير خافية
والذر نعدره في حسة الجلب
وقد ترددت في إرساله خجلاً
منه وعذري لديه واضح السبب
وقلت حاشاه حاشاه يشين به
ديوان علم أتى من أعجب العجب

وهذه القصيدة تؤكد أموراً أربعة سبقت الإشارة إلى بعضها، أولها أن
الشاعر عاش في بلده بسطة لا في غرناطة، وثانيها أنه كان مشهوراً لدى
معاصريه، ومعدوداً من شعراء وقته. وثالثها أن له ترجمة في كتاب الروض
الأريض لابن عاصم، ولا نعرف منه الآن إلا مقتبسات في نفع الطيب
وأزهار الرياض وغيرهما، ورابعها تواضع الشاعر البسطي ورأيه الصريح في
شعره وهو الرأي الذي عبر عنه في مقدمة ديوانه فقال: «إن شعري منحط
عن الدرجة المتوسطة، ومع انحطاطه عنها فنفسي به مغتبطة، تكثر دائماً
من إنشاد أبياته، وتوثر استجلاء باهر أنوار إياته، وتردد على السمع رجاء
النفع عجائب آياته، وترفع باليمين منشور راياته، كلّفنا بمحاسنه الأدبية

ولإعجاباً، وشغفاً بما تحمله للنفس من الارتياح والأنس وتوجهه إيجاباً».

ولشاعرنا قصيدة أخرى قالها أيضاً «مخاطباً الرئيس الوزير الحاجب أبا يحيى ابن عاصم المذكور من قبل» ومطلعها (62):

أَنْتَ الدَّوَاءُ إِذَا مَا أَعْضَلَ الدَّاءَ
وَرَامَ هَضْمِي حُسَّادُ وَأَعْدَاءُ

وقد رفعها إليه من بسطة مستنصراً به على خصومه في بلده، وقد أوردنا بعضها فيما سلف.

- أما الشخصية الرابعة في الديوان فهي شخصية «القاضي الرئيس أبي حامد ابن الحسن»، وللشاعر في مخاطبته ومخاطبة ولده أبي جعفر أحمد أكثر من عشرين قصيدة وقطعة، ويستفاد من شعر البسطي أن أبا حامد المذكور كان قاضياً في بسطة، وفي هذا يقول مخاطباً إياه (29):

لَمَّا حَلَلْتَ بِقَطْرِ بَسْطَةٍ قَاضِيًّا
أَضَحْتَ مَعَالِمَهُ بَعْدَ لِكَ مُشْرِقَهُ
وَكَسَوْتَهُ ثَوْبَ الْفَخَارِ تَفْضُّلاً
فَمَلَكْتَ مَغْرَبَهُ كِمَلِكِكَ مُشْرِقَهُ

وتدلّ لهجة أشعاره فيه وفي ولده على نوع من الصلة الوثيقة بهما، فقد كانت بين الشاعر وبين الرجلين مجاوبات شعرية، ويدل على ذلك قوله لما توصل بقطعة شعرية من أبي حامد (28):

تَشَقَّقْتُ مِنْهَا لِلدُّوَادِ نَوَاسِماً
يَفُوقُ شَذَاهَا الْمَسْكُ خَالِطُهُ النَّدُّ
يَمِيناً لَقَدْ أَعْجَزَتْ قَسّاً بِنَظْمِهَا
فَلَيْسَ لَهُ فَخْرٌ بِنَظْمٍ وَلَا وَخْذٌ؟

وعذراً لِمَنْ رَامَ الجَوَابَ ففَاتَهُ
فجاءَ بنظمٍ ضعُفه ماله حَدٌّ

ولعلَّ مما يدلُّ على المداخلة ورفع الكلفة بينهما مخاطبته بهذه
الآيات التي ذكر في عنوانها أن لها حكاية (34):

مولايَ إِنِّي أَهْوَى مَبِيتَ نَجْلِكَ عِنْدِي
ورغبتني منك أن لا تَخْصَّ بِالرَّدِّ قَصْدِي
لا زِلْتُ فِي خَفْضِ عَيْشٍ وَوَصْلِ عَزٍّ بِسَعْدِ

ويبدو أن نجل القاضي هذا كان من أقران شاعرنا أو أكبر منه وله فيه
قصائد ومقطعات «على سبيل التغزل فيه» ومنها قصيدة ضمن أوائل أبياتها
حروف كنيته واسمه وما به يعرف أي أبو جعفر أحمد بن الحسن⁽⁴⁾.

وبعض هذا الغزل صريح، ومنه هذان البيتان (34):

أَنْتَ رُوحِي وَرَاحَتِي ثُمَّ رَاحِي
وَمُحْيَاكَ فِي الدُّجَى مُصْبَاحِي
إِنْ صَحَا مِنْ شَرَابِ سِحْرِ هَوَاكُمُ
مَنْ هَوَاكُمُ فَإِنِّي غَيْرُ صَاحِ

وبعضه الآخر إعجاب بجماله وحُلُو شمائله وباهر أدبه، كقوله من
قصيدة مطلعها (32):

أَهْلًا بِيَوْمِ سُرُورٍ رَائِقِ حَسَنِ
نَعِمْتُ فِيهِ بِظَبْيٍ مِنْ بَنِي الْحَسَنِ
مَا شَتَّ مِنْ أَدَبٍ غَضٍّ وَمِنْ حَسَبِ
قَدْ لَزَّ مَعَ شُهْبِ الْأَفْلَاكِ فِي قَرَنِ
الْحِفْظِ حَلِيَّتِهِ وَالْفَهْمِ شِمَّتِهِ
وَالْفَضْلِ وَصَفِّ لَهُ إِنْ بَانَ لَمْ يَبِينِ

يستحضرُ الشعرَ عن طبعِ يزينه
أقولُ إن دَامَ في الإنشادِ يقتلني
أذابَ رُوحِي بما أَمَلَهُ مِنْ أدبٍ
وشاهدي لَعَدُولِي صَفْرَةَ البدنِ
إني اختبرتُ معانِيهِ التي بهَرَت
فلم أجِدْ مثله في اللَّبِّ والفِطْنِ
مَدَّ الإِلَهِ لَهُ في العُمُرِ مَنفَسَحاً
حَتَّى يَحُلَّ محلَّ الجَدِّ ذِي المِنَنِ
وَبِجْتَنِي وهو فَذٌّ كُلُّ مَكْرُمَةٍ
تُقَرُّ عَيْنَ أَبِيهِ فَاضِلِ الزَّمَنِ

أريد أن استنتج من هذه الأبيات أن أبا جعفر أحمد بن الحسن هذا هو حفيد القاضي أبي الحسن النباهي قريع ابن الخطيب المعروف الذي عاش حتى تمم القرن الثامن، ويبدو أن حفيد النباهي وولد القاضي أبي حامد المذكور قال الشعر وهو صغير، فقد أوردَ مؤلف مظهر النور الباصر ثلاث قصائد لمن اسمه «أبو جعفر أحمد بن الحسن النباهي»⁽⁵⁾ في مدح يوسف الثالث الملقب بالناصر الذي ملك حتى سنة 820⁽⁶⁾ هـ. ومما جاء في إحداها (ص: 98):

وَلَكَمْ أَيَادٍ جَمَّةٌ أَسْلَفْتُمْ
أَسْلَفْنَا قَدَمًا بِهَا قَدْ مُتَعَوَا
وَحَيَاةُ قَلْبِي فِي «ظَهِيرٍ» عِنَايَةٍ
يُعَلِّي مَكَانِي فِي الْفَخَارِ وَيَرْفَعُ
وَمَعِيشَةٍ تُغْنِي وَتُرْغِدُ عِشْتِي
أَشْفِي الْغَلِيلَ بِمَا تُفِيدُ وَأَنْقَعُ

وفي هذا بعض الاشكال حيث إن والده - إذا كان - عاش حتى سنة 888هـ إلا إذا فسرنا الأمر بالتقارب الذي يكون أحياناً في السن بين الآباء والأبناء وبالنبوغ المبكر لهذا الولد، أو يكون مادم يوسف الثالث عمّاً له سمي باسمه وكني بكنيته.

وأغلب الظن أنه هو صاحب البسطي هذا كما يدل على ذلك التماثل في الاسم والقرائن الواردة في الأبيات المذكورة آنفاً، وقد نجد ما يشهد لذلك أيضاً في هذه القصيدة التي وطأ لها الشاعر بقوله: «وقلت أيضاً مخاطباً ابنه [أي ابن أبي حامد بن الحسن] أبا جعفر وقد بلغني أنه طلب منه بعض الأدباء أن ينظم له أبياتاً يهجوني بها، وذلك لما كان طُبع عليه من الشغف بحفظ الهجاء» وأول القصيدة (30):

هجاؤك لي مدحٌ فرذني من الهجو
لعلك تشفيني من البث والشجو
وجدد به تذكّار أيام أنسنا
ببسطة مجموعين في مجلس اللهو
ندير كؤوس الوصل في كلّ ساعةٍ
ونخطو إلى لذاتنا أوسع الخطو
فنقطف أزهار المسرات غضةً
وطرف الردى حيران في سنة السهو

وبعد أن يشكو من هجر صاحبه وإصغائه لواشٍ أراد أن يكدر صفو العلاقة بين الصاحبين، ويهجو هذا الواشي يقول - وهو محل الشاهد هنا -:

ولست أرى من سكر حبك صاحباً
إذا ما أرى غيري يميل إلى الصخر
لأنك أحرزت الفضائل كلها
فصرت بها ترقى على المرقب العلوي

ورثت المعالي عن رجالٍ أعزّة
 قضاةٍ كرامٍ قلّدوا لأمة الزّهو
 لهم دانت الدنيا بنيل مرامهم
 فأروّتهم عزّاً وللغير لم تُرو
 أت كتب التاريخ تظهر فضلهم
 فعنها أخي الفخراؤ إن شئت أن تروي
 وفي غير ما نظم تضمّن ذكرهم
 موفّي بما حازوا قديماً من السّرو
 فقل للثيم رام طيّاً لسروهم
 توق فسرو القوم ينشرو ما تطوي

ويقول من قصيدة في مدح أبي حامد والد المذكور (71):

شبّ في حجر أبيه فارتقى
 قنناً للعلم من أعلى القنن
 وأبوه حلّها من قبل مع
 جدّه فخر القضاة المؤتمن

وهذا الشعر كلّه يحمل في طيّه إشارات تاريخية إلى أصالة بني الحسن النباهيين الذين رجحنا أن يكون هذا الممدوح ووالده منهم، ولعلّ من المستحسن معارضته بكلام أبي الحسن النباهي الذي يردّ فيه على ابن الخطيب:

«وقلتم في كتابكم: «أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد». وقد أذهب الله عنا ببركة الملة المحمدية عيبة الجاهلية في التفاخر بالآباء، ولكني أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم: إن كانت الإشارة إلى المجيب بهذا فمن المعلوم المتحقّق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمثال قطره. قال القاضي أبو عبدالله ابن عسكر وقد ذكر في

كتابه من سلفي فلان بن فلان، ما نصه: وبيته بيت قضاء وعلم جلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر، استقضى جده المنصور ابن أبي عامر، وقاله غيره وغيره، وييدي من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتبة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس وإلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد والمئة لله وحده». وجاء في ظهير تولي أبي الحسن النباهي من إنشاء ابن الخطيب: «ولما كان له الحساب الأصل الذي شهدت به ورقات الدواوين، والأصالة التي قامت عليها صحاح البراهين، والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين، وطبق مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير، وقاض في الأمور الشرعية ووزير، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير».

ولعلّ ممّا يؤكد هذا استعمال الشاعر عبارة «بني الحسن» وبشهرة «ابن الحسن» يعرف النباهي القاضي، وكذلك قول الشاعر مخاطباً القاضي أبا حامد موزياً بابن الحسن ومشيراً على ما يظهر إلى كتاب «خلع الرسن» لابن الخطيب (29):

قلت لَمَّا لَامَنِي فِي الْحَبِّ مَنْ
قَدْ رَأَنِي فِيهِ مَخْلُوعُ الرَّسَنِ
مَنْ أَحَبَّ الْمُصْطَفَى مَعَ آلِهِ
لَيْسَ نُكْرًا أَنْ يُحِبَّ ابْنَ الْحَسَنِ

ولإنما احتجنا إلى كل هذا لأن نسبة النباهي - أو الجذامي مثلاً - لم ترد في الديوان ولأننا لم نقف على ترجمة لهذا القاضي أبي حامد أو ولده وإنما وجدنا اسم هذا الأخير - مع زيادة النباهي - في مخطوط مظهر النور الباصر، كما وجدنا اسم «السيد الشيخ أبي حامد بن الحسن» في فتوى فقهاء الأندلس فيمن نبذ بيعة السلطان أبي الحسن النصري⁽⁷⁾.

فإذا صَحَّ ما ذكرناه فإن ديوان البسطي يقدِّم لنا بذلك فائدة في استمرار النباهيين في القضاء وخدمة الدولة حتى نهاية غرناطة.

ويبدو أن القاضي أبا حامد المذكور ولي القضاء في المرية أيضاً فقد كتب إليه الشاعر من بسطة (29):

لعمرك ما استحالَ الحبُّ عِنْدِي
ولا أَنِّي لعَهْدِ هِوَاكَ نَاسِي
أزورك بالمرية كلَّ يومٍ
وما سافرتُ عَنْ أَهْلِي ونَاسِي

وكرر هذا المعنى في قوله (81):

وفارقتُ أبنائي وأهلي ووالدي
وسِرْتُ لِلْقِيَا مَنْ وَهَبْتُ لَهُ قَلْبِي
وَلِي قَائِدٌ يَطْوِي الْمَرَاجِلَ دَائِباً
لزورة مَثْوَاهُ وَلَكِنْ مِنْ حُبِّي

كانت صلة الشاعر بهذا القاضي متينة كما ذكرنا وقد رأيناه فيما سبق يخاطبه في استعارة بعض الكتب بعد خروجه من الأسر، وفي شأن مرتبه الذي حبس عنه، ويبدو أن القاضي الذي كان يقول الشعر أحياناً كان مولعاً بشعر الجناس والتورية ولهذا وجدنا الشاعر يخاطبه كثيراً في هذين الغرضين، فمن ذلك توريته باسم القاضي قائلاً (29):

فَتَنَّتْ بِمِشْكَاةِ الْأَنْوَارِ مَنْ
كِتَابِكُمْ بَغِيَةِ الْقَاصِدِ
وَلَيْسَ عَجِيباً بِهِ فِتْنَتِي
فمصدره عن أبي حامد

ورى هنا بأبي حامد الغزالي وكتابه مشكاة الأنوار، وقد رأينا الشاعر يشكو إلى ولد القاضي من بعض الوشاة، وها هو يشير إلى الأمر نفسه في بيتين خاطب بهما القاضي نفسه (34):

إليك اشتياق القلب في كل لحظة
وأنت محل الحب حقاً بلا شك
فأي لثيم جاء يزعم غير ذا
فقد جاء بالبهتان والزور والإفك

ولعل الشاعر سمع مرة خيراً بتعيينه أو ترقية في منصب ما بسعي من صديقه وممدوحه فخاطبه بهذه الأبيات (28 - 29):

فديتك عرّفتني حقيقة ذا الخبر
ولا تخف عني منه عينا ولا أثر
ونفس عن الصب المعنى كآبة
وقيت من الأوصاب في الورد والصدّر
فنفسي وحق الله طارت لسمعه
وهذا لدى الإخوان مني قد اشتهر
ولم لا وقد أضفيت لي طوبة
تجلت لأرباب البصائر والنظر
وفاضت أياديكم سجلاً بساخي
فحزت بها فخراً عظيماً على البشر

على أننا وجدناه من جهة ثانية يشكو اهتمام صاحبه حقه وتأخيرهِ وتقديم غيره عليه وسبق أن أوردنا في فصل سابق ما قاله في ذلك.

هذا ولم نجد ما نعتمد عليه في تحديد التاريخ الذي كان فيه أبو حامد ابن الحسن هذا قاضياً في بسطة ثم في المرية ولا نعرف من هو

السلطان النصري الذي ولاه حسبما يشير إليه الشاعر في قوله (25):

عَلِمَ السُّلْطَانُ مِنْهُ
فِي هَوَاهُ صِدْقَ عَزْمٍ
فَأَصْطَفَى مِنْهُ رَئِيساً
رَبَّ فَخْرٍ رَاقٍ فَخْمٍ
عَضَدَ الْمُلْكَ بِعَزْمٍ
أَيَّدَ الْحَقَّ بِحَزْمٍ

وكل ما نعرفه أنه كان حياً سنة 888هـ ووصف يومئذ بالسيد الشيخ.

- وبعد هذا نصل في الديوان إلى قصيدة طويلة مَهَّدَ لها الشاعر بقوله: «وقلت مخاطباً الصديق المخلص أبا عبد الله ابن رجاء وكتبت بذلك إليه من أبذة وأنا في حكم الأسر» وتشتمل القصيدة على 50 بيتاً وفيها تذكير لصديقه بما كان بينهما من إخاء وزمالة أيام الدراسة، وشكوى من قيود الأسر، وحنين إلى بسطة، ورجاء فضل الله سبحانه في أن يفك قيود الأسر عنه وعن من بأبذة من الأسراء، وقد استشهدنا فيما سلف بأبيات من هذه القصيدة.

أما صاحبه هذا فلم نقف على ذكره في المصادر التي رجعنا إليها.

- ومن أصدقاء الشاعر الذين تردَّد ذكرهم في شعره أبو عبد الله محمد بن مالك الأليزي، وفي الديوان سِتُّ قصائد في مخاطبته، ومطلع القصيدة الأولى (38):

رعيُّ الوداد لأفضلِ الأصحابِ
متأكِّدُ الإلزامِ والإيجابِ

وقد اقتصر في توطئتها على تحلية صاحبه بالفقيه الطالب مما يدل على أنه كان من أقرانه ونظرائه، وهذا ما تؤكدُه الأبياتُ التي يتحدث فيها عن أيام الطلب وقد سبق إيرادها في موضعها من هذه الدراسة، وليس فيها ما يعين البلد الذي جمعهما. وكتب إليه مرة رسالة من بسطة إلى المنكب

حيث كان إماماً ومقرئاً، وجعل في صدر الرسالة هذين البيتين (100):

ودادكم أرعى وإن طال بعدكم
وعوّضتم من بسطة بمنكب
وإن نكب الأصحاب عن رعي وذكّم
فلست أرى عن رعيه بمنكب

وقد خاطبه هذا الصاحب من المنكب بقصيدة يشكو فيها وضعه (٢٧)

فأجابه البسطي عنها بقصيدة مطلعها (110):

لَكَ اللَّهُ مِنْ جَمِّ الْفَضَائِلِ مَعْلُومٌ
بَسْبَقِي لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ وَتَقْدِيمِ

ثم يسرد بعض فضائله ويقول:

وَأَقْسَمُ لَمْ تَدْعَ الْإِمَامَ ابْنَ مَالِكٍ
سِوَى لَجْنَى مَلِكٍ سَتَحْوِيهِ مَحْتَمٌ

ويستدلّ على ذلك بخطابه الذي يشتمل على شعر رفيع ونثر بديع

ويقول في هذا الخطاب:

تَلَوْتُ لَهُ «وَالْتَيْنِ» لَمَّا لَمَحْتُهُ
وَعَايَنْتُ مِنْ مَعْنَاهُ أَحْسَنَ تَقْوِيمِ

ثم يتوجع لفراقه وبعاده فيقول:

وَلَكِنْ شَجَى نَفْسِي وَأَمْرَضَ مُهْجَتِي
وَصَيَّرَنِي فِي النَّاسِ أَذْهَلَ مُهْمومٍ
بَعَادُكَ عَنْ عَيْنِي وَكَوْنُكَ ثَاوِيًّا
بِمَعْقِلِ شَرٍّ فِي الْمَعَاقِلِ مَذْمومٍ
تَطَابَقَ تَحْقِيقاً مَسْمَاهُ وَاسْمُهُ
مُطَابَقَةً أَضَحَّتْ دَلِيلًا عَلَى الشُّومِ

وهذا المعقل هو حصن المنكب الذي سمّاه في البيتين السابقين،
والتشاؤم باسم المنكب معروف عند الأندلسيين، قال ابن الخطيب في
معيّار الاختيار يصف بلدة المنكب: «إلا أن اسمها مظنة طيرة تُشتَف،
فالتنكيب عنها يؤتَف».

أما القصيدة الثالثة فهي مصدرة بما يلي: «وقلت مخاطباً القاضي
الفاضل أبا عبد الله محمد بن مالك الأثيري» وتتكون من 60 بيتاً، وقد
حبرها في مدح صاحبه ورفيق دراسته الذي أصبح قاضياً في بسطة، وبدأها
بالغزل ثم تخلص إلى المدح فأطنب في وصف علمه وعدله (50):

به انجلى عن ساكني بسطة
ليل من الظلم بها مظلم
به غدا الشرع بها ظاهراً
والدين في أرجائها قيم
به بدا الحق بها مشرقاً
وأمره منعقد مبرم

ثم يعود بعد أبيات إلى مثل هذا قائلاً:

به غدت في نعمة بسطة
بها حباها الباسط المنعم

ويبدو أن الشاعر ضيف صديقه القاضي أثناء توليه قضاء بسطة وقال
في ذلك (51 - 52):

تقبل فدتك نفوس البشر
وبلغت فيما تروم الوطر
طعام محب مقر بما
لديك من الأدوات استقر

أتى منه بالنزر لا جاهلاً
بحق سيادتِكَ المعتبر
ولكن إليه أنتهى وسعهُ
وذا عندكم أمره قد ظهر
وما المن يبعث مع تلوه
لمجديك إلا غدا يُحتقر
فعفوا فمثلكم من عفا
وعذراً فمثلكم من عذر
وقد جاء في مثل سائر
طعام الأحيّة ما قد حضر
وهكذا يرى أن المن والسلوى قليلتان في حقه .

ولما نقل صديقه من قضاء بسطة، وأصبح قاضي الجماعة في غرناطة
كتب إليه الشاعر رسالة يهنئه بها وصدرها بقصيدة في الموضوع نفسه، وقد
اختتمها بهذا البيت (88):

وَعَجَّلْ سَيِّدِي نَضْرِي فَحَقِّي
كَمَا تَذْرِي وَتَعْلَمُ وَالسَّلَامُ

كما ختم قصيدة أخرى في مدحه بقوله:
ومهرها اجعله بلا مانع
إنفاذ ما من قصتي تعلم

ولعله يشير بها إلى قصّة المرتب المحبوس السالفة.
والقصيدة الخامسة يعاتب فيها الشاعر صديقه على بخله بالكتابة إليه
وأولها (88):

يا ابن عبد المليك يا خير خل
ذكره منذ غاب عني شغلي

وآخرها:

عُدْ لِرَعْيِ الْوِدَادِ وَاشْدُدْ بَكْتِبِ
حَبْلَ رَعْيِ الْوِدَادِ مِنْكَ بِحَبْلِي

ويبدو أن صديق البسطي هذا الذي سماه بابن مالك تارة وبابن عبد الملك تارة أخرى هو الذي ترجم له أحمد بابا السوداني في نيل الابتهاج وقال: «محمد بن علي بن عبد الملك الأليزي الغرناطي شهر بابن مليح، قاضيه (غرناطة)، وقع النقل عنه في شرح التحفة لابن عاصم، وكان حياً عام اثنين وثلاثين»⁽⁸⁾.

وذكر القلصادي في رحلته أنه لما رجع من الحج إلى بسطة سنة 855هـ أقام بها «برهة من الزمان متأساً بالشيخ الفقيه الإمام الخطيب سيدي جعفر وكذلك سيدي الفقيه الإمام الصدر الخطيب المقرئ أبي عبد الله محمد بن عبد الملك حفظه الله، وبالفقيه النبيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم، وكذلك بغيرهم من الأوداء والأصحاب»⁽⁹⁾.

وأرى أن أبا عبد الله محمد بن عبد الملك هذا هو صاحب شاعرنا أما أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم فقد يكون والد الشاعر أو هو نفسه بناء على ما ذكرته في أول هذه الدراسة.

وجاء في المعيار (10: 309) ما نصّه: «كان القاضي أبو عبد الله الأليزي أيام استخلافه قضاء الجماعة بحضرة غرناطة يغلظ على من فهم منه اللدّ من اليهود...». والخبر هنا يتعلّق بالفقيه المذكور أيضاً. ويبدو أنه كذلك هو صاحب شرح البردة الذي توجد منه نسخ مخطوطة في الخزائن المغربية، وفي هذا الشرح شيء من شعره وشعر ابن الخطيب وشعر أبي البركات البلفيقي وغيرهما.

- وفي ديوان الشاعر البسطي مدح لثلاثة أعلام من شيوخ الغزاة بمدينة

بسطة وهو أبو عبد الله محمد بن عثمان وأبو الحسين الشريف وعبد الله بن عمران .

فقد مدح الأول بقصيدة من 56 بيتاً وكلها إشادة بمواقفه في الجهاد، ومنها (52 - 54) :

يا صارخاً جعل الصُّرَاخَ شِعَارَهُ
في مُلْتَقَى الْأَقْرَانِ بِالْأَقْرَانِ
قُلْ لِلْعِدَى جَهْرًا بِأَرْفَعِ مَنْطِقِ
إِنْ الرَّدَى مِنْ دَارِكُمْ مُتَدَانِ
مُذْ أَمَّكُمْ شَيْخُ الْغَزَاةِ مُحَمَّدٌ
نَجَلُ الْمُجَاهِدِ ذِي التَّقَى عُثْمَانِ
ومنها:

بَشْرَى لِبَسْطَةِ بِالْهُمَامِ مُحَمَّدٍ
وَلَأَهْلِهَا قَاصِيَهُمُ وَالذَّانِي
وَلَهَا الْهَنَاءُ كَمَا الْهَنَاءُ لَهُ بِهَا
إِذْ حَلَّهَا فِي أَسْعَدِ الْأَزْمَانِ
يَبْنِي مَنَارَ الْأَمَنِ فِي أَرْجَائِهَا
بَصَّوَارِمِ الْإِخْلَاصِ وَالْإِيمَانِ
وَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِلْعَاصِي الَّذِي
تَرَكَ الرَّشَادَ وَدَانَ بِالْعِصْيَانِ
لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الَّذِي كَسَبَتْ يَدَا
هُ مِنْ الْخَنَا وَالزَّيْغِ وَالْخِذْلَانِ
وَيُؤَمِّمُهُ بِكُتَائِبِ مَنْ جُنْدِهِ
تَذَرُ الدِّيَارَ بَغِيرَ مَا سُكَّانِ
وفيهما يقول مهتداً أعداء الإسلام:

وَاسْتَبْشِرُوا بِحُلُولِ كُلِّ مَصِيبَةٍ
 مَشْفُوعَةٍ بِالْوَيْلِ وَالْخُسْرَانِ
 تَأْتِي عَلَيْكُمْ أَجْمَعِينَ بَعْزُمةٍ
 مِنْ فَارِسِ الْفُرْسَانِ فِي الْمِيدَانِ
 مَنْ لَا يَنَامُ عَنِ الْإِغَارَةِ قَلْبُهُ
 حَزْماً إِذَا مَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ
 حَتَّى يُجَدِّلَكُمْ بِكُلِّ مَهْنَدٍ
 وَيَرَاكُمْ صَرْعَى بِكُلِّ مَكَانٍ
 وَيُعِيدُ ذَلَالاً عَزَّكُمْ بِهِزَائِمٍ
 تُفْنِي شِيُوْخَكُمْ مَعَ الشَّبَّانِ
 وَيَحِيقُ مَكْرُكُمْ بِكُمْ فِي عَاجِلٍ
 تَنْعَى بِهِ الْغُرَبَانَ فِي الْأَوْطَانِ

ويبدو أن شيخ الغزاة وقائد بسطة هذا ما هو إلا النصري الذي كان
 يبرز بالأحنف .

وفي المصادر المسيحية معلومات عن هذا القائد النصري ممدوح
 الشاعر، فهي تذكر أنه كان على رأس الجيش الذي استرجع غرناطة لحكم
 محمد IX الملقب بالأيسر سنة 1432م وكافأه هذا بتعيينه قائداً على المرية،
 كما تذكر أنه كان قائد جيش الأيسر في معركة Higveruela سنة 1432م وأنه
 ثار عليه في سنة 1445م إذ تحرك من المرية حيث كان قائداً عليها إلى
 غرناطة فاستولى عليها وظل سلطاناً عليها نحواً من سنة - وهو المعروف
 بمحمد X الأحنف ELCOJO - ثم ضاق به الغرناطيون فأخرجوه .

ولا تذكر هذه المصادر وجهته بعد ذلك ولكنها تذكر ظهوره في
 المعارك التي وقعت خلال 1446 - 1447 والتي استرجع فيها المسلمون عدداً
 من المواقع

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن عثمان الأحنف هذا توفي

- حسب تقديره - خلال الشهور الأولى من سنة 1448⁽¹⁰⁾ م. ولكننا نجد رسالة وجهها بوصفه صاحب الأندلس إلى السلطان جقمق صاحب الديار المصرية وبلاد الشام وهي مؤرخة بجمادى الأولى عام 855هـ - 1451م⁽¹¹⁾.

هذا هو شيخ الغزاة ابن عثمان ممدوح شاعرنا.

ولعل من المناسب هنا أن أثبت نصّ سؤال كان وجهه إلي فقيد البحث الأستاذ لويس سيكو دي لوثينا في موضوع هذه الشخصية التاريخية سنة 1965 وهو: هل في ديوان عبد الكريم القيسي ذكر لشيخ الغزاة أبي عبدالله محمد بن عثمان الذي ثار بالمرية على ملك غرناطة، وهذه صورته بخط يده:

a t - il dans le diwān de
 'Abd al-Karīm al-Qaysi un
 'ayj al-ʿuzā pui z'apelle
 Abu 'Abd Allah Muhammad
ibn 'Utmān ?

- وله في مخاطبة شيخ الغزاة ببسطة أبي الحسين الشريف قصيدتان إحداهما في مدحه، والثانية في الإعراب عن أشواقه إليه، وقد أطل الغزل في الأولى (25 بيتاً) وخرج منه للمديح قائلاً (54 - 57).

كأن ضياء الشمس من وجنتي أبي الـ

حسين إذا تملّى عليه المدائح
 وهو يمدحه بالشرف الثابت الواضح، والعقل الراجح والكرم الفياض،
 والشجاعة الفائقة، ويقول في ولايته:

تولّى على الأجناد شيخاً ببسطة

فأولاهم جوداً على الغيث كاسح

ويخاطبه قائلاً:

حَمِيَّتَ حِمَانَا مِنْ عَدُوٍّ أَرَادَنَا
فَلَيْسَ لَنَا فِي ذَا الزَّمَانِ مُكَاشِحُ
ويقول في وصف شجاعته:

كَأَنَّ النَّصَارَى حِينَ يَلْقَوْنَ خَيْلَهُ
ظُبَاءٌ إِذَا مَا يَمَّمْتُهَا الْجَوَارِحُ

ويبدو أن أبا الحسين هذا هو الذي خاطبه الشاعر في مكان آخر
مرحّباً بقدومه على بسطة (73):

عَمِ السَّرُورُ جَمِيعَ النَّاسِ إِذْ قَدَمَا
أَبُو الْحُسَيْنِ الَّذِي فَاقَ الْوَرَى هِمَامَا
فَأَشْرَقَتْ بَسْطَةً مِنْ نَوْرِ غُرَّتِهِ
كَلِيلَةَ الْبَدْرِ جَلَى نَوْرُهَا الظَّلَمَا
وَقَرَّتِ الْعَيْنُ إِذْ حَطَّ الرِّكَابُ بِهَا
يَوْمَ الْخَمِيسِ وَأَضْحَى السَّعْدُ قَدْ لَزِمَا

وللشاعر أيضاً قطعة في مخاطبة ولد أبي الحسين هذا أولها (57):

سَتَبْلُغُ فِي دُنْيَاكَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ
وَتَسْمُو بِكَ الْعُلِيَاءُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ

ولم نصل بعد البحث إلى شيء حول هذا الشريف أبي الحسين شيخ
الغزاة ببسطة وليس في شعر البسطي زيادة في التعريف به على ما ذكرنا.

- أما الثالث من شيوخ الغزاة ببسطة فهو عبد الله بن عمران، وقد
طلب بعض إخوان الشاعر منه أن يقول على لسانه قصيدة في مخاطبة شيخ
الغزاة هذا فأنشأ قصيدة مطلعها (89 - 90):

مُحْيَاكَ يَا عَبْدَ الْإِلَهِ بْنَ عَمْرَانَ
بِحَبِّكَ مَذَّ أَبْصَرْتُ شَخْصَكَ أَغْرَانِي

وفيها يشكو صاحب الشاعر بتأخيره بعد أن كان مقدماً في خدمة الشيخ المذكور، وهو يشكر تفضله وجوده الذي صار به في السابق غنياً بين الأهل والجيران.

ثم يقول الشاعر على لسان صاحبه:
فكَيْفَ يَكُونُ الْآنَ حَظِّي مِنْكُمْ
بقوليّة موصوفاً بنحسٍ وخسران
وقد علمت تلك السيادة أنني
لخِذْمَتِهَا أَصْبُو هَوًى مِنْذُ أَزْمَانٍ
وَأَتِي بِذِلَّةِ الْجَهْدِ فِيمَا حَصْرْتُهُ
مَنْ أَعْشَارَهَا وَالْحَزْمُ فِي ذَاكَ مِنْ شَانِي
فَمُنُوا بِإِحْسَانٍ عَلَيَّ قَدْ خِدْمَتِي
وَحُصَّوْهُ لِي مِنْكُمْ بِفَضْلِ وَرَجْحَانٍ

قوليّة المذكورة هنا حصن من إقليم بسطة (نفح الطيب 4: 66 والروض المعطار: 113):

وقد أوردت المدونات المسيحية اسم عبد الله بن عمران هذا كالاتي:
Abd Allah Ambran .

ونعرف من هذه المدونات أنه كان قائداً على بسطة خلال 1455 - 1456م (859 - 860هـ) ونعرف منها أيضاً أنه كان شجاعاً قوياً ألباً، ومما ذكرته أنه لما تمت هدنة موقته بين غرناطة وقشتالة في عهد سعد من بني نصر سنة 1455م (859هـ) طالب القشتاليون ببعض الحصون التي كانت في حوزة المسلمين، واشترط قومس قبره التنازل عن حصن Solera مدّعياً أن قائد بسطة عبد الله استولى عليه بعد عقد الهدنة، وتواردت رسائل

القشتاليين على سلطان غرناطة فأكد لهم رغبته في بقاء الصلح وأنه سيعث تعليماته إلى القائد في شأن التنازل عن الحصن ولكن القائد ابن عمران لم يمثل لذلك ورفض التنازل عن الحصن⁽¹²⁾.

ونستفيد من شعر البسطي في شيوخ الغزاة أنهم كانوا ذوي نفوذ وسلطة يقومون بالجهاد - وهو وظيفتهم الأولى - ويؤدّبون العصاة ويجمعون الأعراس من الفلاحين لتمويل الجهاد، ونستفيد منه كذلك أن مشيخة الغزاة ظلت قائمة حتى زوال مملكة غرناطة ولم يعف رسمها كما ذهب إلى ذلك بعضهم أخذاً من قول ابن خلدون: وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه، وصار أمر الغزاة إليه يباشر أحوالهم بنفسه ويعممهم بنظره ويخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته» (العبر 7: 788) وكل ما في الأمر أنها أصبحت في أولاد ملوك غرناطة وأقاربهم، وممن وليها منهم كبير أولاد محمد الخامس أبو الحجاج يوسف وأخوه سعد وغيرهما.

ولكن المغاربة استمروا في التطوع للجهاد بالأندلس وظل الريفيون والغماريون يقدون عليها بنية الرباط وكانت لهم أيام مشهورة ومقامات محمودة.

وقد ذكر المؤرخون المغاربة - ومنهم الناصري في الاستقصا - أن المولى علياً الجد الأعلى للأشراف العلويين «دخل عدوة الأندلس برسم الجهاد مراراً وأقام بها مدةً طويلة» ولما رجع إلى سبلماسة بنية التوجه إلى الديار المقدسة «كتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم ويحضون على الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو وأنها شاغرة ممن تجمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه وهو مقيم عندهم على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعاً وزهداً وعزوفاً عن الدنيا وزهراتها»⁽¹³⁾. وقد وقف اليفرني على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة في الموضوع وذكر أسماء أصحابها، وساق قصيد أبي فارس ابن أبي الربيع الغرناطي في الاستنجد به⁽¹⁴⁾.

وقد كَانَ لعرقلة بعض النصريين للغزاة المجاهدين وضيق بعض الأندلسيين بهم وَحَسَاسِيَتِهِم التقليدية في الخوف الوهمي منهم دور في نهاية الأندلس المفجعة .

- وتسلك في عداد شيوخ الغزاة المذكورين أحد القواد من ممدوحى الشاعر - وهو القائد حامد - ولعله حامد بن محلى البطوي - وقد مدحه الشاعر بقصيدة من أطول قصائده (73 بيتاً) بدأها بلوم نفسه بعد ذهاب قوته وشيب عذاره، وأعلن رغبته في التوبة وزيارة قبر الرسول الكريم، ووصف فيها ركب الحجاز الأندلسي من ذهابه إلى إيباه وهذا كله في 27 بيتاً ثم تخلص إلى مدح القائد قائلاً (140 - 143):

وعادوا وَقَدْ حازوا من الأجر مثملاً
بوادي الأشى مِنْ أَجْرِهِ حازَ حامِد
أجلُ ولاةِ الوقتِ قَدْراً ومنصباً
وأمجدهُهم مهما يُعدُّ الأماجد

وقد أطنب في عدّ مآثره في الجهاد والمجد وآثاره في إحياء الدين وحياطته وتعهده لأهل العلم ورعايته لأولى الآداب ورفقه بالرعية وإغداقه على الغزاة المجاهدين الوافدين عليه من أنحاء الأرض وإعداده إياهم لغزو الروم وقيادته لهم بنفسه . ونقتطف من هذه القصيدة قوله :

تولّى فأحيا للجهاد معالماً
بأمثالها عهدُ الوَرَى مُتباعِد
وقامَ بها لا الجُبْنُ يَشْنِي عِناهُ
ولا الخَوَرُ المذمومُ عَنْهُ يُباعِد

وقوله :

لذاك أَتتهُ الرّومُ تطلُبُ سَلْمَه
تردّدهُ لا تَنشِني وتعاودُ

فسَوَّغَهَا مِنْهُ الْمَرَادَ وَلَوْ أَبِي
لَبَاتَتْ لَهَا رَوْعٌ عَلَى الْحَدِّ زَائِدُ
أَلِيَّةَ بَرٍّ فِي الْيَمِينِ، بِمِثْلِهِ
تُحَاطُ وَتُحْمَى مِنْ عِدَاهَا الْقَوَاعِدُ

والمراجع القشتالية تسمي القائد حامداً هذا وتنعته بِلَدِّ العداوة
للنصارى وشدة البأس وصعوبة المراس هو وجنده من غمارة. وتذكر مواقفه
في الدفاع عن مالقة وبسطة وغيرهما⁽¹⁵⁾، أما المراجع العربية التي نقل
عنها المقرئ فتشير إلى صاحب وادي آش ولكنها لا تسميه⁽¹⁶⁾ ولعله هو حامد
هذا.

إن مدح شاعرنا البسطي لشيخو الغزاة وعدم مدحه لأمرء زمنه من
بني نصر - باستثناء ابن عثمان الأحنف - قد يكون فيه دليل على موقف
معين، وسيتبين لنا هذا الموقف في فصل آخر، ولعلّ مما يتصل بمدح
هؤلاء الغزاة المجاهدين - وجُلُّهم من المغاربة - ما ورد في قصيدة له في
مدح أهل مالقة، فقد ذكر بالخيز فعل أمرائها الأقدمين من بني اشقيلولة في
استدعائهم أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ومنايذتهم لأصهارهم
وأقاربهم من بني نصر، كما نوه بمآثر السلطان المريني، قال - والضمير في
أمرائها يعود على مالقة -:

وَأَنْدَلُسٌ بِالْحَزْمِ مِنْ أَمْرَائِهَا
غَدَا نَاكِصاً عَنْهَا كَفُورٌ وَمُلْحِدُ
وَهُمْ حَفِظُوا الْإِسْلَامَ فِيهَا وَإِنَّهُ
لَبَغِي عِدَاهُ كَادَ يَطْوِيهِ مَلْحِدُ
وَفَعَلَ ابْنُ إِشْقِيلُولَةَ فِي دَعَائِهِ
أَبَا يَوْسُفٍ بِالْحَقِّ وَالصَّدَقِ يَشْهَدُ
دَعَاهُ لِنَصْرِ الدِّينِ فِيهَا مُبَادِراً
فَلَبَّاهُ مِنْهُ نَاصِراً وَمُؤَيِّدُ

وجازَ إليها في جُمُوعٍ كثيرةٍ
 يفوقُ الحَصَى تعدادُها إذ تُعَدُّ
 فشنَّ على أعدائها كلَّ غارةٍ
 وكاليومِ في الغاراتِ أضْحَى بها الغدُّ
 وأمضى على مَنْ أُمَّ منهم هزائماً
 وسجّلَ ما أمضاهُ سيفٌ مهنَّدُ
 فمنهم قليلٌ بالصعيدِ مجدِّلُ
 ومنهم أسيرٌ في القيودِ مصفَّدُ
 ولولا الذي وافى به من فعّالِه
 لَمَّا كانَ فيها لِلإلهِ موحدُ
 وحسبُكَ فخراً في التصانيفِ وارداً
 بتقييدهِ فيها اعتنى من يُقيّدُ

- ونصل الآن إلى علم من أعلام عصر شاعرنا وصديق من أعز
 أصدقائه الذين خاطبهم كثيراً بشعره وهو الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد
 الأزرق أو ابن الأزرق، وعندنا في هذا العصر اثنان يعرفان هكذا، وأمرهما
 يختلط حتى على الحذاق من المتأخرين والمحدثين⁽¹⁷⁾، وذلك لما بينهما
 من المعاصرة والمشابهة في الاسم واللقب، والواقع أن التفرقة بينهما أمر
 ميسور، فأحدهما أبو عبد الله محمد الأزرق الوادي أشي الكاتب الشاعر،
 والثاني أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن الأزرق الأصبحي المالقي
 ثم الغرناطي وهو الفقيه شارح الشيخ خليل ومؤلف بدائع السلك وغيره من
 المؤلفات، وقد تأخرت وفاته عن الأول وكان من أصحابه وقد ذكره في
 كتابه روضة الأعلام وترحم عليه⁽¹⁸⁾.

أما شاعرنا فقد عرف الرجلين معاً ولقب الوادي أشي بالأزرق، ولقب

الآخر بابن الأزرق، وكانت صلته بالأول أكثر من صلته بالثاني وبينهما مخاطبات شعرية حُفظ بعضها في ديوان البساطي، وكان هذا متعلقاً بصاحبه مغالياً في الإعجاب ببلاغته يدل على ذلك قوله (60):

قالوا البلاغةُ خَلَدَتْ آيَاتُهَا
لأَبْنِ الخطيبِ ماثِراً لِمِ تُلَحِّقْ
فأَجَبْتُهُمْ إِنْ البلاغةُ بَعْدَهُ
آيَاتُهَا مَنْسُوبَةٌ لِلأَزْرَقِ

وله فيه قصيدة طويلة مطلعها (57):

أَشْعَرُكَ أَمْ عِقْدٌ عَلَى لَبَّةِ النَّحْرِ
جَواهِرُهُ أَغْلَى مِنَ الجَواهِرِ البَحْرِيِّ

كلها إعجاب بشعر صاحبه وبلاغته، وفيها يقول:

وبِالأَزْرَقِ الفَتَّانِ أَصْبَحْتُ مَغْرَماً
أُنْظِمُّ فِي أَوْصافِهِ رائقَ الشَّعْرِ
إِمَامِ أُولِي الآدَابِ عِنْدَ اسْتِباقيهِمْ
إِلَى الغَايَةِ القُصُوى مِنَ النِّظَمِ والنَّشْرِ
وفائِزِهِمْ فِيمَا جَنَوْا مِنْ بلاغَةٍ
مُتِمَّةِ التَّجويدِ بِالحَمْدِ والشُّكْرِ
إِذَا اسْتَقَرَّ النِّقَادُ فِي الفضْلِ مَنْ مَضَى
فَمَا مِثْلُهُ فِي الفضْلِ يَلْفِيهِ مُسْتَقَرٌّ
فَقَدْ أدْرَكَ المَاضِينَ مَجْداً وَسُودَداً
وَقَدْ أَعْجَزَ الآتِينَ فِي آخِرِ الدَّهْرِ

وأبياتها كلها ناطقة بالإعجاب الشديد ببلاغة الأزرق وأدبه، ومثل هذا نجده في قصيدة جوابية مطلعها (58):

يا سائراً للعلَى في أرفع الطُرُق
فَقَتَ الْوَرَى بِكَمَالِ الذَّاتِ وَالْخُلُقِ
وَافَى كِتَابُكَ وَالْإِعْجَازُ يَصْحَبُهُ
فَكَلَّ مَنْ رَامَهُ فِي الْعَصْرِ لَمْ يُطْقِ
فَكَانَ رَوْضاً بِهِ الْأَزْهَارُ مَوْنَقَةً
أَنْوَارُهَا تَزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي الْغَسَقِ

وقد جمعتهم بسطة تارة ووادي آش تارة أخرى وكانت لهما ذكريات أنس يشير إليها البسطي قائلاً (60):

كَمُلَ الْأَنْسُ لَنَا فِي بَسْطَةٍ
بِأَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ الْأَزْرَقِ
وَاجْتَلَيْنَا طُرْفاً مِنْ نَظْمِهِ
نَحْنُ [مِنْهُ] فِي مَغَانِي الْأَبْرِقِ

ولما انتقل الأزرق إلى غرناطة كتب إلى صديقه البسطي فكان من جواب هذا قوله (58):

ذَكَرْتَنِي يَا أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ بِهِ
أَيَّامَ أَنْسٍ بَغَيْرِ الْقُرْبِ لَمْ تَرْقِ
تَخَالْنِي عِنْدَمَا يَجْرِي تَذَكُّرُهَا
بِالْقَلْبِ تُكَلِّي مِنَ الْأَشْوَاقِ لَمْ تُفَقِ
فَلَسْتُ وَاللَّهِ أَنْسَى عَهْدَهَا أَبَداً
مَا دَامَ فِي جَسَدِي شَيْءٌ مِنَ الرَّمَقِ

أما الأزرق فيعبر عن تعلقه ببسطة قائلاً على ما نُرجّحه:

في بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مُشرَقةً
أضحتُ جُفوني بالمحاسنِ مُعلَقةً⁽¹⁹⁾

وهو القائل على الأرجح أيضاً مورياً:
قلْ لِمَن رَامَ النَّوَى عَنَ وطنِ
قَوْلُهُ لَيْسَ بِهَا مِنْ حَرَجِ
فَرَجِ الهمِّ بِسُكْنَى بِسْطَةِ
إن في بسطةٍ بابَ الفَرَجِ⁽²⁰⁾

وكانه خاطب بهما صاحبه البسطي لما ازدحم عليه الهم وقال (152):

أَيُّهَا الصَّبُّ بِسُكْنَى بِسْطَةِ
يَبْتَغِي العِزَّ بِهَا وَالشَّرَفَا
انصَرَفَ عَنْهَا لِسُكْنَى غَيْرَهَا
فَكِلَا الأَمْرَيْنِ عَنْهَا انصَرَفَا

وقد خاطب الشاعر صديقه على طريقتة وطريقة شعراء ذلك العصر
بشعر استعمل فيه التورية فمن ذلك قوله مورياً بلقب صاحبه (59):

يَا هَائِماً أَخْفَى الهَيْأَمَ وَإِنَّهُ
بَادٍ عَلَيْهِ كَالصَّبَاحِ المَشْرِقِ
إِنْ هِمَّتْ بِالطَّرْفِ الكَحِيلِ وحسنه
فَأَنَا أَهِيْمُ صَبَابَةً بِالْأَزْرَقِ

وقوله مورياً بكتاب البيان للجاحظ (59):

إِنَّ البَيَانَ المَسْتَحِيلَ الرُّؤْيَ
مَمْلُوكُ فِكْرِ الأَزْرَقِ الحَافِظِ
وَهُوَ الَّذِي أَبْدَى لَنَا طَرْفَهُ
فَعَنَّهُ يُرَوَّى لَا عَنِ الجَاحِظِ

ولما توفي هذا الشاعر الكاتب الأزرق رثاه صاحبه البسطي بقصيدة
جيدة نثت منها ما يلي (132 - 134):

قلمُ البلاغةِ بعد موت الأزرق
في مَآتمٍ من حزنِه كالمُهرق
هذا لما يلقى عبوسٌ واجم
حزناً وهذا كالكتيب المُطرق
فِكِلَاهُمَا يتجارِيَانِ من الأسي
لِلغَايَةِ القُصُوى التي لم تُلحق

وبعد أن يذكر ما رُزِقَ من بلاغة وسحر بيان كما تشهد بذلك قصائده
التي ترددها الرواة وكتابته التي أغنت الملوك عن الكتائب يقول متفجعاً عليه:

لَهْفِي عَلَيْهِ لَا أَزَالُ أُعِيدُهُ
حَتَّى بِهِ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي أَلْتَقِي
فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي هِيَ مَنْزِلُ
لِلْمُؤْمِنِ الْخَاشِي الْمُطِيعِ الْمُتَقِي
لَوْ كَانَ يُمَكِّنِي الْفِدَاءُ فِدَيْتُهُ
بِالنَّفْسِ مُحْتَسِباً فِدَاءَ الْمُشْفَقِ

ثم يترحمُ عليه بعد أبيات في الحكمة والموعظة:
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي نَفَحَاتُهَا
فِي الطَّيِّبِ فَوْقَ الْمَسْكِ لِلْمُسْتَشْقِ
خُصَّيْهِ مِنْكَ بِزُورَةٍ تَرْضَى بِهَا
مَنْ مَاتَ مِنْ إِخْوَانِهِ أَوْ مِنْ بَقِي

وليس في هذه المراثية ومقدمتها ما يشير إلى تاريخ وفاته أو مكانها،
ومهما يكن فإنها في رثاء الأزرق الكاتب الشاعر. وليست في رثاء ابن

الأزرق الفقيه القاضي المتوفى بالمشرق، كما ذهب إلى ذلك صديقنا الدكتور محمود مكّي، ونحن نعتمد في هذا على تفرقة صاحب الديوان بينهما كما مر وعلى عدم الإشارة في المراثية إلى القضاء والعلوم والمؤلفات والرحلة إلى المشرق والوفاة به وغير ذلك مما عرف به ابن الأزرق، وقد عرفنا من طريقة الشاعر في المدح والرثاء أنّه يعرض لكل ما يتصل بالممدوح.

وفي هذه المراثية إشارة إلى أن المراثي كتب عن الملوك، ويبدو لي أنه صاحب القصيدة السينية في مدح الرئيس أبي يحيى ابن عاصم:

خَضَعْتُ لِمِعْطَفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسَ

وَرَنَا فَهَامَ بِمَقْلَتَيْهِ النَّجَسُ⁽²²⁾

وهي قصيدة تبرهن على ما قاله البسطي في بلاغته وشعره، وقد شك المقرئ في نسبتها بعد إيرادها قائلاً: «وعندي الآن شك في صاحب هذه القصيدة، هل هو قاضي الجماعة بغرناطة محمد ابن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني...»⁽²³⁾.

ولإذا ثبت أنها للأزرق فقد تدل على أنه كان تولى الكتابة في عهد ابن عاصم الممدوح الذي أسندت إليه رئاسة الحكومة سنة 856هـ.

لقد ضاعت ترجمة هذا الأزرق الذي ترحم عليه صاحبه ابن الأزرق في كتابه روضة الأعلام ونعته بالكاتب الأبرع وأورد تنقاً من شعره الذي كان آية في علو الطبقة كما يبدو مما بقي منه وكما يصرح بذلك الشاعر البسطي، وأنا أذهب إلى أن معظم الشعر المنسوب إلى القاضي ابن الأزرق في نفع الطيب وأزهار الرياض - ومنه تلك النونية المجونية - هو لهذا الشاعر إذ هو به أشبه ونسبته إليه أليق، ولو وصل إلينا كتاب الروض الأريض لابن عاصم لعرفنا من شعره وأخباره ما يزيد على ما عرفناه من ديوان البسطي.

ونقرأ في الديوان في معرض تورية الشاعر بأسماء الكتب ما يلي
(75):

«وقلت أيضاً في مثل ذلك (أي مورياً):
مرضتُ لطول البعدِ عني سيدي
وأصبحتُ من شوقي إليكم على شفا
ولو جدتُم لي بالمنى من كتابكم
لجدتُم على مُضناكم منه بالشفَا
وقلت أيضاً (75):

صِلُونِي بِرَوْضِ المحاسنِ مِنْ
كِتَابِكُمْ إِنَّهُ مُعْجِبُ
فَائِي مِنَ الْأُنْسِ فِي بَسْطَةِ
فَقِيرٍ لَوْصَلَكُ مُسْتَوْجِبُ
جواب البيتين لصاحبنا أبي عبد الله محمد بن الأزرق:
فَدَيْتُ قَرِيضَكَ عِقْدًا بِهِ
لَالِيءٌ مِنْهُنَّ يُسْتَفْرَبُ
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ تِلْكَ اللَّالِي
يَتَامَى وَأَنْتَ لَهَنَّ أَبُ

وهذا هو ابن الأزرق الفقيه القاضي المؤلف، والشاعر - فيما أفهم -
يورّي في البيتين الأولين بكتاب «شفاء الغليل»، في شرح مختصر خليل
ويورّي في البيتين الأخيرين بكتابه «روض أو روضة الإعلام»، بمنزلة العربية
من علوم الإسلام». وقال فيه إنه كتاب عجيب وهذا صحيح.

أما بيتا ابن الأزرق فقد ورى فيهما بكتاب اليتيمة للثعالبي وأشار إلى
قول ابن قلاؤس:

أَبْيَاتُ أَفْكَارِ الْيَتِيمَةِ
أَبْكَارُ أَفْكَارٍ قَدِيمَةٍ
مَاتُوا وَعَاشَتْ بَعْدَهُمْ
فَلِذَاكَ سُمِّيَتِ الْيَتِيمَةُ

وقد عنت لي هنا ملحوظات أذكرها فيما يلي :

1- زيادة على تفرقة الشاعر بين الرجلين حيث يقول في الأول «الأزرق» وفي الثاني «ابن الأزرق» فإنه يحلي الأول هكذا: «وقلت مخاطباً الفقيه الكاتب» أو «وقلت في رثاء الكاتب»، بينما اقتصر في تحلية الثاني على كلمة «صاحبنا» ويبدو من التحلية والشعر أن الأول أي الأزرق الوادي آشي كان أكبر منه سناً ورتبةً وأن الثاني أي ابن الأزرق الأصبحي الغرناطي كان في درجة أقرانه.

2- استفاد من تورية الشاعر بكتاب الشفاء لابن الأزرق أن اسمه شفاء العليل بالعين لا بالغين وهذا يقطع الخلاف الذي أورده المقرئ في النفع والأزهار بخصوص اسم الكتاب⁽²⁴⁾.

3- من الغريب أن ابن الأزرق لم يشر في كتابه «روضة الأعلام» و«شفاء العليل» إلى أبيات صاحبه البسطي في التورية بهما ولم يُجر له ذكراً مع عنايته في الكتاب الأول بسرد الحكايات الأدبية والفوائد المتعلقة ببعض شيوخه وأصحابه.

4- جميع الذين «اكتشفوا» ابن الأزرق بأخيرة وكتبوا عن كتابه «بدائع السلك» لم يتنبهوا إلى «الأزرق» والتفرقة بينه وبين «ابن الأزرق» ووقعوا في خلط شديد، وعلى كل حال فإن ديوان البسطي يلقي بعض الأضواء كما رأينا على هذين العَلَمَين من أعلام هذا العصر الذي ضاعت جلّ معالمه. هذا وقد جاء في ثبث البلوى الوادي آشي (ص 184) عند تعداد شيوخ والده ما يلي: «ومن شيوخه ببلده (وادي آش) الأستاذ

الحاج الفقيه الخطيب المتكلم القاضي العدل الصارم الأمضى المدرّس
المقدس المرحوم أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن
قاسم بن خلف الغساني الشهير بالأزريق رحمه». وهو فيما يبدو غير الأزرق
الوادي آشي الشاعر.

- وولتقي بعد هذا بسليل البيت المالقي النبيه القاضي الخطيب أبي
عمرو ابن منظور الذي يشتمل الديوان على ما يفيد من أخباره وأحواله،
فقد لقيه الشاعر في بسطة وسافر للقاءه في مالقة وكانت بين الرجلين
مكاتبات، وأول ما نجده من شعر الشاعر فيه قصيدة يهنئه فيها بقضاء
الجماعة في غرناطة ويقول في أولها (65 - 66):

بأيمنٍ وقتٍ وأسعد ساعه
وليتمّ فزيتمّ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ
ولحتمّ بغرناطةٍ بذّر سعدٍ
جلا العَدْلَ فيها وأبدى شُعَاعَهُ
وسُكَّانَهَا اغْتَبَطُوا مِنْكُمْ
بأفضلٍ مِنْ دَوْلَةِ ابْنِ جَمَاعَةٍ

ويبدو أن الشاعر بعث بالقصيدة من بسطة فهو يقول:

فَكَمْ مِنْ سُرُورٍ لَقِينَا غَدَاةَ
الحديث . بذاك البشيرُ أشَاعَهُ
وَلَوْ كُتِمَ حَاضِرِينَ رَأَيْتُمْ
بِدَارِ الْوَرَى يَقْصِدُونَ سَمَاعَهُ

وقد أشار في هذه القصيدة بشيء من المدح إلى سلطان غرناطة

فقال:

وَفَرَضَ عَلَيْنَا لِمَوْلَى رَاكَ
أَهْلًا لَهَا إِنْ شَكَرْنَا اضْطِنَاعَهُ

فَقَدْ قَلَّدَ الْقَوْسَ بَارِيهَا
وَأَضْفَى عَلَى الدِّينِ مِنْكُمْ شِرَاعَهُ

وينبغي أن يكون هذا السلطان هو الأمير سعد المستعين بالله.

والبسطي يمدح القاضي بالعلم والعدل وَيُشِيرُ إلى بيته ومن أنجب
من الأعلام فيقول:

وَبَيْتُكُمْ فَخْرُهُ ذُو الْحِجْجِ
غَدَا مُعْظِماً بَعْدَهُ وَاتَّسَاعَهُ
وَأَعْلَامُهُ كُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ
بِهِمْ فِي الْوَرَى كَمْ أَشَاعَ انْتِفَاعَهُ

وقد رجعنا إلى المصادر لمعرفة تاريخ ولايته قضاء الجماعة فوجدنا في نيل الابتهاج أنه «كان قاضياً بغرناطة سنة أربع وستين وثمانمئة»⁽²⁵⁾ كما وقفنا في كتاب «وثائق غرناطية» على إعلامه وتوقيعه على رسمين مؤرخين بعام خمسة وستين وثمانمئة⁽²⁶⁾. ويبدو أنه مكث مدة طويلة على رأس قضاء الجماعة فقد لقيه بها الرحالة المصري عبد الباسط سنة 870هـ وأثنى عليه⁽²⁷⁾.

أما ابن جماعة الذي لمزه الشاعر فهو الوارد في حكاية ذكرها أحمد بابا والمقري وهي أنه لما صرف الفقيه أبو الفضل ابن جماعة عن رئاسة الكتابة بغرناطة إلى قضاء الجماعة بها وولي مكانه أبو عبد الله الشّرّان لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يوماً فقال له إن السر الذي عهدناه في الحضرة قد غاب عنها بغيبتك، فقال له: وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع وأخذتم الشر المكرر⁽²⁸⁾. ولكن الشاعر البسطي حسب قوله كان يرى فيه غير ما رأى في نفسه:

بسم الله الرحمن الرحيم
 في حق من جاهد نفسه قدره
 من رأى غيره منه ما لا يرى
 وفي الديوان أبيات أخرى في تهنة ابن منظور بالقضاء قدّم لها
 هكذا: «وقلت في صدر رسالة (143):
 لِلّهِ نُعْمَى أَتَى مِنْهَا الْبَشِيرُ بِمَا
 عَمَّ السُّرُورُ بِهِ وَالْأَنْسُ وَالْفَرْحُ
 وَافَتْ عَلَى طَوْلٍ مَطْلٍ وَامْتَدَّامَدَى
 لِأَهْلِ بَسْطَةِ إِسْعَافًا بِمَا اقْتَرَحُوا
 وَهِيَ الْقَضَا لِابْنِ مَنْظُورٍ أَقِيمَ بِهِ
 فَالْعَدْلُ مَعْتَمَدٌ وَالْجَوْرُ مَطْرَحُ»

توقيع القاضي ابن منظور على رسم مؤرخ في فاتح عام 865هـ وصيفته: أعلم
 باكتفائه محمد بن محمد بن منظور القيسي وفقه الله تعالى ولطف به.
 (عن وثائق عربية غرناطية).

ومن جهلت نفسه قدره
 رأى غيره منه ما لا يرى
 وفي الديوان أبيات أخرى في تهنة ابن منظور بالقضاء قدّم لها
 هكذا: «وقلت في صدر رسالة (143):
 لِلّهِ نُعْمَى أَتَى مِنْهَا الْبَشِيرُ بِمَا
 عَمَّ السُّرُورُ بِهِ وَالْأَنْسُ وَالْفَرْحُ
 وَافَتْ عَلَى طَوْلٍ مَطْلٍ وَامْتَدَّامَدَى
 لِأَهْلِ بَسْطَةِ إِسْعَافًا بِمَا اقْتَرَحُوا
 وَهِيَ الْقَضَا لِابْنِ مَنْظُورٍ أَقِيمَ بِهِ
 فَالْعَدْلُ مَعْتَمَدٌ وَالْجَوْرُ مَطْرَحُ»

فهل هي كالقصيدة السابقة في تهنة المذكور بقضاء الجماعة
 بغرناطة أم أنها في تهنته بقضاء بسطة؟ مهما يكن الأمر فالنصان يعبران
 عن ابتهاج أهل بسطة لما وصل إليهم البشير بخبر توليه القضاء، وفي
 النص الأخير أن هذه الولاية كانت باقتراح من أهل بسطة وترضية
 لرغبتهم وإسعافاً لطلبهم. وقد يكون في ذلك أيضاً إشارة إلى نفوذ

الحزب الذي كانت تؤيده بسطة في هذه الحقبة .

وقد عاش ابن منظور إلى ما بعد سنة 887هـ وعاصر الأحداث النازلة بالأندلس في ذلك التاريخ، وكانت له مواقف في الدفاع عن مالقة، ومن ذلك ما يذكره البسطي في ديوانه قال: «وقلت أيضاً مخاطباً القاضي الخطيب أبا عمرو ابن منظور لما ورد بسطة ووادي آش يطلب من أهلها إعانة بلده مالقة بما تيسر من المال والطعام لما صحَّ من خروج طاغية قشتالة لحصارها، وعمل قصيدتين محرّضاً بهما على ذلك وكتبهما وكتبت بعدهما أبياتاً» ثم ساق هذه الأبيات أو القصيدة ومطلعها (60):

أزعيماً آدابٍ وعدلٍ في القضا
قاضي الهوى بثبوتِ حبِّكَ قد قَضَى

وقد أشار بعد مدحه إلى قصيدتيه الحماسيتين وأطراهما وقال إنه أثنى فيهما على وادي الأشي وبسطة:
وكساهما بُردَ الفَخارِ محبِّراً
ومفوّفاً ومذهّباً ومفضّضاً

ليس في كلام البسطي السابق أو قصيدته ما يستشف منه تاريخ خروج طاغية قشتالة لحصار مالقة المذكور هنا، ويبدو أنه الخروج الذي كان في سنة 888⁽²⁹⁾هـ وخبره مشروح في نبذة العصر، ونقول هذا لأن الوادي آشي يذكر في ثبته أن ابن منظور توفي «سنة ثمان أو تسع وثمانين وثمان مائة ودفن خارج باب البيرة»⁽³⁰⁾ كما يفهم من القصيدة المذكورة أن الشاعر قالها في كبره:

أذْكَرْتَنِي زَمَنَ الْقَرِيضِ وَأُنْسِهِ
وَالدَّهْرُ ثَوَّبَ الْأُنْسَ عَنْهُ قَدْ نَضَا

ويفهم من شكر ابن منظور لأهل بسطة ووادي آش المشار إليه في القصيدة السابقة أنهم استجابوا لدعوته وأمدوه بما تيسر لهم من المال والطعام

لإعانة إخوانهم في مالقة خصوصاً بعد تحريضه إياهم هو والشاعر البسطي .
ولما عزم على الرحيل إلى مالقة بعد ذلك خاطبه الشاعر قائلاً:
(61) .

كَيْفَ مُقَامِي بَعْدَكُمْ سَيِّدِي
وَالْقَلْبُ مِنِّي مَعَكُمْ فِي ارْتِحَالٍ
وَحَالَتِي لِلْبَيْنِ قَدْ حُوِّلَتْ
مَالِي بَعْدَ الْبَيْنِ وَاللَّهِ حَالُ
وَالْمَوْتُ عِنْدِي بَعْدَكُمْ حَاصِلُ
وَالْعَيْشُ قِطْعاً مِنْ قَبِيلِ الْمَحَالِ
فَلْتَحَفَظُوا يَا سَيِّدِي عَهْدَنَا
فَعَهْدُكُمْ نَحْفَظُهُ لَا نَزَالُ
بَلَّغْتُمُ الْمَأْمُولَ مِنْ قَصْدِكُمْ
فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ أَوْ فِي الْمَالِ
وَرَجَا مِنْهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ بِمَكَاتِبِهِ فَقَالَ مَوْرِيّاً بَكْتَابِ الْيَتِيمَةِ (61):
تَفَضَّلْ يَا ابْنَ مَنْظُورٍ بِكُتُبِ
يَكُونُ لِدَاءِ شَوْقِي كَالْتَمِيمَةِ
فَإِنْ الْكُتُبَ لِلْكِتَابِ دُرٌّ
وَكُتُبُ عَلَانِكُمْ مِنْهُ الْيَتِيمَةُ
وَخَاطَبَهُ بَعْدَ أَنْ عَادَ مِنْ سَفَرِهِ هَذَا وَحَلَّ بِمَالِقَةِ قَائِلاً (61):
هَنِيئاً بِهَا دَاراً حَلَلْتُمْ بِرَبْعِهَا
عَلَى عَزَّةٍ كَالْبَذْرِ حَلَّ بِأَسْعُدِ
وِلَا حُلُولَ الْبَرِّ فِي الْجِسْمِ وَالضَّنَى
أَتَى مَعَ طَبِيبِ السَّقَمِ مِنْكُمْ لِمَوْعِدِ

وفي الديوان أيضاً قصيدة مشفوعة برسالة في تهنئة أبي عمرو ابن منظور بتوليّه ديوان الإنشاء ورئاسة كتاب الحضرة، وهذه وظيفة سامية وليها من قضاة هذا العصر أبو يحيى ابن عاصم وأبو عبد الله الشّرّان وابن منظور هذا وغيرهم، ولا نعرف متى ولي ابن منظور هذه الخطة الرفيعة، ويبدو أن هذه الولاية كانت في الفترة الأخيرة من مملكة غرناطة ومهما يكن الأمر فقد أطنب الشاعر في مدح صاحبه بهذه القصيدة التي مطلعها (84):

ما للرياضِ أنيقةَ الأثواب

مأنوسةَ الأرجاءِ والأبواب

وبعد أبيات في معنى احتفال الطبيعة وابتهاجها بهذه البشرى يقول

في سبب ذلك:

ما ذاكَ إلّا للسّرورِ بنعمةٍ

من مُنعمٍ متفضّلٍ وهابٍ

بِولايةِ القاضي ابنِ منظورٍ أبي

عَمُرو رئاسةَ جُملةِ الكُتّابِ

ومن هذا وغيره في القصيدة نفهم أنه ولي هذه الخطة بعد القضاء،

والشاعر يعتبر هذا ترقية له ويقول:

فيحقّ أن يُدعى الرئيسَ ويرتقي

حتى ينالَ مراتبَ الحجّابِ

ومرتبة الحاجب في الأندلس هي أعلى المراتب كما هو معلوم.

ولقد أطنب الشاعر في وصف بلاغة الممدوح وكتابته وغير ذلك من أدواته كما أثنى على سلفه وأهل بيته الذين أُلّفَ فيهم كتاب «الروض المنظور في أوصاف بني منظور»⁽³¹⁾. ومما قاله في وصف بلاغته:

فَمِنْ آبِنُ عاصِمٍ أو من ابنِ خطيبها

ومن الرئيسُ فتى بني الجيّابِ

وَمَنْ ابْنُ عَمَّارٍ أَوْ ابْنُ خِصَالِهَا

وَمَنْ الْعِرَاقُ وَمَا الرَّئِيسُ الصَّابِي

ولا تقلّ الرسالة - وهي الوحيدة في الديوان - عن القصيدة من حيث تعداد أوصاف الممدوح وإظهار السرور بولايته، ويستوقفنا فيها قوله: «فلله الحمد على إسداء هذه النعمة العظيمة التي ببركتها إن شاء الله نرجو منه سبحانه رفع هذه الشدة العظيمة النازلة بهذا الوطن الغريب، الأخذة بمخنق البعيد من أهله والقريب، فهي مقدمة للصالح إن شاء الله منتجة، ولنفس الأولياء بإفاضة النعماء مبهجة، ولمحذور غلاء الأسعار وطلب أعداء الله الكفار مزعجة»⁽³²⁾. وفي هذه الفقر ما يدل على الفترة التي أنشئت فيها هذه الرسالة كما أنها تكشف عن مبلغ صلة الشاعر بابن منظور وتعلقه بأذياله. وما حلاّه به من حلى وأضفائه عليه من نعوت في القصيدة والرسالة المذكورتين نجد مثله عند الوادي آشى في ثبته، قال: «ومنهم رضي الله عنهم قاضي الجماعة وخطيب منبري الحضرة ورئيس الكتاب صاحب القلم الأعلى الإمام الأستاذ العلامة الخطيب المصقع المتكلم الراوية المقرئ المدرس العالم العلم الإمام المشاور الكبير الخطير المقدس المرحوم أبو عمرو محمد ابن القاضي العدل الإمام الراوية الحسيب الأصيل المقدس المرحوم أبي بكر محمد بن محمد بن محمد بن عبيد الله بن منظور القيسي المالقي، بيته بيت علم ونباهة وأصالته مشهورة رحمه الله»⁽³³⁾.

ويخبرنا الشاعر في مكان آخر أنه ورد على ابن منظور مرة بمالقة وخاطبه بقصيدة مطلعها (83):

مالي أَسْتَرَّ وجداً غير مستور

وأكتم الحبّ في حلٍّ وتسيير

ولعله قالها فيه لما كان قاضياً بمالقة، ويذكر في قصيدة أخرى أنشأها في هذه المناسبة أيضاً أن الباعث على توجهه إلى مالقة هو مشاهدة هذه المدينة الجميلة وزيارة عالمها الكبير ابن منظور، وقد شكا

من التفريط في إنزاله منزلاً يليق به فقال مخاطباً «فخر القضاة» كما نعته (83 - 84) :

ماذا ترى في واردٍ من بسطةٍ
بلقاءٍ مثلك تنقضي آماله
أضحى بفندق⁽³⁴⁾ ابن سالم نازلاً
مع منزلٍ لا يرتضى إنزاله
وافى يشاهد حسن مالقة التي
رسم الجمال بها انجلى استقلاله
ويزور منكم عالماً شهدت له
بالعلم إعلاناً به أعماله
فلقد سمعنا والعيان محقق
أن ابن منظور يعزُّ مثاله

ويبدو أن هذا الشعر في ابن منظور مما قاله فيه في بداية صلتِه به، وللشاعر قصيدة طويلة يظهر أنه قالها قبل زيارته لمالقة هذه، وهو يذكر أنه أنشأها «جواباً عن كتاب وصل للمرية مستفتحاً بقصيدة طويلة في الروي والعروض» ومطلعها (123 - 126) :

أفيكم على وجدي معينٌ ومنجدٌ
فوجدني بكم دَهري مُغيرٌ ومنجدٌ
وفيهما يخاطب الأحاب بمالقة :
أحبابنا من أهل مالقة التي
محاسنها شتى إذا ما تعدد

ويعبر عن رجائه في زيارة مالقة وسكنائها :
فإننا لنرجو عندكم جمع شملنا
ببلدتكم فهو الشيت المبدد

ونقصدُ منها بالزَّيَّارةَ حضرةً
بزورَتها حَرَّ الضَّلُوعِ نُبْرَدُ

ويقولُ في محاسن هذه المدينة ومآثرها وشهرتها بالتين الذي كان يوسقُ
منها إلى البلدان:

مدينة أعلام كبارٍ أفاضلٍ
بآثارِهِمْ كُتِبَ التَّوَارِيخُ تَشْهَدُ
ومُنِبَتٍ ما قَدْ أَقْسَمَ اللهُ بِاسْمِهِ
وسُورَتُهُ فِي الذِّكْرِ تُتْلَى وتُسْرَدُ

ويسترسلُ في وصف مصانعها وقصورها التي تقيد الأبصار ومحرتها الذي
هو جنة الدنيا ومسجدها الجامع الذي ما مثله مسجد وصلحائها وعلماؤها
وعلى رأسهم أبو عمرو ابن منظور قاضي البلد وإمامه وخطيبه كما يصف دار
الصنعة التي اشتهرت بها، ويمدح ساحلها ومتنزهاتها وطيب هوائها الذي ينفي
الكسل والتبلد، ويشيد بفرسانها وحماها وآثارهم التي دونها التاريخ، ثم يصف
قلعتها وميناءها والفلك الذاهبة والآية، ويختم بذكر تجارها الأجواد ويمدح
منهم صديقاً له اسمه عبد العزيز لعله هو الذي كتب بالقصيدة التي أجابه
عنها بقصيدته هذه، وأجدني مدفوعاً إلى اقتطاف قول البسطي في وصف دار
الصناعة بمالقة:

وحيثُ بها ريحُ الصِّبَا دارُ صنعةٍ
بأكنافها شتَّى المحاسن تُحْشَدُ
بناءً بديع الشكلِ سامٍ إلى السَّما
قواعده بالأرضِ تُبْنَى وتُعَقَّدُ
لحسنِ حنایاهُ بأعلاهُ منظرٌ
يروقُ محياه العيونَ ومشْهَدُ

بِهَا تَمَّ مِنْ مَبْنَاهُ أَعْجَبُ هَيْكَلٍ
 يَشِيرُ إِلَى عِظَمِ الْفَخَارِ وَيُرْشِدُ
 أُعِدَّ لِإِنْشَاءِ الْأَسَاطِيلِ عُدَّةً
 لَهَا حُبْسٌ مِنْهُ عَلَيْهَا مَوْبِدٌ
 لَغَزْوِ الْعِدَى فِي الْبَحْرِ أَحْكَمَ صَنْعَةً
 وَأَبْدَعَ مَبْنَاهُ الْبَدِيعِ الْمَشِيدُ
 وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ قَلْعَتِي مَالِقَةَ:

وَلِلَّهِ فِيهَا قَلْعَتَانِ تَجَلَّتَا
 بِنَاؤُهُمَا رَاقَ الْعَيُونَ مَشِيدُ
 حَكَّتْ شُرُفَاتُ السُّورِ مِنْ قَلْعَتَيْهَا
 تُغَوِّرُ الْغَوَانِي الدَّرُّ فِيهَا مَنْصِدُ
 عَلَتْ مِنْهَا الْأَبْرَاجُ فِي حَالِ قَرَبِهَا
 عُلُوءاً وَقَرَباً مِثْلُهُ لَيْسَ يَعْهَدُ

إن هذه القصيدة في وصف مאלقة تذكرنا بكلام ابن الخطيب والفقير
 عمر المالقي في وصف مאלقة⁽³⁵⁾، ولم يكن هذا الكلام غائباً عن البسطي حين
 نظم هذه القصيدة.

وقد ختم الشاعر قصيدته هذه مفتخراً بنظمه وملحاً إلى قصده في
 سكنى مאלقة إذ يقول لصاحبه إبراهيم التاجر المذكور:

وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا أَنْ أَمْهَدَ حُبَّهُ
 عَسَى غَرْضِي أَلْقَى وَمَا أَنَا أَقْصِدُ

ولكن هذا القصد لم يتحقق وظل الشاعر في بسطة يخاصم أهلها
 ويشكو أحوالها، وهو يخبرنا أنه كتب إلى صديقه عبد العزيز التاجر رسالة
 افتتحها بهذين البيتين (139):

إلى النَّائي بِالقَةِ وقلبي
لَهُ مَثْوًى أَخِي عَبْدَ الْعَزِيزِ
أَجَلَ أَخٍ مَجِيرٍ مَن يُوَاخِي
مَن الْجُلَى وَبِالْحُسْنَى مُجِيرِ
وَمَا قَالَهُ مَرَّةً «مَخَاطَبُ الرَّئِيسِ الْقَاضِي الْمَاجِدِ أَبَا عَمْرٍو بْنِ مَنْظُورٍ فِي
شَأْنِ الْأَحْبَاسِ» (91):

يَا أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْمَأْمُولُ جَانِبُهُ
لَحْفَظِ الْأَحْبَاسِ مِنْ عَادٍ وَمَفْتَرِسِ
اللَّهُ فِيهَا فَقَدْ ضَاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ
وَأَصْبَحَتْ فِي عِدَادِ الْأَرْبَعِ الدَّرَسِ
وَلِلْمَسَاجِدِ يَسْرِي أَمْرٌ ضَيَعَتْهَا
إِنْ حَقَّهَا دُونَ أَحْبَاسِ الْبِلَادِ نُسِي
وَقَدْ أَتَيْتَكَ بِمَا تَلْقَاهُ شَاكِيَةً
مَعَ أَنَّهَا وَصِفْتُ بِالْعِيِّ وَالْخَرَسِ
وَمُشْرِفًا وَشَهِيدَيْنِ انْظُرَنَّ لَهَا
وَنَازِلًا طَاهِرًا الْأَعْرَاضِ مِنْ دَنَسِ
لَا زَالَ جَانِبُ ذَاكَ الْمَجْدِ مَرْتَفَعًا
مَبْلَغَ الْقَصْدِ مِنْهُ كُلُّ مُلْتَمِسِ

وَسَنَعُودُ فِيهَا بَعْدَ إِلَى مَوَاقِفِ شَاعِرِنَا الْفَقِيهِ الْبَسْطِيِّ فِي الدِّفَاعِ عَنِ
الْأَحْبَاسِ وَالشُّكُورِ مِنَ الْإِهْمَالِ الَّذِي أَصَابَهَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمَحْلُولَةِ.

- وَمِنْ أَعْلَامِ الْعَصْرِ الَّذِينَ عَرَفَهُمُ الشَّاعِرُ الْفَقِيهُ وَذَكَرَهُمْ فِي دِيْوَانِهِ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْجَعْدَالِيُّ، وَقَدْ خَاطَبَهُ الشَّاعِرُ مَهْنُتًا بِتَوْلِيهِ الْقَضَاءِ وَالْخُطَابَةِ فِي
الْبَيَازِينِ بِغَرْنَاطَةِ قَالَ (120):

يا سليلَ القضاة من آل جعدٍ
مُتَّهَى العِلْمِ والذِّكَا والنَّجَابَةِ
شرفُ البَيَّازينَ زادَ ظُهوراً
مذٌ وليمُ قَضَاءِها والخطَابَةِ
وستسُمُّو بكِ المراتبُ حتَّى
تنتهي رفعةً لنيلِ الحِجَابَةِ
فهنيئاً بما وَلِيتُم هنيئاً
يشملُ الأهلَ كلَّهم والقَرَابَةِ

ويفهم من هذا أن ربض البيازين - وهو الحي الشعبي في غرناطة - أصبح له قاضيه الخاص به، بل إن هذا الربض انفصل في سنة 891 عن غرناطة «فتعصَّب أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن سعد (الزغل) على أهل البيازين وتعصَّب أهل البيازين مع أميرهم محمد بن علي (بوعبدل) ووقع الحرب والقتال بينهم وصاروا يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً»⁽³⁶⁾، ولا نعرف الموقف الذي كان للفقهاء الجعدالة من هذه الأحداث ولكننا نعرف من فتوى واردة في المعيار أنه كان مع فقهاء الأندلس الذين أفتوا بثبوت بيعة أبي الحسن وبطلان بيعة ولده محمد (بوعبدل)، وقد حل في هذه الفتوى المؤرخة «في أواسط شهر رمضان المعظم عام ثمانية وثمانين وثمانمائة» بالسيد المفتي⁽³⁷⁾.

وثمة قطعة أخرى خاطبه بها الشاعر لما ولي قضاء بسطة، وهي (120):
دُرَّةُ الفضلِ لَدَيْنَا وَبِعَقْدِ المَجْدِ وَسَطُهُ
كُلُّ مُغَرِّى بِهَوَاكُم مِّنْ مُنَاهُ نَالَ قِسْطُهُ
يَوْمَ عُدْتُمْ لِلْقَضَاءِ مَرَّةً أُخْرَى بِبَسْطُهُ

ويلاحظ أن البسطي لم يسمه وإنما مهد للقطعة الأولى بقوله:
«وقلت أيضاً مخاطباً بعض القضاة» وللثانية بقوله: «وقلت أيضاً مخاطباً

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله
مستأخره عنه فعلت الكتاب القدير، التبع أبو جعفر
أخبرنا عن أبي الله تعالى وأبي السيرة واستأخر العلم
كأخبرنا عن الحسن بن داود أمر الله بالمداد والتوفيق
وسأله به أوضح خبر في الأمل، وإجازة والتحدث صحبه
وكتب بحسب الله محمد بن أحمد بن السلي الجعفر المروفي
حامد الله ومصلح علي رسول الله في عالم الأمم

143

- ومن هؤلاء الأعلام الفقيه الشيخ أبو الحسن علي بن داوود الوادي آشي والد صاحب الثبت المعروف⁽⁴²⁾، وفي ديوان شاعرنا قصيدة يدور موضوعها حول موقف إصلاحي لهذا الشيخ، وهي تذكر أنه قدم بلد بسطة في أعقاب فتنة خطيرة نشبت بين أهلها أطال الشاعر في وصف أهوالها وأضرارها فنجح في إعادة الأمن إليها وأفلح في إصلاح ذات البين بين أهلها، وكان له من الفعل الجميل ما حمده له الناس وشكروا صنيعه فيه، ولسنا نعرف هل كان هذا الموقف تطوعاً منه أم أنه قام به بتكليف من السلطان، ويمكن أن يكون هذا الموقف الإصلاحي في أثناء توليه خطة القضاء ببسطة وهذا ما لم يرد في ترجمته، والشاعر الفقيه ينعت الرجل بالعلم والصلاح ويذكر أن آثاره وفضائله سارت مسير الشمس ويقول إنه مفخر وادي آش كما تشير القصيدة إلى أن مقامه في بسطة كان قصيراً، ويبدو - إذا صح ما افترضناه - أنه اعتذر عن قضاء بسطة بعد مدة قصيرة - كما تورّع عن قضاء غرناطة بعد نحو شهر حسبما جاء في ترجمته، ونثبت القصيدة المذكورة فيما يلي نظراً لفائدتها ولكونها مخطوطة (128 - 129):

الحمد لله الذي جعله ذا بركة واسعة له وسعة واسعة
بصره عنى جميع الكتب بحكايا أحمد بن محمد بن عبد الرحمن
البلوي ومعه له وأهله به حامد لله تعالى وبصية على نبي
محمد صلى الله عليه وسلم

خط أبي الحسن البلوي الوادي آشي (مخطوط ثبت الوادي آشي في الأسكوريال).

حَلَّ الْعِلْمَ حَقًّا وَالصَّلَاحَ
 وَأَعْلَى مَنْ تَحَلَّى بِالسَّمَاحِ
 وَمَنْ أَضَحَّتْ لَهُ ذَاتُ تَنَادِي
 بِحُسْنِ الْبَشْرِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
 وَمَنْ سَبَقَ الْأَمَاجِدَ إِذْ تَجَارَوْا
 وَرَامُوا السَّبْقَ بِالْمَجْدِ الصُّرَاخِ
 وَمَنْ آثَرَهُ فِي الْفَضْلِ سَارَتْ
 مَسِيرَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ اللَّيَاحِ
 قَدِمْتُمْ بِسُطَّةٍ وَالْأَمْنُ عَنْهَا
 لَفَتَتْهَا الْعَظِيمَةُ ذُو انْتِزَاحِ
 بِأَفِيدَةٍ لِمَا نَخْشَى مِرَاضِ
 وَنِيَّاتٍ لِمَا نَرْجُو صِحَاحِ
 وَلَيْسَ بِهَا سِوَى ضَرْبٍ وَطَعْنٍ
 بِمَغْهُودِ الصَّوَارِمِ وَالرَّمَاكِ
 وَحَرْبٍ صَغْبَةٍ دَارَتْ رَحَاَهَا
 عَلَى الْأَرْوَاحِ بِالْحَيْنِ الْمُتَاحِ
 وَقَدْ صَمَّتْ بِهَا الْأَذَانُ سَمْعًا
 لِقَقْعَةِ السَّلَاحِ وَالصِّيَاحِ
 وَرَدَّتْ أَعْيُنَ الْبَصَرَاءِ تَعْمَى
 لِسَفْكِ دَمٍ وَمَالٍ مُسْتَبَاحِ
 وَدِينِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ مَا لَا
 خِفَاءَ بِهِ لِذَيْنِ الْحَقِّ مَاحِ
 وَمَا مَنَا سِوَى سَكْرَانٍ هَمٍّ
 وَغَمٍّ، لَيْسَ مِنْ سَكْرِ بِصَاحِ

عليل القلبِ مسلوبِ اصطبارِ
 مريضِ الفكرِ مكسورِ الجناحِ
 فداويْتُم بها العِللَ اللّوآتي
 قد اتضحَتْ بها أيّ اتضاحِ
 ونلْتُم منزلاً في الحالِ فيها
 مقاصدكم وفُرْتُم بالنجاحِ
 وأصلحْتُم فساداً كان أعيأ
 فعادَ بها الفسادُ إلى الصّلاحِ
 وصالحْتُم بها بينَ الأعادي
 فعادوا صالحينَ بلا اصطلاحِ
 وجئْتُم من جميلِ الفعلِ فيها
 بكلِّ مُنيٍّ رَجَوْنَا واقتراحِ
 فشكّرُ صَنِيعِكُمْ فَرَضَ علينا
 كشكْرُ الغَيْثِ مغبرُّ البطاحِ
 ولكنْ ساءَنا عَجَلُ ارتحالِ
 رأينا العذرَ عنه ذا انطراحِ
 ومَغْنَى سَرَّنا بكم مساءً
 أساءَ بينكم عندَ الصّباحِ
 قصدناه بأفئدةٍ إليكم
 على طولِ النوى ذاتِ ارتياحِ
 فألفيناهُ مهجوراً خلاءً
 لفُرقةٍ تلکم الغررِ الملاحِ
 فَعُدْنَا مِنْهُ والأحشاءَ جَمْرُ
 ودمعُ العينِ هامٍ ذو انسياحِ

أبا الحسنِ بْنَ داوودَ علياً
وحيدَ زمانه الحَسَنَ المَنَاحي
ومفخرَ وادياشَ على سواها
بنشر العلمِ من شَتَى النّواحي
إليك بعثتُ من نظمي بعقد
لجيد جلالِكَ العَالي مُباحٍ
عقودَ الدرِّ يفضّح حين يُجلى
بترتيب وألفاظٍ فصاحٍ
فخذهُ كما اقتضاهُ الحبُّ واسمَحْ
فأنتم قد عُرِفتم بالسّماحِ
فمثلي ما عليه في نظامٍ
نُميتُ به إليكم من جُناحٍ
بقيتَ كما تحبّ قريراً عِينِ
وبالمأمولِ صدركَ ذو انشراحِ

ومن هذه القصيدة تبدو مكانة الرجل الذي كان من أعيان الأندلس في هذه الفترة، ويؤكد ذلك أنه كان ثالث الخمسة عشر الذين أفتوا بتأكيدبيعة السلطان أبي الحسن النصري وعدم شرعيةبيعة ابنه أبي عبد الله⁽⁴³⁾.
- ومن فضلاء عصره من أهل المرية الفقيه أبو جعفر أحمد بن القصار، وقد رأينا مما سلف أنه كان ذات مرة في المرية فلعله عرف هذا الشيخ بها، وهو يخبرنا أنه كتب إليه رسالة وخاطبه في صدرها بأبياتٍ مستعيراً منه كتاب تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ومورياً بكلمة القصار (67):

يا سيداً مقداره ما مثله
من بين أقدارِ الورى مقدارُ
ومعظماً عكفتُ على تعظيمه
لجلاله وجماله الأبصارُ

ثوب من اللّغة التي أحْتَاجُها
 عندي لنَقْصِ كماله استقْرارُ
 وعلَيْكُمْ تكميلُهُ بصِحاكُم
 نقْصُ الثياب يُزيله القَصَّارُ
 فتَفَضَّلوا مِنْهُ علي بنِعمَةٍ
 تُسْري لَكُمْ بثنائِها أشعارُ

وعددت هذا الشيخ من أهل المرية لأنني وجدت القلصادي يذكره في رحلته عند الحديث عن وصوله للمرية عائداً من الحج عام 855هـ ويقول: «ووجدت بها (أي بالمرية) أكثر أصحابنا كالشيخ بركة الوقت الفقيه الإمام العلامة المقرئ المدرّس الخطيب سيدي ومحل ودي واعتقادي أبو جعفر أحمد بن القصار حفظه الله»⁽⁴⁴⁾. وجعله أحمد بابا غرناطياً ونقل كلاماً لابن الأزرق الفقيه في التعريف به⁽⁴⁵⁾ وقد وقفت على ذكر لمحمد بن أحمد القصار من عدول بسطة في سنة 890هـ (وثائق غرناطية: 92) ولعله ولد المذكور.

- ونجد في الديوان بيتين يهنيء بهما القاضي الشريف وقد صدر بهما رسالة إلى المذكور وهما (134):

يقلُّ بشارَةً لسرورِ نَفْسي
 تليدُ المالِ عِنْدِي والطَّرِيفُ
 غداةً أتى البشيرُ يقولُ جَهراً
 أُعيدَ إلى القضا القاضي الشَّريفُ

وفي مجموع «وثائق غرناطية»⁽⁴⁶⁾ رسوم يعلم بشيوته وهي مؤرخة بعام 856هـ وعام 858هـ ومن هذا نعرف تاريخ هذه التهئة، وقد اجتمع به الرحالة المصري عبد الباسط في مالقة سنة 870هـ وقال إنه كان قاضي الجماعة بغرناطة⁽⁴⁷⁾.

كما عده البلوي الوادي آشي في شيوخ والده (الثبت: 189 - 191).

- وفي الديوان أيضاً بيتان يورّي فيهما باسم الفقيه أي الحسن علي بن عتيق وهما (152):

شُغِفْتُ بِهِ عَزّاً عَتِيقاً جَوَادُهُ
يسابقُ بالميدانِ كلَّ فريقٍ
عجبتُ له يُعْزَى له السبقُ في المَدَى
ولا عجبُ أن يسبقَ ابنُ عتيق

وقد وُصِفَ هذا الشيخ في ثبوت الوادي آشي بأنه «الإمام الخطيب المقرئ العلامة أبو الحسن علي بن عتيق بن العز»⁽⁴⁸⁾ وذكر أنه كان عمدة في القراءات.

- ومن قضاة العصر الذي خاطبهم الشاعر بشعره القاضي ابن أبي البقاء، والبسطي يشكو من مبلغ قليل من المال وجهه القاضي إليه مع أحد أعوانه، فأخذ العون بعضه، ووجد الشاعر فيما وصل إليه نقداً زائفاً، كما يشير إلى إثارة القاضي أحد منافسي الشاعر وتخصيصه بالخطأ الأوفر من العطاء (79):

أجوراً ومن تلقائكم يُطلبُ العدلُ
ويلتمسُ الإحسانُ والجودُ والفضلُ
وظُلماً وحاشا مجدكم أن يجركم
إليه جهولٌ لم يزل طبعه الجهلُ
بذلتم فأكثرتم له عندَ بذلكم
وصيتُ الفتى في الناسِ ينشره البذلُ
وأعليتم مقدارَه بفَعَالكم
وواللهِ لولا أنتم لم يكن يغلو
وخلفتموني يا أولي الفضلِ والندى
وحظي كما تدرّون من بَذلكم قُلُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ لَدَى الْحُبْرِ زَائِفٌ
 لَكَانَ لَهُ مِنْ مَهْجَتِي جَانِبٌ سَهْلٌ
 وَلِي تَهْمَةٌ لِلْعَوْنِ فِي اخْذِ بَعْضِهِ
 وَتَغْرِيئُهُ مَا إِنَّ لَهُ غَيْرُكُمْ أَهْلُ
 وَمَا حُظَّهُ إِلَّا يَسِرُّ لِمُنْصِيفٍ
 وَفِي خُلَّةِ الْإِنْصَافِ لَيْسَ لَكُمْ مِثْلُ

ولم نقف على ترجمة ابن أبي البقاء هذا الذي ربما كان قاضياً في بسطة،
 ولعله من ولد القاضي أبي البقاء خالد البلوي .

- ومن هؤلاء القضاة الذين ذكرهم ولم نجد لهم خبراً فيما رجعنا إليه
 من المصادر الكاتب القاضي أبو عبد الله محمد بن معن⁽⁴⁹⁾، وقد مدحه
 الشاعر بقصيدة مطلعها (97):

يَا عَلَمَ الْوَقْتِ فِي الْقُضَاةِ
 عِلْماً وَدِيناً وَفَضْلاً ذَاتِ

ونرى الشاعر في آخر هذه القصيدة يقدم طعماً إلى هذا القاضي المعين
 ببسطة في الغالب مثلما صنع مع القاضي أبي عبد الله محمد مالك، وهو
 يستعديه على خصومه من العدول على ما يظهر ويطلب حمايته، قال (98):

خَذْ سَيِّدِي النَّزَرَ مِنْ طَعَامِي
 صُحْبَةً نَظْمِي إِلَيْكَ يَاقِي
 فَقَدْرُكَ الْفَخْمُ لَيْسَ يُلْفِي

مِثْلِي هُنَا مَالُهُ يَوَاتِي
 وَلَوْ وَهَبْتُ الْغَدَاةَ نَفْسِي

قَلَّتْ لَكَ النَّفْسُ فِي الْهَبَاتِ
 فَاقْبَلْهُ مِنِّي قَبُولَ فَضْلٍ
 رَغْماً عَلَى الْأَنْفِ مِنْ عِدَاتِي

واصدّع صفاة الجميع منهم
 بفعلك^(٩) صدّعهم صفاتي
 وكن لراجيك خير حام
 فأنت من أفضل الحماة
 ولتلقهم مقدما معدّا
 بالترس والسيف والقناة

- ومن فضلاء بلده بسطة أبو بكر ابن لبوة وقد أجابه الشاعر على قصيدة تلقاها منه بقصيدة طويلة مطلعها (115 - 118):

جَلْتُ بَعْدَ حَجَبٍ حُسْنَهَا لِلنَّوَظِرِ
 فَأَصْبَحَ مَشْغُوفًا بِهَا كُلُّ نَاطِرٍ

وبعد أبيات في وصف القصيدة يقول:
 أَتَتْ مِنْ وَحِيدِ الْعَصْرِ نَجْلَ ابْنِ لَبْوَةٍ
 أَبِي بَكْرٍ الْأَرْضَى سَلِيلِ الْأَكَابِرِ
 ثم يمدح شعره وكتابته ويذكر أنه من بيت علم ويصف طريقته في الوعظ والتذكير فيقول:

ووعظ وتذكير إذا ما جَلَّاهُما
 فليس سوى هامٍ من الدمعِ هامر
 لعمري لقد أحيا بما اختارَ مِنْهَا
 لِإِلْقَائِهِ لِلخَلْقِ مَوْقِ الْخَوَاطِرِ
 فكم مذنّبٍ مما جنى متوجعٍ
 لتأثير ما يأتي به مِنْ زَوَاجِرِ
 وكم باذلٍ في طاعة الله جهده
 يروح ويغدو بين تالٍ وذاكِرِ

تَلَطَّفَ فِي اسْتِعْطَافِهِمْ دُونَ هَدْيِهِمْ
 بِنَاءٍ مِنَ الْوَعْظِ الْبَلِيغِ وَزَاجِرِ
 وَقَصْدِ جَمِيلٍ لَا خِفَاءَ بِحُسْنِهِ
 وَصَدَقَ رَجَاءٌ فِي صَفَاءِ السَّرَائِرِ
 إِذَا الْمَرْءُ فِي تَذْكَارِهِ كَانَ صَادِقًا
 تَأَثَّرَ إِعْجَابًا بِهِ كُلُّ حَاضِرٍ
 وَلَعَلَّ صَاحِبَهُ أَبَا بَكْرٍ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ الْوَارِدَيْنِ بَعْدَ
 الْقَصِيدَةِ الْمَذْكُورَةِ (118):

سَحَرَتْ أَبَا بَكْرٍ حَبِيبِي مَهْجَتِي
 بِنُوعِ مِنَ الشَّعْرِ الشَّرِيفِ غَرِيبِ
 فَأَصْبَحْتُ أُرْوِي عَنْكَ مِنْهُ قِصَائِدًا
 هِيَ السَّحَرُ لَكِنْ مِنْ نِظَامِ حَبِيبِ
 وَإِنَّمَا اعْتَبَرْتُ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ بَسْطَةٍ لِأَنِّي وَقَفْتُ فِي «وَنَائِقِ غِرْنَاتِيَّةٍ»
 عَلَى رَسْمٍ يَشِيرُ إِلَى دَارِ ابْنِ لَبُوءَ بِالرَّحْبَةِ مِنْ دَاخِلِ بَسْطَةٍ، وَالرَّسْمُ مَكْتُوبٌ فِي
 الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ لَشُعْبَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَثَمَانِ مِائَةٍ (80).
 - وَثَمَّةُ أَعْلَامٍ ذَكَرَهُمْ وَلَمْ نَقِفْ عَلَى تَرَاجُمِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِهِمْ فِي
 الْمَصَادِرِ الْمَوْجُودَةِ، وَمِنْهُمْ قَاضِي بَسْطَةِ ابْنِ الْأَحْوَلِ الضَّبِّيُّ الَّذِي هَجَاهُ الشَّاعِرُ
 كَثِيرًا، وَابْنُ مَفْضُلٍ قَاضِي بَسْطَةٍ، وَقَدْ انْتَقَدَهُ الشَّاعِرُ ثُمَّ رَثَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ،
 وَسَنَعَرُضُ لِهَذَا الشَّعْرِ فِي فِصْلِ قَادِمٍ، وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ بْنُ الْقَاضِي الَّذِي يَقُولُ فِيهِ
 (81)

لِلْفَضْلِ أَقْوَامٌ أَقَامُوا رَسْمَهُ
 مِنْهُمْ حَقِيقًا أَحْمَدُ بْنُ الْقَاضِي
 لَكِنَّهُ عِنْدِي الْمُقَدَّمُ وَحْدَهُ
 فِي ذَا الزَّمَانِ وَفِي الزَّمَانِ الْمَاضِي

وقد يكون أحمد بن القاضي المذكور هو الذي تحدث عنه أحمد بابا في نيل الابتهاج بقوله (159): «وتوفى أخوه الفقيه الحاج الخطيب الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي هو سنة سبع وستين وثمانمائة» أو لعله القاضي الشريف أبو العباس أحمد الذي تقدّم ذكره.

- وأبو الحسن الرندي الذي يذكره مستعملاً الجناس في هذين البيتين (80):

إذا ما قَضِيبُ البانِ مالتَ به الصُّبَا
وأفْصَحَ طَيْرُ الأَنْسِ في غُصْنِ الرُّندِ
يُبَيِّجُنِي شَوْقِي وَيَجْذِبُنِي الهَوَى
إلى الطَّالِبِ الأَزْكَى أبي الحسَنِ الرُّندِي

والشاعر الفقيه يستعمل كلمة الطَّالِب وهي في استعمال الأندلسيين المتأخرين والمغاربة مرادفة لكلمة الفقيه.

ويقول في شخص آخر يدعى ابن الأمين الشطني (80):

إيَّاكَ أنْ تَجْهَلَ يا مصاحِبِي
قدَرَ الفقيهِ ابنِ الأمينِ الشَّطْنِي
فإنَّني واللَّهِ أرجوهُ بأن
يكونَ أستاذاً لهذا الوطنِ

ويبدو أن المذكور منسوب إلى حصن الشطنين، وفي نبذة العصر ذكر سقوطه وخروجه من يد المسلمين سنة 879هـ⁽⁸¹⁾.

وكذلك الإخوة بنو أيوب من برشانة الذين زارهم الشاعر أو كتب إليهم قصيدته التي مطلعها: (131 - 132):

لِلَّهِ مِنْ برشانةِ بلدُ
بالحسنِ في البُلدانِ منفردُ

وبعد أن امتدح طبيعتها الجميلة قال متخلصاً إلى مدح أصحابها بني
أيوب:

وهوى الديار من أجل ساكنها
لا يُمْتَرِي في شأنه أحد
لا سيما إن كان مثل بني
أيوب في الفضل الذي اعتمدوا
فهم ثلاثة إخوة وُصفوا
بمناقب ما إن لها عدد
فخطيئهم والقاضي ما لهما
كوزيرهم نِدُّ إذا انتقدوا
هذا مواعظه بلاغتها
عنها استبان الغيُّ والرشد
ولذا إذا أحكامه اتضحت
عدل به الحكماء ما عهدوا
ومحل هذا من كفايته
من دونه الميزان والأسد
وَرَدُوا مواردَ مجدهم نَسَقاً
فرووا من المجد الذي وردوا

وفي هذا شبه تعريف بهؤلاء الإخوة الأعلام الذين كان أحدهم وزيراً
والثاني قاضياً والثالث خطيباً إلا أن الشاعر لم يذكر أسماءهم. ولم أقف على
شيء يتصل بهم.

- كما ذكر أخوين من أهل المعرفة يدعيان بابني القفال أحدهما أبو علي
حسن بن القفال والثاني أخوه حسين، وقد اشتهرا في وقتها بحسن الخط،

ولأبي علي منها مؤلفٌ في الأمثال العامية، وهذا ما استفدناه من قول
البسطي (81):

إِنَّ ابْنِي الْقَفَالَ فِي عَصْرِنَا
كَلاهُمَا فِي خَطِّهِ مُحْسِنٌ
لَكِنْ حَسِينٌ مِنْهَا خَطُّهُ
أَشْكَالُهُ فِي وَضْعِهَا أَحْسَنُ

وقوله وقد كتبه على ظهر الأمثال العامية لأبي علي القفال (106):

لِلَّهِ دَرٌّ عَلِيَّ إِنَّهُ
فِي أَنْسِهِ أَذْكَى بَنِي الْقَفَالَ
وَلَهُ انْتَهَى الظَرْفُ الَّذِي مَا مِثْلُهُ
فِي ذَا الزَّمَانِ وَلَا الزَّمَانِ الْخَالِي
دَلَّتْ عَلَيْهِ دَلَائِلٌ لَا تُخْتَفَى
مِنْهَا الْمَجِيءُ بِهِذِهِ الْأَمْثَالِ
فَلَقَدْ أَتَى مِنْهَا بِمَا رَاقَ النِّهَى
وَقَضَى لَهُ فِي النَّاسِ بِالْإِجْلَالِ
حِفْظَ الْإِلَهِ مِنَ الْمَكَارِهِ ذَاتَهُ
وَحِبَاهُ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ

وإن هذا الوصف أو التقريظ لكتاب الأمثال الأندلسية هذا يجعلنا
نتطلع إلى ظهوره ونرجو عدم فقدانه إذ لا شك أنه يضيف - لو وجد - ثروة
في تراث الأمثال الأندلسية التي دوتها الزجالي القرطبي وابن عاصم الغرناطي.
- وكما مدح البسطي ابن القفال بحسن الخط فقد مدح خطاطاً آخر
اسمه عبد الملك وعبر عن إعجابه بخطه في قصيدة أولها (66):

هَكَذَا يُعْتَنَى بِكُتُبِ الْعُلُومِ
فِي حَدِيثِ الزَّمَانِ أَوْ فِي الْقَدِيمِ

وَتَحْلَى الْمَهَارِقُ الْبَيْضُ مِنْهَا
بِحُلَى خَطِّ فَاقٍ وَشَيِّ رَقِيمٍ

وهو يصف جمال هذا الخط وينعت صاحبه بالإجادة والاختراع ثم
يسميه قائلاً:

مَا كَعْبِدِ الْمَلِكِ كَاتِبُ خَطِّ
بَارِعِ النَّوعِ فِي الْخُطُوطِ قَدِيمِ
فَاقٍ خَطِّ ابْنِ مُقْلَةٍ وَابْنِ بَاقٍ
وَابْنِ جَبْرِ عِنْدَ أَهْلِ الْفُهْمِ
مَا تَبَدَّى لِنَاضِرِ الْعَيْنِ حَرْفٌ
مِنْهُ إِلَّا دَعَا لَهُ بِالنَّعِيمِ

ويقول إنه نسخ الكثير من المصاحف والكتب بخطه:

كَمْ كِتَابٍ وَمُصْحَفٍ كَفَّهُ خَطُّهُ
لَهُ تَبْغِي رِضَى الْإِلَهِ الْعَظِيمِ

ويشير الشاعر إلى نسخة بخط المذكور من رسالة ابن أبي زيد
القيرواني لعلها كانت في حوزته، ولا نعرف الآن شيئاً عن هذا الخطاط،
وربما ضاع ما خطه يمينه في تلك الأيام العصيبة. أما ابن باق وابن جبير
فلعلهما من الخطاطين الأندلسيين.

- وثمة في الديوان شخص يدعى أبا الرضى وقد مدحه بالكرم مرتين،
وذلك في قوله (78):

لَأَبِي الرِّضَى فِي الْفَضْلِ فَضْلٌ ظَاهِرٌ
مَا نَالَهُ الْجَمُّ الْفَضَائِلِ حَاتِمٌ
خَتَمَ الْإِلَآءُ بِفَضْلِهِ فِي عَصْرِنَا
أَهْلَ الْفَضَائِلِ فَهُوَ فِيهِ الْخَاتَمِ

وقوله: (79):

ضَرَبُوا بِحَاتِمٍ طِيءٍ أَمْثَلَهُمْ
فِي الْجُودِ لَمَّا فَاقَ فِيهِ مَنْ مَضَى
تَاللَّهِ لَوْ بَلَغُوا إِلَى أَزْمَانِنَا
لَمْ يَضْرِبُوا مَثَلًا بَغَيْرِ أَبِي الرُّضَى

ويبدو أن الشاعر يمدح في القولين «القائد أبا للرضى بن دعمون» من قواد غرناطة في هذه الحقبه، وقد ورد ذكر ابنته «المصونة فاطمة بنت القائد أبي الرضى بن دعمون» في رسم بيع مؤرخ في ربيع الأول عام تسعمائة. (وثائق عربية غرناطية: 141).

وله قصيدة ذكر أنها قالها معرضاً يخاطب فيها شاعراً من أهل بسطة اسمه مفضل، وهو يقول في أولها (47):

مَا زِلْتُ تَحْرُزُ خَصْلَ السَّبْقِ فِي الْأَدَبِ
حَتَّى أَتَيْتَ مِنَ الْإِحْسَانِ بِالْعَجَبِ
فَكَلَّنَا أَظْهَرَ التَّسْلِيمِ مُعْتَرِفاً
بِالْعَجْزِ عَنْ نِيلٍ مَا قَدْ نِلْتَ مِنْ رُتَبٍ

وبعد أن يمدح في الظاهر شعره ونثره وعنايته بالبديع ويذكر تصدير الناس له وتفضيلهم إياه يقول:

فَدُمُ لِبَسْطَةِ تَكْسُوها بِدَائِعُكُمْ
مَنْ الْمَفَاخِرِ مَا يَبْقَى عَلَى الْحِقْبِ

ويختم القصيدة بهذا البيت:

قَلْنَا مَفْضَلُ أَعْلَى الْخَلْقِ مَنْزِلَةً
وَعُلُوهُ وَاضِحٌ مِنْ حُرْفَةِ الْأَدَبِ

وهذا كله لا يحمل على المدح لأن الشاعر قصد فيه إلى التعريض بهذا الشاعر الذي أصابته حرفة الأدب.

وقد وقف شاعرنا الفقيه «على بيتين من نظم شاعر إليه انتهى فيما استفاض التخرّج» فقال:

وَلَمَّا بَدَأَ لِي مِنْهُمَا مَا رَأَيْتُهُ
مِنَ الضَّعْفِ [.....]
سَأَلْتُ خَلِيلِي مَا الْجَزَاءُ عَلَيْهِمَا
فَقَالَ الْجَزَاءُ صَفْعُ الْقَفَا أَوْ يَذْبَحُ
وَيَبْدُو أَنَّهَا فِي مَفْضَلِ الْمَذْكُورِ.

- ومن فقهاء العصر الذين كاتبهم الشاعر وكاتبوه أبو عبد الله التلمساني والشاعر يصفه بوحيد العصر وأنه يزري في الفروع بأحمد وفي الشعر بحسان وأنه أحرز في السياسة ما لم يحرزهُ بنو ساسان، وكل هذا مما جلبته قافية النون، ويقول (64 - 65):

فَأَصْبَحْتَ فَرْدًا لَا يُرَى لَكَ مِثْبَةٌ
بَأَنْدَلَسٍ حَتَّى لَا تُقْصَى خُرَاسَانِ
فَإِنْ قِيلَ مِنْ هَذَا الَّذِي بَانَ فَضْلُهُ
أَقُولُ أَبُو عَبْدِ الْإِلَهِ التَّلْمَسَانِي
سَلِيلُ الْقَضَاةِ الْمَطْغَرِيِّينَ رَفْعَةً
فَذَعْ ذَكَرَ لَحْمٍ أَوْ جَذَامٍ وَغَسَّانِ
حَفِظْتُ لَهُ وَدًّا تَقَادَمَ عَهْدُهُ
تَرَى أَحْفَظُ الْوَدَّ الْقَدِيمَ وَيَنْسَانِي
وَأَكْسُوهُ ثَوْبَ الْمَدْحِ مَا عَشْتُ ضَافِيًّا
كَمَا أَنَّهُ ثَوْبُ الْمَدَائِحِ أَكْسَانِي

ولا نعرف على وجه التحقيق من هو هذا العالم التلمساني، فقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني الكفيف (824 - 901هـ). وقد أطلال الوادي آشي صاحب الثبت في ترجمته، وقد يكون أبا عبد الله ابن مرزوق الحفيد (766 - 842هـ) الذي أخذ عنه القلصادي معاصر الشاعر وترجم له في رحلته (96 - 98). وقد يكون أحد هؤلاء الشرفاء الحسنين التلمسانيين الذين منهم القاضي الشريف المتقدم.

وكلمة المطغرين الواردة في الأبيات نسبة إلى مطغرة تلمسان .
- ونشير كذلك إلى أحد أصحابه محمد اللحياني الذي ارتحل في رثائه عندما بلغه موته هذه القطعة:

صَبْرِي لَمَوْتِ مُحَمَّدِ اللَّحْيَانِي
مَتَعَذِرْ إِذْرَاكُهُ أَغْيَانِي
قَدْ خَانَنِي جَلْدِي وَأَسْلَمَنِي الْعَزَا
لِعَظِيمِ مَا أُلْقَى مِنَ الْأَشْجَانِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ يَوْمِ وَفَاتِهِ
دَمْعِي يَصُوبُ دَمًا مِنَ الْأَجْفَانِ
حَتَّى نَعَى النَّاعِي بِصَحَّةِ مَوْتِهِ
فَجَرَى بِصَفْحِ الْخَدِّ كَالْعِقْيَانِ

- ولا ننسى في الأخير الإشارة إلى من سَمَّاهُ بالقائد الفنشي وقد عبر عن إعجابه بجماله وأدبه في قصيدة أولها:

رَعَى اللَّهُ - مَا دَارَ الزَّمَانُ - عَشِيَّةً
تَحَلَّتْ بِمِرْأَى وَجْهِ قَائِدِنَا الْفَنَشِيِّ
وَأَخْرَهَا:

سَمِعْتُ بِهِ يَوْمًا فَلَمَّا رَأَيْتُهُ
رَأَيْتُ مَحِيَّا الشَّمْسَ بَيْنَ الْوَرَى يَمْشِي

وبعد فهؤلاء هم الأعلام الذين وجدنا لهم ذكراً في ديوان الشاعر، وقد بذلنا ما في وسعنا من أجل معرفتهم ومعرفة شاعرنا من خلالهم.

ولعلنا نستغرب في الأخير عدم تسميته أو إشارته إلى بعض الأعلام البسطيين وغيرهم ممن ذكروا في رحلة القلصادي وبرنامج المجاري وبرنامج المنتوري وثبت الوادي آشي، كما نستغرب سكوت هذه المصادر عن ذكر صاحبنا.

الحواشي

(1) على هذه المصادر اعتمد كل من الفقيه لويس سيكودي لوئينا في كتابه: محمد IX سلطان غرناطة ص.ص. 56، 58، 135، 137، 145، 158، 183، 185، 188، 189، 206، 214، 222، 224، 225. وكذلك الدكتورة راشيل أربي في أطروحتها: اسبانيا المسلمة في عصر النصرين ص.ص. 132، 142. وللقيه لويس سيكو مقالة حول أسرتي ابن عبد البر وابن كماشة.

(2) نيل الابتهاج: 313.

(3) المصدر نفسه.

(4) ديوان البسطي: 31-32. والقصيدة مؤلفة من تسعة عشر بيتاً بعدد أوائل الاسم المذكور، ومن أشهر نماذج هذا الضرب من الشعر أبيات المعتمد في اسم اعتماد الرميكية، انظر الحلة السراء 2: 41 تحقيق د. حسين مؤنس.

(5) مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر، السفر الثاني مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 23جـ.

(6) انظر ديوانه ومقدمته للأستاذ عبد الله كنون.

(7) انظر المعيار المغرب 11: 149.

(م) وقعت على قصيدة في الشكوى مما ذكر تنسب لأبي محمد الأشبيلي أثبتتها فيما يلي:

فإن لسان الحال عني يُترجمُ
وسكنى البوادي لا يحل ويحرمُ
وفي باطني أمرٌ به الله يعلمُ
كهوفٌ وأشعافٌ وبيتٌ مرقومُ
وإن تختبرهم ليس في القوم مُنيلُ
يُلامُ ويُجلى في البلادِ ويشتُمُ
لفرعون كفرٌ كفرهم منه أقدمُ
فلا عالمٌ منهم ولا متعلمُ
ومكسبهم أكل حرامٍ ومغنمُ

أعبر عما كنت في الرسم أكتُمُ
بدوً وقدماً كنت أعرفُ حاضراً
تكلفتُ سكتها وكان ضرورة
ثوبت بها ما بين قومٍ بيوتهمُ
خفاة عسرة لا يحل جوارهمُ
حقيق على من كان مثواه بينهمُ
خيارهم الأشرار منهم فإن يكنُ
ذلك عليهم خيب الله سعيهم
ذئاب كلاب في ثياب ثعالب

يَرَوْضُهُمْ سَوْطٌ وَسَجَنٌ وَمَغْرَمٌ
وإن قلتَ كَفَّارٌ فَقَوْلُكَ أَقْسَمُ
فَقُلْ إِمَامٌ مِنْهُمْ الْيَوْمَ يَلْعَنُ
إِذَا مَا دُعُوا لِلْخَيْرِ عَنْ قَضِيهِ عَمُوا
صَبِيٌّ بَزَنَارٍ وَشَيْخٌ مَقْدَمٌ
وَيُعْجِبُهُمْ مِنْهَا الَّذِي يَتَهَدَّمُ
وَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ يَجُورُ وَيَظْلِمُ
فَمَهْمَا رَأَوْا أَهْلَ الصَّلِيبِ تَبَسَّمُوا
دَجَاجٌ وَيَبْضُ وَالْمَدَامُ الْمُحَرَّمُ
بِأَمْرِ النِّسَاءِ الْعَاطِرَاتِ تَهْمُ
عَلَى أَتْنِي مِنْهُمْ لَثِيمٌ وَأَشَامُ
وإن جَاءَ زَقَانٌ يُعَزِّرُ وَيُكْرِمُ
رُكُوبُ الْمُنَاهِي فَهِيَ إِنْهُمْ وَمِائِمُ
فَهُمْ فِي ضَلَالٍ غَافِلُونَ وَنَوْمُ
وَفِي أَجْرَةِ الشَّرَاطِ يَغْمُوا وَيَصْمُمُوا
وَمَا خُلِقْتُ إِلَّا إِلَيْهِمْ جَهَنَّمُ
وَأكْبَرُهُمْ سَنَاءُ مَسِيٍّ وَمُجْرِمُ
فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا جَنَوْهُ: وَأُجْرِمُوا
وَلَكِنَّ رَبَّ الْعَرْشِ يَعْفُو وَيَرْحَمُ
خَطَابُ صَحِيحٌ وَالْمَوْفُقُ يَفْهَمُ

رِيَاضَتُهُمْ لَا تَسْتَطَاعُ وَإِنَّمَا
زِنَادَقَةٌ فِي طَبْعِهِمْ وَبِهَائِمُ
ظَنَنْتُ بِهِمْ ظَنًّا وَجَدْتُ خِلَافَهُ
كُتَالِي عَنِ التَّوْفِيقِ صُمٌّ عَنِ الْهُدَى
لِبَاسُهُمُ الزَّنَارُ وَالسُّخْتُ أَكْلُهُمْ
مَسَاجِدَهُمْ لَمْ يَعْمُرُوا بِصَلَاتِهِمْ
نَسُوا اللَّهَ بِالذُّنُوبِ فَأَعْمَى قُلُوبَهُمْ
صَغَتْ لِنَوَاقِيسِ النَّصَارَى عُقُولُهُمْ
ضَيَاقَتُهُمْ مَعْلُومَةٌ لِقُدُومِهِمْ⁽¹⁾
عَوَائِدُهُمْ تَرَكَ الصَّلَاةَ وَعِنْدَهُمْ
غَلَبَتْ عَلَى طَوْلِ الْمَقَامِ بَارِضُهُمْ
فَقَبِيهِتُهُمْ لَا يَغْبَاوْنَ بِأَمْرِهِ
قَرِينُهُمُ الشَّيْطَانُ حَرَضَهُمْ عَلَى
سَبِيلِ الْهُدَى وَالرُّشْدِ لَا يَسْلُكُونَهُ
شُيُوخُ الْقُرَى لَا يَنْصِفُونَ إِمَامَهُمْ
هَمُّ الظَّالِمُونَ الْهَالِكُونَ نَفْسُهُمْ
وَقَارُفُهُمْ غَدَرٌ وَوَدُهُمْ قِلَى
لِأَنْفُسِهِمْ لَا يَمْلِكُونَ شِفَاعَةً
يَقِينًا لَقَدْ حَقَّ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ
فَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَثَمَةِ فِي الْقُرَى

(خ. ع. ر. رقم 1725د) وأغلب ظني أنها قصيدة الأليري التي أشار إليها البسطي.

(3) كذا في الأصل.

(4) في الأصل: فالقرى.

(8) نبيل الابتهاج: 291 وانظر شرح التحفة لابن عاصم مخطوط.

(9) رحلة القلصادي: 162.

(10) اعتمدنا في كتابة هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور المنشور في مجلة الأندلس

لسنة 1963 ص. ص. 332 - 333 وانظر أطروحة السيدة راشيل أرييه ص 138 وكتاب محمد

IX للفقيد لويس سيكودي لوثينا، (الحاشية رقم 3 والحاشية رقم 192). ومقالته عن عائلة

محمد X الأحنف ملك غرناطة المنشورة في مجلة الأندلس سنة 1946.

(11) انظر نص الرسالة في كتاب المماليك والفرنج للدكتور أحمد دراج ص 181 وما بعدها نقلاً

عن مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 4440.

(12) اعتمدنا في هذه الفقرة على بحث الأستاذ هارولد ليفرمور السابق.

(13) الاستقصاء ج 7، ص 7، وما بعدها والدرر البهية: 84 - 100، ونزهة الحادي: 241 ط.

فاس.

(14) نزهة الحادي: 241 وما بعدها.

- (15) انظر ذيل رواية آخر بني سراج لشكيب أرسلان: 262، 271، 273، 277، 279، 283.
- (16) نفح الطيب 4: 521 تحقيق د. إحسان عباس.
- (17) انظر نفح الطيب 6: 152.
- (18) روضة الأعلام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) ونفح الطيب 2: 701 تحقيق الدكتور إحسان عباس.
- (19) رحلة القلصادي: 93 ونفح الطيب 6: 447.
- (20) رحلة القلصادي: 94 ونفح الطيب 6: 447.
- (21) مجلة العربي الكويتية. العدد 107.
- (22) انظرها في نفح الطيب 6: 151 - 153.
- (23) نفح الطيب 6: 152.
- (24) نفح الطيب 2: 701.
- (25) نيل الابتهاج: 323 وانظر ترجمة ابن منظور هذا كذلك في ثبت الوادي آشي: 204 - 505، 215 - 216 وبعض فتاويه في المعيار.
- (26) وثائق عربية غرناطية: 34 - 31.
- (27) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 314.
- (28) نيل الابتهاج: 312 وابن جماعة الغرناطي غير القاضي بدر الدين ابن جماعة المصري.
- (29) نبذة العصر: 378 ذيل آخر بني سراج.
- (30) ثبت الوادي آشي: 216.
- (31) المرقبة العليا: 154.
- (32) ديوان البسطي: 87.
- (33) ثبت الوادي آشي: 216.
- (43) في الأصل: فندق، وهو تحريف.
- (35) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب.
- (36) نبذة العصر: 386 (ذيل رواية آخر بني سراج) ونفح الطيب 4: 517 وما بعدها.
- (37) المعيار المغرب 11: 149.
- (38) وثائق عربية غرناطية 99.
- وذكر لويس سيكو في المقدمة أنه من قضاة العصر الذين لم يرد ذكرهم في معاجم الرجال (ص12م) مع أنه مترجم في الثبت والنيل، وانظر بعض فتاوى الجعدالة في المعيار 5: 35، 36، 37.
- (39) ثبت الوادي آشي: 196.
- (40) المصدر نفسه: 207.
- (41) المصدر نفسه: 206 وانظر نيل الابتهاج: 325.
- (42) انظر التعريف به ومصادر ترجمته في مقدمة ثبت ولده الذي حققه زميلنا الدكتور عبد الله العمراني.
- (43) المعيار المغرب 11: 149 نشر وزارة الأوقاف المغربية. وقد وقفت بعد أن انتهيت من تحرير

- هذا على بحث قيم لصديقي ضون فرناندو دي لكرانخا في الأندلس (1971) درس فيه هذه الفتوى وعرف بأعلامها.
- (44) رحلة القلصادي: 161 - 162.
- (45) نيل الابتهاج: 76.
- (46) وثائق غرناطية: 12، 16، 17.
- (47) مجلة الأندلس سنة 1933 ص 311 وهذا نص كلام عبد الباسط: «وفيه (يعني في ربيع الثاني من سنة 870) في يوم الجمعة عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس واجتمعنا بها بالشيخ العالم العلامة الإمام الهمام سيدي أبو العباس أحمد السيد الشريف التلمساني شيخ الأندلس وعالمها وقاضي الجماعة بغرناطة كان بل عالم المغرب في وقته فأنس بنا وسمعنا الكثير من فوائده وستأتي ترجمته إن شاء الله».
- (78) ثبت الوادي آشي: 204 وانظر أيضاً ص 216.
- (79) ورد في وثائق عربية غرناطية ذكر الشيخ المكرم أبي جعفر أحمد بن محمد المعني من أعيان مدينة بسطة ولعله ذا صلة بهذا القاضي ممدوح البسطي. انظر الصفحات 77، 84، 93، 94. وقد يكون من أسلاف أبي العباس أحمد بن محمد بن محمد الشهير بمعن الأندلسي صاحب الزاوية المعروفة بفاس.
- (80) وثائق عربية غرناطية: 10.
- (81) نبذة العصر: 380 في ذيل رواية آخر بني سراج.

غيرته على الدين والوطن

لم تكن مشكلات شاعرنا المادية ومتاعبه اليومية التي عرفنا شيئاً منها في الفصل السابق لتجعله بعيداً عن التفكير في واقع بلده والنظر في أحواله ومتابعة أحداثه وتوقع مآله، ومع أنه لم يكن من ذوي الحيشات الكبيرة إلا أنه ربما كان أوعى من بعض هؤلاء، وإذا استثنينا ما كتبه أبو يحيى ابن عاصم الغرناطي في كتابه «جنة الرضى» فإننا لا نجد - فيما وصل إلينا - مثيلاً لما سجله في شعره هذا الشاعر الفقيه المتواضع، وديوانه من حيث القيمة التاريخية والاجتماعية أهم من «جنة الرضى» نفسه.

لقد عاش الشاعر في عصر انهيار الدولة النصرية ولعله أدرك نهايتها وهو إن لم يذكر في شعره من أولئك النصریین المتنازعين على الملك إلا محمد الأحنف بن عثمان فإنه عرف عدداً من رجالات الدولة في هذه الحقبة المضطربة ولا سيما بعض الذين كان لهم أثر مذكور في تدبير أمور الدولة ومحاولة رقع الخرق الذي كان يتسع يوماً بعد يوم.

وقد رأينا مما سبق كيف مدح في ابن عبد البر والقائد حامد وشيوخ

الغزاة ابن عثمان وابن عمران وأبي الحسين الشريف حياتهم للأندلس وحمائهم للإسلام فيها وذلك بجهادهم وحسن تدبيرهم، وشعره في ذلك مطبوع بطابع الغيرة على الدين والوطن والكراهية لأعداء الإسلام الذين اكتوى بنار الأسر وقيوده عندهم.

وتبدو غيرته الدينية وحماسه الوطنية في هذه الأشعار التي قالها في المناسبات الأليمة، فقد كان كلما سقط ثغر من الثغور رثاه وبكاه بالدم لا بالدمع، ورفع صوته عالياً بالتقريع والتوبيخ لأولئك الذين فرطوا في البلد وتهاونوا في الدفاع عنه، وتسببوا في ضياعه بسلوهم سبيل الخلاف، وسيرهم على نهج الشتات لا بل باعوه بيعة وكس، «وشروه بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين».

ونجد هذا كله في شعره الذي قاله عندما أخذ جبل الفتح (جبل طارق) وأرشدونه وبلش وحصن اللقون وفيما رثى به شهداء كائنة لورقة وفيما قاله عند زحف النصارى على مالقة وبسطة.

وهو لم يكتف بالثناء والبكاء ولكنه كان يسهم في جمع المال والطعام للمجاهدين والمحاصرين.

وكان يقول الشعر لتحريض الناس على ذلك، ولعل خطبه في الجامع الأعظم لم تخلُ من حث على الجهاد.

كما أن له شعراً كثيراً انتقد فيه سوء الأحوال ببلده بسطة والأندلس عامة وصوّر فيه انحلال المؤسسات الدينية والاجتماعية، وهو من قبيل شعر النقد السياسي والاجتماعي الذي عرفته الأندلس منذ عهد الأمويين وفي عهد الطوائف والعهود التي تلتها.

عاصر الشاعر ذلك الصراع المزمّن بين بني نصر على عرش غرناطة ورأى ما كان يجره التحزب لأولئك المتصارعين من انتهاب للأفئس والأموال، وخراب للأوطان، «مع ما في ذلك من توهين المسلمين وإطماع

العدو الكافر في استئصال بيضتهم واستباحة حريمهم»⁽¹⁾.

وقد تكرر أمام عينيه مشهد ملك يخلع وملك يبايع وتفرق الرعية بين هذا وذاك وما ينشأ عن ذلك من فتنة، فقال (140):

مَنْ سَعَى فِي عَزْلِ وَالٍ
وَابْتَغَى تَقْدِيمَ وَالٍ
بِانْتِهَابِ النَّفْسِ وَالْمَا
لِ اجْتِرَاءَ لَا يُبَالِي
فَبِحَقِّ مِثْلٍ هَذَا
نَبَذَهُ فِي كُلِّ حَالٍ
وَاعْتِنَامِ الْبُعْدِ مِنْهُ
فَهُوَ يَدْعُو لِلضَّلَالِ

وقد عبّر عن هذا المعنى بلهجة أشد عنفاً وأكثر نقداً في قصيدته التي قالها: «عندما أخذ العدو حصن أرشدونة» كما سنرى بعد قليل.

وإذا أردنا أن نتبع شعره في الأحداث التي أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة حسب الترتيب التاريخي فسنجد أول شعر له في ذلك هو ما أنشده «يوم وصول الخبر بأن العدو الكافر استولى على حصن اللقون من حصون وادي آش أعادها الله بتاريخ يوم الجمعة الثالث والعشرين لذي قعدة عام ستّة وثلاثين وثمانمائة»⁽²⁾:

يَا أَهْلَ وَادِي الْأَشَى لَا دَرَّ دَرْكُمْ
وَلَا بَرَحْتُمْ لَقَى لِلكَرْبِ وَالْكَمَدِ
ضِعْعُتُمْ سَفَهًا حَصْنَ اللَّقُونِ وَلَمْ
تَرَاقِبُوا فِيهِ حَقَّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
حَتَّى حَوَاهِ الْعِدَا غَدْرًا وَصَارَ لَهُمْ
لِغَزْوِكُمْ عُمْدَةٌ مِنْ أَفْضَلِ الْعُمَدِ

فاسْتَشْعِرُوا - إِذْ أَضْعَعْتُمْ فِيهِ حَزْمَكُمْ
والجِدَّ - قَرَبَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ وَالْأَمَدِ

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر يحمل أهل وادي آش مسؤولية سقوط
هذا الحصن «الستراتيجي» ويقول إن استيلاء العدو عليه كانت نتيجة
التفريط والتهاون من جهة والغدر والخداع من جهة ثانية.

وقد كان الاستيلاء على حصن اللقون Alicun خلال الحملة التي
قادها القائد القشتالي جومث دي ريبيرا Gomez de Ribera في صيف سنة
1433هـ.

ويبدو أن المسلمين استرجعوا هذا الحصن ثم أخذ منهم مرة ثانية
وربما بصفة نهائية سنة 867هـ.

وهذا ما ورد في رسالة صاحب الأندلس سعد المستعين بالله إلى
السلطان خشقدم المؤرخة في جمادى الأولى سنة ثمانية وستين وثمانمائة
أثناء الكلام على أحداث السنة السابقة على هذا التاريخ :

«وفي العام المذكور استولى العدو أيضاً على حصن اللقون من حصون
المسلمين: حصن عينه لأرض الكافرين راعية، وأذنه لسماع أخبارهم
واعية، وإليه كان يركن من شن الغارة على أرض الكفر، وبه كان يعتصم
من تخلص من أيدي المشركين من الناب والظفر، ضاعف قوة المشركين،
وأمن طرق الأعداء السالكين»⁽³⁾.

ونلاحظ أن تقييم أهمية هذا الحصن في الرسالة مماثل لما جاء في
أبيات شاعرنا البسطي. كما أن مجرد الإخبار به في هذه الرسالة الملكية
يشعر بالخطب النازل بالمسلمين يومئذ إذ كان فقدته مؤذناً «بقرب انقضاء
الوقت والأمد» كما يقول شاعرنا.

وهذا الازدواج الذي رأيناه في تاريخ سقوط اللقون نجده في سقوط

جبل الفتح أو جبل طارق، فالشاعر يقول مباشرة بعد القطعة السابقة ما يلي: «وقلت عندما وصل خبر أخذ جبل الفتح في التاريخ المذكور»

أُوَارِي أُوَارَ الْقَلْبَ مَعَ شِدَّةِ اللَّفْحِ
فَتَبْدِيهِ عَيْنٌ دَمْعُهَا دَائِمُ السَّفْحِ
وَأُخْفِي الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى
وَوَظَاهِرُ حَالِي الدَّهْرُ يُؤْذَنُ بِالصَّفْحِ
وَأُبْدِي مِنَ التَّقْطِيبِ لِلْفَتْحِ حَالَةً
تَسُوءُ صَدِيقِي فِي مَسَاءٍ وَفِي صُبْحِ
وَقَائِلَةٍ مَالِي أَرَاكَ مُقْطَبًا
كَأَنَّكَ - لِلتَّقْطِيبِ - هُدِّدْتَ بِالذَّبْحِ
وَعَهْدِي - وَلَا أُخْفِي - صِفَاتُ عَرَفْتَهَا
تَسْرُ بِمَا تُبْدِي مِنَ الْبِشْرِ وَالسَّمْحِ
فَقُلْتُ دَعِينِي: الْحُزْنَ فَرَضَ عَلَى الْوَرَى
أَمَا قَدْ حَوَى أَعْدَاؤُنَا جَبَلَ الْفَتْحِ
حَرَامٌ عَلَيْنَا الْبِشْرُ وَالسَّمْحُ بَعْدَهُ
وَفِي الْقَلْبِ مِنْ آلَامِهِ أَعْظَمُ الْجَرْحِ
عَسَى مَنْ قَضَى فِيهِ بِأَخْذٍ يُعِيدُهُ
وَيُذْهَبُ مَا أَشْكُوهُ مِنْ شِدَّةِ الْقَرْحِ
فَمِنْهُ تَعَالَى نَرْتَجِي الْخَيْرَ كُلَّهُ
وَمَا زَالَ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالْمَنِّ وَالْمَنْحِ

إن حسرة الشاعر باللغة وحزنه شديد ومن يقرأ هذه الأبيات يظن أن الشاعر يبكي مصيبة خاصة به وليست عامة بالمسلمين، وهو يرى أن الحزن يجب أن يكون فرضاً على جميع الناس بعد سقوط جبل الفتح وذلك لأن

هذا الجبل كان يمثل صلة الوصل مع أهل المغرب الذين اعتادوا أن يهتوا
لنجدة إخوانهم، وقد أنشد ابن الخطيب في معيار الاختيار في آخر حديثه
عن جبل الفتح بيتين يشيران إلى المعنى الذي ذكرته، وهما:

هُوَ الْبَابُ إِنْ كَانَ التَّرَاوُرُ وَاللُّقْيَا
وَعَوْتُ وَعَيْتُ لِلصَّرِيخِ وَلِلسُّقْيَا
فَإِنْ تَطَرَّقِ الْيَّامُ فِيهِ بِحَادِثٍ
وَأَعَزَّزْ بِهِ، قَلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الدُّنْيَا

في جميع الأحوال ومهما تكن الظروف لقد كان سقوط حصن
اللقون في أقصى الشرق وجبل طارق في أقصى الغرب سنة 836 (1433)
حسب ما في ديوان البسطي بداية لعمليات صعبة من الكر والفر والأخذ
والرّد، وكما استرد المسلمون حصن اللقون لمدة يسيرة فقد استجاب الله
تعالى رجاء الشاعر - فيما يبدو - واستعيد جبل الفتح.

إلا أن المسيحيين ما لبثوا أن أخذوه بصفة نهائية سنة 867هـ (1462)
حسبما جاء في الرسالة الملكية النصرية السالفة التي نقرأ فيها ما يلي:
«وَهَذَا الْعَدُو الْمَشْتَرِكُ صَاحِبُ قَشْتَالَةِ - قِصْمَةِ اللَّهِ - فِي كُلِّ عَامٍ يَهْجُمُ
عَلَى بِلَادِنَا وَثَغُورِنَا، وَيَجْدُدُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلِحْظَةٍ أَشْجَانَ قُلُوبِنَا وَصُدُورِنَا،
تَمْلِكُ فِي الْعَامِ الْفَارِطِ مَدِينَةَ جَبَلِ الْفَتْحِ مِنْ بِلَادِنَا، وَهُوَ مَحَلُّ الْفَتْحِ
الْأَوَّلِ، وَالْمَعْقَلُ الَّذِي عَلَيْهِ الْاعْتِمَادُ وَالْمَعُولُ، أَزَالَ عَنْهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ،
وَعَمَرَ مَآذِنَهُ بِالنَّوَاقِيسِ وَمَسَاجِدِهِ بِالْأَصْنَامِ، وَمَلَأَهُ بِقَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَوثَانَهُمْ،
وَيَحْكُمُونَ أَصْنَامَهُمْ وَيَجِدُونَ فِيهِ مَعَ السَّاعَاتِ كُفْرَهُمْ وَطُغْيَانَهُمْ، أَصِيبَ
مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ بِالْمُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْفَجِيعَةِ الْمَقْعَدَةِ الْمُقِيمَةِ، مَلَأَتْ
الْقُلُوبَ تَفْطَرًا، وَالنَفُوسَ تَفْكَرًا»⁽⁴⁾.

وتذكر بعض الروايات المسيحية أنه في 16 غشت من سنة 1462

استولى دوق مدينة شذونة خوان دي قزمان وكونت أركش على جبل طارق بسبب خيانة أحد المرتدّين⁽⁵⁾.

- وفي يوم الجمعة 25 صفر سنة 856 (17 مارس 1452م) وقعت كائنة لورقة التي كُسِر فيها جيش المسلمين واستشهد فيها نخبة من قادتهم، وكانت هذه الواقعة في بسط Alporchones بين جيش أهل مرسية يتزعمهم قائدهم Pedro Fajardo وجيش من المسلمين تحت إمرة القائد ابن عبد البر كان معظمه من أهل غمارة، وقد ورد في مدونة جوان 11 أنه استشهد في هذه الكائنة 14 قائداً وعددت منهم تسعة، وهم ابن عزيز قائد بسطة، وأخوه أبو القاسم قائد محلة غرناطة، والعباس بن علي بن حميد قائد بيرة، وقواد بلش البيضاء وبلش الشّقراء والمرية وأرك وشوحر وقولر وقد كانت الفجيرة في مصرع هؤلاء الأبطال كبيرة ومصاب الأندلس فيهم عظيماً، وقد رثاهم الشاعر وأشار إلى مواقفهم السابقة في الجهاد، ونكباتهم الماضية في أعدائهم وذكر أن مصرعهم كان في يوم العروبة وهو يوم الجمعة من التاريخ المذكور،

أما القائد ابن عبد البر فقد سبقت الإشارة إلى مصيره على يد محمد الأيسر، وثمة رواية أُخرى لخصّها الأمير شكيب أرسلان من تاريخ مرسية لضون فليكس فقال: «وفي الفصل السادس والعشرين يذكر واقعة يقال لها واقعة البورشونيس ففي سنة 1452 زحف من غرناطة جيش عظيم تحت قيادة محمد - كذا - بن عبد البر الذي كان وزيراً لملك غرناطة محمد بن عثمان فدخلوا أرض مرسية والتقاهم المسيحيون في مكان يعرف بالبورشونيس فبعد قتال شديد انهزم المسلمون وسقط كثير من قوادهم قتلى ونجا ابن عبد البر ومعه ثلاثمائة من جنوده، فلما وصل بين يدي مولاه وقصّ عليه الفاجعة وذكر له أسماء الذين فقدوا في المعركة استعظم الخسارة وقال لابن عبد البر: أما وقد جئنا عن الموت في ميدان الحرب ولم تمت كما مات أولئك الأبطال

فستموت مودة شنيعة كما يموت الأندال وأمر بقطع رأسه (الحلل
السندسية: 3: 445).

وهذه مراثية شاعرنا البسطي في شهداء كائنة لورقة⁽⁶⁾ (68):

لِمَصَابٍ أُنْدُلَسٍ تَصُوبُ الْأَذْمُعُ
وَلَمَّا جَرَى فِيهَا تَذُوبُ الْأَضْلُعُ
فَلَهَا مَعَ الْأَعْدَاءِ حَالٌ تُفْزَعُ
تَقْضِي بِحُسْرَةٍ مَنْ يَرَى أَوْ يَسْمَعُ
وَتَكَادُ مَهْجَتُهُ لَهُ تَتَصَدَّعُ
جَارَ الزَّمَانِ عَلَى جَمِيعِ جِهَاتِهَا
فَأَبَاحَ حُرْمَةَ أَهْلِهَا لِعُدَاتِهَا
أَتَرَى الْإِلَّاهَ يُقِيلُهَا عَشْرَاتِهَا
وَيُزِيلُ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ عَمَرَاتِهَا
بِذُنُورِ نَصْرِ بِالْفُتُوحِ مُشْفَعُ
فَلَقَدْ أَحَالَ عَذُوبَهَا أَحْوَالَهَا
وَمِنْ الْخُطُوبِ أَذَاقَهَا أَهْوَالَهَا
وَأَفَاضَ فِي أَقْطَارِهَا إِذْلالَهَا
لَمَّا أَبَادَ بِلُورَقَةٍ أَبْطَالَهَا
يَوْمَ الْعَرُوبَةِ كَانَ فِيهِ الْمَصْرَعُ
ذَهَبَ الْجَمِيعُ مُجَاهِدِينَ كَمَا ابْتَغَوْا
وَحَوُوا هُنَاكَ مِنَ الشَّهَادَةِ مَا حَوُوا
مَاذَا نَكُوا أَعْدَاءَهُمْ مَاذَا نَكُوا
وَلَرُبَّمَا مِنْهُمْ أُسَارَى مَا افْتَدَوْا
كَمْ أَمْرَضُوا مِنْ خَاطِرٍ كَمْ أَوْجَعُوا

ولأن هذه الملحمة كانت في 17 مارس - يوم القديس سان باتريس - فقد اعتبر هذا حامي مدينة مرسية منذ ذلك التاريخ، والاسبان ينعنون قائدهم في هذه المعركة بالشجاع Fajardo Elbravo وقد كتبوا فيه الكثير وخصّه بعضهم بالتأليف كما أنهم تغنوا بنصرهم هذا وما يزالون يحتفلون بذكراه في مرسية.

ويذكرنا هذا التخميس بتخميس يوسف الثالث الذي نظمه عند حصار القشتاليين مدينة انتقيرة سنة 1410م وهو الحصار الذي انتهى باستيلائهم عليها، وأوله:

خَلِيلِيْ مَهْلًا فَالزَّمانُ كما تَدْرِي
وَلَا بُدَّ مِنْ يُسْرِ عَلَى أَثَرِ العُسْرِ
فَمَهْمَا دَهَا صَحْوٌ فَلَا بُدَّ مِنْ قَطَرٍ
وَمَهْمَا دَجَا خَطْبٌ فَلَا بُدَّ مِنْ فَجْرِ
وَأَلطافُ صُنْعِ اللهِ رائِعةُ البِشْرِ

وهو أطول من تخميس شاعرنا وأجود نظماً ولكنه دونه حماسة وأقل منه أثراً، وتكمن قيمتهما معاً في تسجيل حادثتين من حوادث تاريخ مملكة غرناطة الأخير الذي فقدت روايته العربية ولا يعرف منه اليوم إلا ما يوجد في المصادر المسيحية.

- ووقعت - بعد هذه الحوادث - كارثة أرشدونة فهزّت الشاعر هزاً وجعلته يفكر في مصير الأندلسيين المظلم وينحو منحى الشاعر الزاهد ابن العسال وغيره، بل إنه أربى على من سبقه بتحليل الأحوال وذكر الأسباب ومنها اختلاف كلمة المسلمين، وتنازع رؤوسائهم على الملك، وتهافتهم على أكل أموال الناس بالباطل، وانعدام العدل الذي هو أساس العمران، وإهمال الدين ومؤسساته. وقد تميز الشاعر أيضاً برفع النداء لإسماع النائمين وتنبيه الغافلين، وأضع القصيدة بين يدي القارئ ليحكم من خلالها على مستوى الوعي لدى هذا الشاعر المغمور (118):

مَخَايِلُ هَذَا الْحَالِ تُؤْذِنُ بِالْهَلِكِ
وَتَقْضِي لَنَا بِالذَّلِّ وَالْعِزِّ لِلشَّرِكِ
وَأَنَّ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ بِأَسْرِهَا
بِذَا الْقَطَرِ يَحْوِيهَا الْعَدُوُّ بِلا شَكِّ
وَيَقْسِمُ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ أَهْلَهَا
فَمَا عَنْ كِلَا الْأَمْرَيْنِ شَخْصٌ بِمُنْفَكِّ
فَمَنْ قَسَمَهُ الْقَتْلُ اسْتَرَاخَ مِنَ الْعَنَا
وَمَنْ سَهَمَهُ الْأَسْرُ اسْتَمَرَّ بِلا فَكِّ
وَقَدْ رَفَعَ الْإِشْكَالَ أَخَذُ آرْشَدُونَةَ
وَتَصْيِيرُهَا مُلْكاً لَهُ أَعْظَمَ الْمُلْكِ
وَمِنْ قَبْلِهَا حِصْنُ اللَّقُونِ اسْتَبَاحَهُ
وَمِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ آتَقَى دُرَّةَ السَّلَكِ
وَنَحْنُ عَلَى نَهْجِ الشَّتَاتِ مَسِيرُنَا
لِإِدْرَاكِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ الْمُلْكِ
وَهَيْهَاتَ مِنْ إِدْرَاكِ حَقِّ بَاطِلٍ
وَعِشٍّ وَتَذْلِيلِ وَبُهْتَانٍ أَوْ إِفْكِ
وَفِي ذَاكَ مَا نَابَاهُ مِنْ هَتَكِ حُرْمَةٍ
لَنَا وَدِمَاءٍ لَيْسَ تَخْلُو مِنَ السَّفْكِ
وَعِشٍّ إِذَا مَا الْعَقْلُ رَامَهُ رَاعَهُ
لِكُونَ مُعَانِيهِ مِنَ الضَّيْقِ فِي ضَنْكِ
رَضِينَا بِهَذَا مَذْهَباً دُونَ غَيْرِنَا
وَلَمْ يَأْنِ مِنْ كَفٍّ وَلَمْ يَأْنِ مِنْ تَرْكِ
فَوَا أَسْفَا لِلَّذِينَ أَهْمِلَ حَقُّهُ
وَقَوِيلَ مِنْهُ السُّتْرُ بِالْكَشْفِ وَالْهَتَكِ

وَهَدَّتْ مَبَانِيهِ وَدَكَّتْ سَفَاهَةً
 فَسَاءَتْ بِمَا تُبْدِي مِنَ الْهَدِّ وَالذِّكِّ
 أَفِيقُوا أَفِيقُوا وَاهْجُرُوا النَّوْمَ إِنَّهُ
 حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَا أَقُولُ وَمَا أَحْكِي
 وَمَنْ كَانَ فِيمَا قَدْ مَضَى الدَّمْعُ بَاكِياً
 فَفَرَضْ عَلَيْهِ بَاقِيَ الدَّمِ أَنْ يَبْكِي

لم يذكر الشاعر في تقديمه للقصيدة تاريخ هذه الكارثة، ولكنه ذكر في صلب القصيدة - كما رأينا - أنها وقعت بعد أخذ حصن اللقون وجبل طارق، وهنا نرجع أيضاً إلى الرسالة النصرية مصدرنا العربي الثاني في هذه الواقعة فنجدها تقول:

«والآن (868هـ) استولى العدو على حصن أرجدونة، المعقل الذي شهاب عزازته متألق، وكفّ منعه بالسما متعلق، ينظر أرض العدى عن كعب، ويلاحظ العدو إذا وثب، ويحذر من مكائده، وينذر من مراصده، فوهت القوى، وترادفت البلوى، وعظمت الشكوى، وضاق المجال، ومنّت الآمال، وأعوز الاحتيا، فيالله ويا للمسلمين»⁽⁷⁾. ولأهمية هذا المعقل كان أهل الخير في غرناطة يحبسون على أهله ما ينتفعون بفائده ويتقوون به على الدفاع (وثائق عربية غرناطية: 13).

وللشاعر قطعة فريدة قالها عندما «أُرْجِفَ إثر أخذ جبل الفتح واللقون أن العدو - دمره الله - غدر ثغر بلش» وهي (135):

«جبلُ الفتح» بيع بالغرب بخساً
 وتلاه في البيع بالشرق «بلس»
 و«اللقون» استُبيحَ بالجوفِ غدراً
 حين فيه بواجب الحفظ دُلُسُ

فَأَمِيرُ الْجَزِيرَةِ الْيَوْمَ مِنْهَا
 فِي الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ وَاللَّهُ مُفْلِسٌ
 يَا مُرِيدَ الْجُلُوسِ فِيهَا اخْتِياراً
 أَرْتَحِلْ عَنْهَا وَالتَّمَسْ أَيْنَ تَجْلِسُ

وهذا من أقوى ما يقرأ في شعر النقد السياسي وَمِنْ أشده لهجة، ففي النماذج السابقة كان الشاعر يعرض ولا يصرح ويكتفي ولا يسمي. أما في هذه القطعة فهو يسخر من أمير الأندلس المتهاون في الدفاع عن حوزة البلاد، ويشير بأصابع الاتهام بأن الحصون المذكورة وقع بيعها والتخلي عنها للعدو.

ولا بُدَّ أن هذا الشعر الانتقادي كان يسير في الناس ويبلغ إلى مسامع أولي الأمر، ومثل هذا الانتقاد يعرض صاحبه للمتابعة.

ومن الأمثلة الطريفة في هذا الباب أن الكاتب الفازازي صور الحال بالأندلس في آخر أيام الموحيدين بها في قطعة يقول فيها:

الرَّوْمُ تَضَرَّبُ فِي الْبِلَادِ وَتَغْنَمُ
 وَالْجَوْرُ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ وَالْمَغْرَمُ
 وَالْمَالُ يورد كُلُّهُ قَشْتَالَةً
 وَالْجُنْدُ تَسْقُطُ وَالرَّعِيَّةُ تُسَلِّمُ
 وَذَوُو التَّعِينِ لَيْسَ فِيهِمْ مُسْلِمُ
 إِلَّا مُعِينٌ فِي الْفَسَادِ مُسَلِّمُ
 أَسْفَى عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا
 اللَّهُ يَلْطَفُ بِالْجَمِيعِ وَيَرْحَمُ

ولما وجدت رقعتها في جيبه يوم موته رُفعت إلى السلطان فلما قرأها قال بعد ما بكى: صدق رحمه الله، ولو كان حياً ضربت عنقه! (8).

وما أشبه قطعة شاعرنا البسطي في مبنائها ومعناها بقول أحد معاصري
الغازي المذکور:

بوقعة عَفْصٍ وَطَلِيْاطَةٍ
تَكَامِلُ إِقْبَالَ أَيْامِنَا
فَبِالْغَرْبِ تِلْكَ وَبِالشَّرْقِ ذِي
أَنَاخَا عَلَى شُمِّ أَعْلَامِنَا
وَفِي وَسْطِ الْأَرْضِ قِيْجَاطَةٌ
وَلَوْشَةٌ خَفَا بِأَحْلَامِنَا
وَلَيْسَ الصَّلِيبُ يُرَى قَانِعًا
بَغَيْرِ تَوَاتُرِ إِعْدَامِنَا
وَسَيِّدُنَا نَاطِرٌ فِي الْجَوَازِ
يَرُومُ النِّجَاةَ بِإِسْلَامِنَا⁽⁹⁾

و «السيد» الذي ذكر الشاعر المجهول أنه ترك الأندلس وجاز إلى
العدوة هو أبو العلاء الملقب فيما بعد بالمأمون وقد أنشد أمام هذه الحال
قول الشاعر:

إِن الطَّبِيبَ إِذَا تَعَارَضَ عِنْدَهُ
مَرْضَانِ مُخْتَلِفَانِ دَاوَى الْأَخْطَرَ⁽¹⁰⁾

والمرض الأخطر كان معالجة الفتنة الناشبة بالمغرب يومئذ.

ونلاحظ بهذه المناسبة أن معظم الشعر الذي قيل في النكبات
الأندلسية مجهول القائل، ولعل ذلك لما تضمنه من نقد لاذع وتقريع شديد
وفضح لأسباب الهزائم، ومن شأن هذا أن يعرض صاحبه للتعقب والمتابعة
كما قلنا ولسنا نعرف هل حصل شيء من هذا لشاعرنا.

أما أمير الجزيرة خلال التاريخ الذي ذكره الشاعر فربما قصد به

محمد IX الأيسر فهو الذي كان يومئذ على كرسي غرناطة للمرة الثالثة، وقد «اختلت أمور الدولة في أيامه فأسف لذلك الخواص ووقع الخلاف بين رؤساء البلد وقواد المصر» كما لخص الأمير شكيب أرسلان عن بعض المصادر المسيحية.

ولا ندري هل كان الشاعر يصدر في نقده المذكور عن غيرته فقط أم أنه كان يعبر عن رأي حزب معين، ذلك أن ديوانه - كما عرفنا - يكشف عن صلتة الخاصة بمحمد بن عثمان رجل الدولة القوي يومئذ وقد كان - كما ذكرنا - يتولى قيادة الجيش في بسطة ثم في المرية، ولا بدّ أنه كان يحدث نفسه بالملك، وفي القصيدة التي مدحه بها شاعرنا ما يشي بشيء من ذلك، قال:

ومَقَدَّمَاتٍ قَدْ أَفْذَنْ نَتَائِجاً
أُبْهَى مِنَ الْإِنْتَاكِ فِي الْبُرْهَانِ
تُبْدي الْمُنَى لِعُقُولِنَا بِمَقَاسِ
سَهَلَتْ عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ
وَالْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ لِلْعَاصِي الَّذِي
تَرَكَ الرِّشَادَ وَدَانَ بِالْعِصْيَانِ
لَا بُدَّ أَنْ يَلْقَى الَّذِي كَسَبَتْ يَدَا
هُ مِنَ الْخَنَا وَالزَّيْغِ وَالْخِذْلَانِ
وَيَوْمُهُ بِكَتَائِبٍ مِنْ جُنْدِهِ
تَذَرُ الدِّيارَ بَغِيرِ مَا سَكَّانِ
وَالنَّصْرُ وَالتَّأْيِيدُ قَدْ حَفَا بِهِ
فَهُمَا لَهُ مِنْ أَسْعَدِ الْإِخْوَانِ
لَا يَقْطَعَانِ مَدَى الْحَيَاةِ إِخَاءَهُ
حَتَّى يَحُلَّ مَنَازِلَ الرِّضْوَانِ

ويمكن أن نفسر المقدمات والنتائج التي لمح إليها الشاعر بضعف الأيسر واختلال أمره وصعود نجم محمد بن عثمان بحكم الشعبية التي كان يحظى بها وهالة البطولة التي كانت له ممّا يسر له اقتحام غرناطة وخلع الأيسر عمّه وجبسه في سجن القسبة وإعلان نفسه ملكاً وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة 849هـ (1445م) وهو محمد X من هؤلاء المحمّدين النصريين، ولقبه الناس بالأحنف أو الأعرج Elcojo وكان من أمره ما ذكرته المدونات المسيحية.

ويهمّنا من هذا كله أنه كان النصري الوحيد الذي مدحه الشاعر ووصل حبله به عند ما كان يتولى مشيخة الغزاة في بسطة، ولا نعرف بعد ذلك هل استمرت صلته به وهل كان لها انعكاس ما على حياته؛ وأغلب الظن أن شاعرنا مدحه إعجاباً ببطولته وشجاعته واعترافاً بغزوه وجهاده.

ولا شك أن شاعرنا البسطي قال شعراً آخر في انتقاد الأحوال السياسية بالأندلس في عصره لم يودعه ديوانه. ومما بقي منه قوله ينتقد أهل بلده بسطة ويشير إلى تبدل الحال في بلد غليرة بعد استيلاء القشتاليين عليها سنة 1436م، حيث غدا هؤلاء أصحاب الشأن فيها وصار أهلها من المدجنين (93):

قالوا غدا البرّاني في غليرة
في الوقتِ صَدْرُ صدورِها الأعيانِ
فأجبتُهم لا تنكروا فيبسطة
ما زالَ صدرَ صدورِها البرّاني

وتبعاً لذلك فقد رفع أهل بسطة نازلة إلى الفقهاء يستفتونهم في حكم التعامل مع جيرانهم أهل غليرة «لكونهم تحت قهر الطاغية» فأفتى بعضهم بالمنع وأفتى البعض الآخر بالإباحة، والقضية مبسطة في كتاب المعيار⁽¹¹⁾.

ويبقى بعد هذا من الشعر اللاحق بموضوعنا قطعة وقصيدة، فأما القطعة فيقول الشاعر إنه نظمها وجعلها في صدر رسالة، وقد ضاعت الرسالة وبقيت القطعة وهي تصف إحدى تلك الغارات التي أصبح المسيحيون يشنونها على حدود بسطة، يروّعون بها الناس ويحرقون زروعهم ويقتلون ويسبون من يجدونه في طريقهم (93 - 94):

مصائبٌ عظيمٌ دُهمنا به
 بهذي الديار وخَطْبٌ طَرَقَ
 هَجَرْنَا المضاجِعَ مِنْ أَجْلِهِ
 وأجفأنا اِكْتَحَلَتْ بِالْأَرْقِ
 وَلَمْ يَتَّقِ [فيما] نراه امرؤ
 بذو القُطَرِ إِلَّا اعْتَرَاهُ الْفَرَقُ
 لهذا الْعَدُوِّ الَّذِي أَمَّنَا
 وَحَرَقَ الزَّرْعَ فِي أَرْضِنَا فَاحْتَرَقَ [كذا]
 وحارَّ من السَّيْبِ فَوْقَ الْمُنَى
 وَكَمْ مُسْلِمٍ دَمَهُ قَدْ هَرَقَ
 وما خَرَقَ الْيَوْمَ فِي بَسْطَةٍ
 بَغَرْنَاهُ مِثْلَهُ مَا خَرَقَ

ومثل هذا الذي وصفه شاعرنا البسطي وصفه الشاعر الغرناطي الذي قال «لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة»:

بالطبل في كلِّ يومٍ وبالنَّفِيرِ نُرَاعُ
 وليس من بعدِ هذا وذاك إِلَّا الْقِرَاعُ
 يا ربَّ جبركَ يرجو من هيضٍ منه الذَّرَاعُ
 لا تسلبني صَبْرًا مِنْهُ لِقَلْبِي أَذْرَاعُ⁽¹²⁾

وأما القصيدة فلا نعرف مناسبتها ولا تاريخها ولكن يبدو من فحواها أنها قيلت إثر هجوم كبير قام به النصارى على بسطة وحشدوا له الكثير من العدة والعدد وتأهبوا له بالوسائل والمكاييد، وكان من لطف الله أن لم يبلغوا مرادهم فخاب مساعهم وتخاذلت جموعهم وردوا على أعقابهم خاسرين.

وقد بدأ الشاعر قصيدته بالابتهاال والتوسل، ثم وصف كرب المسلمين عندما رأوا حشود عدوهم وما اعترى الناس من فزع كما وصف صدق المدافعة وبسالة المقاومة، قال (99)

يا مَنْ إِذَا يُدْعَى يَجِيبُ تَفْضُّلاً
وَإِذَا لَهُ يُشْكَى يَحْنُ وَيُعْطِفُ
يا مَنْ إِذَا الْأَرْمَاتُ عَمَّتْ لَمْ يَزَلْ
بِالْخَلْقِ يَرْفُقُ بِالْجَمِيعِ وَيَلْطِفُ
يا مَنْ إِذَا الْكُرْبَاتُ حَلَّتْ لَمْ يَزَلْ
يَكْفِي الْكُرُوبَ الْحَادِثَاتِ وَيَكْشِفُ
أَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ
حَلَّتْ بِنَا مِنْ أَجْلِهَا نَتَخَوَّفُ
أَنْتَ الَّذِي تُلْفَى لِكُلِّ مُلِمَةٍ
تَنْفِي الَّذِي مِنْهَا أَلَمٌ وَتَصْرِفُ
[أَحْوَالُنَا] بِلَادِنَا حَالَتْ لِمَا
نَلْقَاهُ مِنْ خَطِّ الْعِدَاةِ وَنَأْلَفُ
فَقُلُوبُنَا لِلْخَوْفِ جَمَّ خَفَقُهَا
وَجُفُونُنَا لِلدَّمْعِ مَا إِنْ تَطَرَّفُ
عَزَمُوا عَلَى إِجْلَائِنَا عَنْ أَرْضِنَا
مَنْ بَعْدَمَا مَا اجْتَمَعُوا لَنَا وَتَأَلَّفُوا

وَأَتُوا بِكُلِّ مَكِيدَةٍ قَدْ أُرْهِفَتْ
أَرَاؤُهَا فِي أَهْبَةٍ لَا تَوْصَفُ
وَتَطْلَعُوا فِرْقاً لَهْذِمٍ مَعَالِمِ
لِلَّذِينَ شِيدَ بِنَاؤُهَا وَاسْتَشْرَفُوا
لَمْ يَبْقَ رُمُحٌ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَتَوْا
قَصْداً بِهِ لِحْجَاهِنَا أَوْ مُرْهَفُ
فَالْمُرْهَفَاتُ تَفَلَّلَتْ وَتَحَطَّمَتْ
وَعَدَّتْ رِمَاحُ جَمِيعِهِمْ تَتَقَصَّفُ
لَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا لَنَا بِجَمِيعِهِمْ
فَتَخَاذَلُوا فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَزَحَفُوا
رَامُوا النُّهوضَ حَمِيَةً فَتَقَهَّقُوا
نُكْصاً عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَتَوَقَّفُوا
وَأَبَى إِلَآهُ سِوَى حَيَاطِنَا فَلَمْ
يُبْلِغْهُمْ غَرَضاً إِلَيْهِ تَشَوَّفُوا
صَنَعَ عَجِيبٌ مِنْ إِلَهِ قَادِرٍ
مَا زَالَ بِالنُّعْمَى لَنَا يَتَعَرَّفُ
وَلَيْتُنْ أَبَاحُوا الْيَوْمَ مِنَّا حُرْمَةً
فَعَدَا نُدَالُ مِنَ الْجَمِيعِ وَنُنْصَفُ
وَعَدَا مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ مُحَقَّقاً
وَاللَّهُ قَطْعاً وَعْدَهُ لَا يُخْلَفُ

وإذا كنا رأينا الشاعر متشائماً في بعض الأشعار السابقة فإنه في آخر
هذه القصيدة يبدو متفائلاً طامعاً في وعد الله الكريم بنصرة من ينصره .

وهكذا أيضاً نجد معاصره ابن عاصم أبا يحيى يقول «عند نزول طاغية

النصارى بمرج غرناطة» من قصيدة:

رُؤَيْدَكَ فَارَقَبَ لِلطَّائِفِ مَوْضِعاً
وَحَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يُتَوَقَّعُ
وَصَبِراً فَإِنْ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةً
وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجَعُ
وَبِتْ وَاثِقاً بِاللَّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ
فَأَلطَافُهُ مِنْ لَمَحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ
وَإِنْ جَاءَ خَطْبٌ فَانْتَظِرْ فَرَجاً لَهُ
فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي غَدٍ عَنْكَ يُرْفَعُ
وَكُنْ رَاجِعاً لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ مَرْجِعٌ (13)

وبعد فهذا هو الموجود من شعر شاعرنا البسطي في تسجيل بعض الأحداث التي عاصرها، فهل قال في غيرها كسقوط الحامة التي استشهد فيها كثير من أهل بسطة سنة 887هـ وسقوط لوثة سنة 891هـ وسقوط بسطة بعد صمود واستبسال، وسقوط غرناطة في آخر الأمر؟ أم أنه لجأ إلى الصمت في آخر عمره كما قد يفهم من قوله:

تَفَكَّرَ مِنَ الْعُمُرِ فِيمَا مَضَى
وَلَا تَتْرُكُ الْفِكْرَ فِيمَا بَقِيَ
وَأَذَّ الْحَقُوقَ لِأَصْحَابِهَا
وَمِنْهَا السُّكُوتُ عَنِ الْمُطْبِقِ

أم أن ظروف الشيخوخة والمرض والمحنة قعدت به عن متابعة الطور الأخير من مأساة الفردوس المفقود؟.

الحواشي

- (1) المعيار المعرب جـ 11 ص 149.
- (2) ديوان البسطي: 113 - 114.
- (3) الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري تأليف الدكتور أحمد دراج ص 197.
- (4) المصدر نفسه.
- (5) أطروحة السيدة أرييه ص 144.
- (6) انظر تفصيل ما ذكرته في بحث خوان توريس فونتس المنشور في مجلة الأندلس سنة 1962هـ.
- (7) الممالك والفرنج: 197.
- (8) نفح الطيب: 4: 467.
- (9) الروض المعطار: 415 تحقيق د. إحسان عباس.
- (10) المصدر نفسه ص 355.
- (11) المعيار المعرب 2: 142 - 158.
- (12) نفح الطيب: 4: 550.
- (13) نفح الطيب 2: 704.

حالة الخطط الدينية والاجتماعية في عصره

ننتقل بعد هذا إلى قسم آخر نستعرض فيه وصف الشاعر الفقيه أحوال الخطط الدينية والمؤسسات الاجتماعية ونقدّه للقائمين عليها وذلك من خلال معاشته لواقع الحال في بلده بسطة ولعلّ حالها ينطبق على عموم المدن والقرى التابعة لمملكة غرناطة.

ولقد رأينا كيف أنشد القلصادي - عند الإشارة إلى ما أصبحت عليه حال الخطط الدينية - قول الشاعر:

لقد هزلت حتى بدا من هزلها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

وكنا ننتظر من ابن الأزرق معاصر شاعرنا أيضاً ومؤلف «بدائع السلك» الذي حاذى فيه مقدمة ابن خلدون أن يشير إلى أحوال هذه الخطط على عهده في مملكة غرناطة فلم نجد عنده شيئاً من ذلك ورأيناه مكتفياً بتلخيص أقوال السابقين، ومن هنا يبدو الفرق بين بعض أعلام هذا العصر

الذين وصلتنا مؤلفاتهم خالية من أي إشارة إلى كوارث عصرهم وأحوال بلدهم، وبين هذا الفقيه الشاعر المتواضع الذي ضمن عليه المؤرخون بكلمات تحفظ اسمه وعمله من النسيان.

لقد كان شاعرنا القيسي صاحب حس نقدي نادر، ونعته بعض معاصريه - كما جاء في شعره - بأنه «داهية دهياء» ووصفه بعض خصومه بسبب طول لسانه بأنه «شيطان».

وكان أيضاً على مستوى جيد من العلم والمعرفة بالمسائل والوعي بالأمور وسنرى كيف أن فقهه ومعرفته بأحكام الخطط الشرعية أهله لتقد ما أصابها من اعوجاج في وقته، ونحن إذا كنّا لا نبرىء بعض نقده من حساسيات المعاصرة وردود الفعل الشخصية فإننا مع ذلك نلمس كثيراً من الصدق والغيرة في جلّ ما قاله.

إن خطة القضاء «من أعظم الخطط قدراً وأجلّها خطراً» كما يقول القاضي الأندلسي ابن سهل⁽¹⁾ وقد رأينا مما سبق ابتهاج الشاعر بإسناد هذه الخطة إلى ذوي الكفاءة والعدل، وعرفنا أمداحه في القضاة الكبار من أمثال ابن عاصم وابن منظور والجعداله وأبي حامد ابن الحسن وغيرهم ممّن ولوا قضاء بسطة وقضاء الجماعة بغرناطة.

ولكن خطة القضاء كانت تسند أحياناً لغير أهلها، وقد انتقد شاعرنا بعض هؤلاء واتهمهم بالجهل والارتشاء والجور والتعسف في الأحكام. قال في أحد القضاة المرتشين ببسطة واصفاً إياه باللب وهو الذئب في لهجة الأندلسيين (104):

أي لبّ ببسطةٍ قد تقضى
لرعايا بهائمٍ في مفازةٍ

منعَ الجائزَ المُباحَ رياءً
 والحرامَ المحظورَ شرعاً أجازَهُ
 ومضى حكمه بذاك مضاءً
 ليسَ منه في نفسه مِن حِزَاةٍ
 واستوتَ عندهُ الحقيقَةُ جهلاً
 معَ ما أحكمَ الكتابُ مجازَهُ
 يرتشي دائماً ويبدي لُمرش
 عندَ لُقيَاهُ هَشَّةٌ واهتزازُهُ
 همُّه في سؤالِهِ من يلاقي
 هل سمعتم في يومنا من جَنَازَةٍ
 أو رأيتم مُخَبِّراً عن مريضٍ
 لمنايا مُعدَّةٍ جهَّازَهُ
 كل مَيِّتٍ ببِسْطَةٍ فهو يحوي
 ما انتقاه طولَ الحياةِ وحازَهُ
 لم يزلَ معروفاً بذا مُذْ تقضى
 وبِهِ قِدماً مازَهُ من مازَهُ
 أخلفَ اللهُ مالاً ابتزَّ ظلماً
 لمن ابتزَّ واستباحَ ابتزازَهُ
 وأنالَ القضاءَ بالعزلِ عنه
 عن قريبٍ كرامةً وعزازَهُ

وقال معرضاً ببعض القضاة المرتشين (92):

يا أهلَ بسطةٍ دَعْوَةٌ مِنْ مشفقٍ
 لَوْ فيكُمْ لدُعَائِهِ مَنْ يَسْمَعُ

إِنَّ الْقَضَاءَ وَظِيفَةً دِينِيَّةً
 مَا قَطُّ قَامَ بِحَقِّهَا مَنْ يَطْمَعُ
 وَأَرَى الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِمَضْرُكُمُ
 قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بِالْقَضَاءِ وَيَجْمَعُ
 وَالْحَنْشُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ
 لِسَوَاهٍ مُبْتَلَعٌ إِذَا مَا يَلْمَعُ
 وَإِذَا الْفَتَى لِقَضَائِهِ لَمْ يَفْتَقِرْ
 - قَالَ الرَّسُولُ - فَسَارِقٌ لَا يَقْطَعُ

وقال يعرض ببعض القضاة ويتهمة بالجور والحكم بما يخالف الشرع

(105):

رُبُّ الشَّرِيكَيْنِ فِي التَّقْسِيطِ بَيْنَهُمَا
 بِقَدْرِ مَالِهِمَا أَوْ نِسْبَةِ الْعَمَلِ
 وَفِي الْغَنَائِمِ حُكْمُ الشَّرْعِ مُتَضَعٌ
 فِي قِسْمَةِ الْفَارِسِ الْمَعْلُومِ وَالرَّجُلِ
 فَقُلْ لِقَاضٍ أَتَتْ بِالْعَكْسِ قِسْمَتُهُ
 فِي ذَاكَ مَعَ عِلْمِهِ بِالْجَوْرِ وَالزَّلَلِ
 رَوَيْدُكَ أَقْسِمُ بِمَا قَدْ شَتَّ مُجْتَرِئًا
 فَأَنْتَ حَقًّا بِمُرَايَ قَاسِمِ الدَّوَلِ
 وَاللَّهِ مَا جَارَ قَاضٍ فِي حُكُومَتِهِ
 فَفَازَ مِنْ دَوْلَةٍ بِالسَّؤْلِ وَالْأَمَلِ
 بَلْ بَيْنَمَا الْعَيْنُ تَسْتَحْلِيهِ مُتَصَفًّا
 بِالْجَوْرِ إِلَّا وَأُضْحَى شَرٌّ مُنْعَزِلِ

وقد تفنن الشاعر في التعريض بقاضيين سَمَاهُما، ولكننا لا نعرف

عنهما شيئاً، وهما ابن الأحول الضبي وابن مفضل وجل تعريضه بهما يتألف من بيتين إلا أن كل بيتين يعدلان - في حرارة لدعهما - قصيدة كاملة، والقيسي في تفوقه في نظم البيتين قريب من منصور الفقيه الذي كان يرمح بالزواج وربما هجا بالبيت الواحد.

ومما قاله في القاضي ابن الأحول الضبي (122):

حال ابن الآحول في الترخّص مُعجِبٌ
ما دُمَّ شرعاً عَدَّهُ كِمباحِهِ
ثَمَرُ الْحَدَائِقِ مُنْذُ حُلِّ بِيَسْطَةِ
يَتَنَاعُ جَهْلاً قَبْلَ بَدْءِ صِلَاحِهِ

وهو يشير هنا إلى مسألة فقهية معروفة في باب البيوع، وقد لخص الدسوقي كلام خليل فيها فقال (3: 152): «وحاصل ما ذكره المصنف أن الثمار أي الفواكه والحبوب والبقول لا يصح بيعها إلا إذا بدأ صلاحها أو بيعت مع أصلها أو ألحقت بأصلها المبيع أولاً أو بيعت على الجذّ بقرب إن نفع واحتيج له ولم يكثر ذلك بين الناس، وإن تخلف شرط من هذه الثلاثة منع بيعه على الجذّ كما يمنع بيعه على التبقية أو الإطلاق» وقال فيه (136):

عُدُّ الطَّوَالِقِ أَنْ يَحْضُنَ حَرَائِرًا
جَعَلَ ابْنُ الْإَحْوَلِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا
فَنَكَاحَهُنَّ زِنًا عَلَيْهِ وَزُرُهُ
لِعَظِيمٍ مَا بِالْجَهْلِ مِنْهُ أَبَاحَا

ومما خرج فيه هذا القاضي عن المذهب المشهور وحكم فيه بالقول الشاذ هذه النازلة التي يقول فيها الشاعر (134):

إِذَا طَلَّقَ الْمَرْتَدُّ قَبْلَ ارْتِدَادِهِ
وَعَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَادَ طَلَاقُهُ

ولم يرتَضِ ابنُ الأَحْوَلِ العودَ مذهباً
على أصلِهِ إذ بالشَّدُوذِ اعتلاقُهُ

وقد أفتى الفقيه القاضي ابن سراج الغرناطي معاصر الشاعر بمثل هذا في نازلة مشابهة، جاء في المعيار (3: 250): «وسئل (أي ابن سراج) عن رجل تنصّر وتزوج في أرض العدو نصرانية وأقام معها سنين ثم عاد إلى الإسلام وأسلم وأسلمت هي معه في زمان واحد وخرجا إلى بلاد المسلمين: هل يُقْرَأَ على نكاحهما أو يفسخ بطلاق وبعد ذلك ينشئان عقداً آخر...»

فأجاب: تصفحت السؤال أعلاه والجواب أن المرتد لا يقرّ على نكاحه في حال ردّته على المشهور وهو مذهب المدونة، وقال ابن الماجشون إنه يُقرّ، وذهب إليه ابن حبيب، والمشهور المعول عليه هو الأول، فيفسخ النكاح المسؤول عنه بطلاق، وتربّص المرأة حتى يمضي لها ثلاثة أطهار ويردها الزوج إن أحب...».

هذا يشعّرنّا أن الارتداد عن الإسلام والتنصّر خوفاً أو طمعاً أصبح من مشكلات هذه الحقبة الأخيرة من مملكة غرناطة، وهذا ما تشير إليه المراجع المسيحية وكتب النوازل الفقهية، ومما يدل على ذلك أيضاً قول محمد العربي العقيلي معاصر القيسي في متنصّر ظفر به المسلمون:

ألا ربّ مغرورٍ تنصّر ضلّةً
فحاقّ به شؤمُ الضلالِ وشرُّه

فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا
فكم عندنا من حرفٍ حبلٍ يجرّه

ومن تعريض شاعرنا بأحكام ابن الأحول وادعائه التقدم في الفقه :
(134 - 135):

ما لابنِ الآحُولِ والغُرُورِ بَوْصِفِهِ
في الفِقْهِ بالتَفْضِيلِ والتَّقْدِيمِ
ولزُوجَةٍ قَدْ حُرِّمَتْ رَدَّ الَّذِي
رَأَى الْقُرْآنَ اخْتَارَ بالتَحْرِيمِ

وقال فيه أيضاً (136):

قَالَتْ وَقَدْ مَلَكَتْ بِلَا عِوَضٍ
قَلْبِي أَتَرْجُو رَدَّهُ مِنِّي
قُلْتُ الْبَيُوعُ وَإِنْ مَكَايَسَةً
رُدَّتْ لَدَى الضَّبِّيِّ بِالْغَبْنِ

والإشارة هنا إلى مسألة فقهية وهي أن البيع إذا وقع على وجه
المكايسة فلا رد بالغبن فيه (ح. الدسوقي 3: 121).

والضبي هو ابن الأحول المذكور وقد ورى باسمه في هذين البيتين:
(136):

عَابَ الْكَرَاهَةَ لابنِ أَحْوَلِهِمْ
مَنْ لَمْ يُمَيِّزْهُ مِنَ الصَّحْبِ
قُلْتُ الرِّسُولُ أَتَتْ مُسْطَرَّةَ
أَخْبَارِهِ بِكَرَاهَةِ الضَّبِّ

والشاعر يشير إلى الأحاديث النبوية الواردة في كراهة الضب وكراهة
أكله. انظر الموطأ للإمام مالك.

وله في التعريض به أيضاً، قال: ولها حكاية (136):

نَقَدَ ابْنُ الْإِحْوَالِ مَا رَأَاهُ شَيْخُنَا
 مُسْتَعْمِلًا وَمَتَمِّمًا عَقْدَ الْهَيْبَةِ
 سُحْقًا لَهُ، فَنِكَاحُ بِنْتِ رَبِيبَةٍ
 بَعْدَ الدُّخُولِ بِالْأَمِّ أَضْحَى مَذْهَبَهُ

وشنع عليه مرة ثانية في بيتين لم يسمه فيهما فقال (76):

قَدْ اسْتَوَى فِي بَسْطَةِ جَاهِلٍ
 قَدَمٌ مَعَ الْحَبْرِ الذَّكِيِّ اللَّيِّبِ
 مُذْ صَارَ قَاضِيهَا يَرَى جَائِزًا
 فِي شَرْعِهِ نِكَاحَ بِنْتِ الرَّبِيبِ

وهذه المسألة التي صَوَّرَ فيها شاعرنا جهل هذا القاضي تدلُّ على
 حَذَقِهِ للفقهِ، وإِطْلَاعِهِ عَلَى النِّوَالِ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي مَسَائِلِ ابْنِ رِشْدٍ
 وَنَقَلَهَا صَاحِبُ الْمَعْيَارِ، فَقَدْ سَأَلَ ابْنَ رِشْدٍ عَنْ حَفِيدَةِ الزَّوْجَةِ مِنْ ابْنِهَا أَوْ
 ابْنَتِهَا هَلْ تَحِلُّ لِمَنْ كَانَ زَوْجًا لِلزَّوْجَةِ الْمَذْكُورَةِ أَمْ لَا إِنْ مَاتَ عَنْهُ أَوْ
 طَلَّقَهَا؟ فَأَجَابَ بِأَن قَالَ: إِذَا دَخَلَ بِهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ بَنَاتُهَا وَلَا بَنَاتُ بَنَاتِهَا وَلَا
 بَنَاتُ بَنِيهَا وَإِنْ سَفَلْنَ لِأَنَّهُنَّ بِمَنْزِلَةِ الرِّبَائِثِ.. فَهِنَّ عَلَيْهِ حَرَامٌ، وَهَذَا مِمَّا لَا
 اخْتِلَافَ فِيهِ (2).

ولشاعرنا في هذا القاضي قطعة تتسم بالعنف وتصور غضبه عليه وهي

(138):

قَالُوا ابْنَ الْإِحْوَالِ فِي الْفُضُولِ بَسْطَةً
 لِرَذَالَةٍ فِيهِ تَقَدَّمَ نَاسَهُ
 فَأَجَبْتُهُمْ سَحْقًا لَهُ لِفُضُولِهِ
 ضَرَبَ ابْنُ غَادِرٍ مِنْذُ عَامٍ رَأْسَهُ
 وَالْآنَ أَفْرَطَ فَهَوَ مُحْتَاجٌ لِمَنْ
 لِلَّذِينَ يَكْسِرُ غَيْرَهُ أَضْرَاسَهُ

ويذيقه كأس الردى أدباً له
 إذ لم يذُق فيما تقدّم كاسه
 وصلاحه متعذّر لفساده
 كل غدا منه يحتم يأسه

وقد وقفت على اسم محمد بن غادر من أعيان هذا الوقت في رسم مؤرخ بعام 900هـ يتعلّق ببنته عائشة بنت محمد بن غادر فلعلّه هو الوارد في البيت الثاني من هذه القطعة (وثائق عربية غرناطية: 142).

ولا شك أن شاعرنا ظل يرشق هذا القاضي بسهام تعريضه ويتناولّه بهجائه إلى أن عزل عن القضاء، فلما عُزل قال فيه (104):

عزلوا ابن الأحول عن وظيف قضائه
 لما أتى بالجور في الأحكام
 وأبوا شهادته لجرحته التي
 ثبتت بموجبها لدى الحكام

ولعلّ ابن الأحول هذا هو الذي وصف الشاعر بأنه شيطان فقال يردّ عليه (77):

زعمت وقد أخطأت فيما زعمته
 بأنني شيطان ولست بشيطان
 ولكنما الشيطان أنت حقيقة
 لحبك إذ ترمي سواك بنقصان
 وفيك صفات في الشياطين ألفت
 أشاع بها إقراره كل إنسان
 وفي الحول البادي بعينك شاهد
 يبين صدقي اليوم أوضح تبيان

وثمة قاض آخر ولع الشاعر بالتعريض به والسخرية منه بما لا يقل عن قوله في ابن الأحول وذلك هو ابن مفضل الذي كان قاضياً في بسطة .

ولم نجد له ترجمة في المصادر المعروفة وفي مجموع «وثائق غرناطية» عقد زواج مؤرخ بسنة 842 (1438م) فيه ذكر لعائشة بنت أبي عبد الله محمد بن مفضل، ويخبرنا العقد أن أبا إسحاق إبراهيم ولد عائشة بنت أبي عبد الله ابن مفضل من زوجها أحمد المعروف بالحكيم تزوج فاطمة بنت أبي الحسن علي بن موسى اللخمي القرباقي البسطي كبير علماء بسطة في هذه الحقبة (ت 844هـ)⁽³⁾.

ونظن أن ابن مفضل هذا هو الذي قال فيه شاعرنا (81):

تَبَّأَ لِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضَلٍ
تَبَّأَ لَهُ فِيهِ يَرْوَحُ وَيَغْتَدِي
فَلَقَدْ أَتَى مِنْ حَكَمِهِ بَعْجَائِبَ
أَمْثَالَهَا فِي عَضْرِنَا لَمْ تُعْهَدِ
فَالسَجْنُ عِنْدَ سَوَاهُ مَعْرُوفُ الْمَحَلِّ
وَعِنْدَهُ فَالسَجْنُ جَوْفُ الْمَسْجِدِ
وَيَرَى النِّكَاحَ بِلَا صَدَاقٍ جَائِزاً
رَأَى الْغَوِي الْجَاهِلِي الْمُلْحِدِ
وَيَغَيِّرُ الْأَحْكَامَ عَمَّا أُصِّلَتْ
تَغْيِيرَ جَبَّارٍ عِنْدِ مُعْتَدِي

وشهر به بمثل تشهيره بابن الأحول في مسألة المبتوتة أي المطلقة
بالثلاث فقال:

أَمْبُتُوتَةٌ تَهْوَى الرَّجُوعَ لَزَوْجِهَا
عَلَيْكَ بِقَاضِي بَسْطَةَ ابْنِ مَفْضَلٍ

تَجِدُ قَاضِيًا ذَا مَذْهَبٍ غَيْرِ ضَيْقٍ
يَجِيزُ بِلَا تَقْوَى نِكَاحَ الْمُحَلَّلِ

والمحلل هو الزوج الذي طلق زوجته بالثلاث يتفق مع رجل يعقد عليها ولا يطأها كي تحل له، وهذا رأي لسعيد بن المسيب أخذ به بعض المتساهلين الذين خرجوا عن مذهب مالك وقالوا إن لفظ النكاح في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ مطلق على مجرد العقد، وللمازري إملاء في هذه المسألة نقله صاحب المعيار⁽⁴⁾، وقد وجدنا في القرن السابع قاضي سلا ينتقد أحد المفتين لكونه أفتى بتحليل المبتونة⁽⁵⁾.

وقال في غرض التعريض بالمذكور عندما كان نائباً عن القاضي أبي حامد ابن الحسن (29، 81):

عَجَباً لِقَاضٍ حُكْمُهُ
أَمْضَى مِنَ السُّمْرِ الرَّقَاقِ
جَازَتْ شَهَادَاتُ النِّسَاءِ
ءِ لَدَيْهِ حَتَّى فِي الطَّلَاقِ

وهو هنا يشير إلى مسألة فقهية وهي شهادات النساء وهي إنما تجوز عند ابن القاسم في مواضع محددة وبشرط شهادتهن مع رجل إلا فيما يرجع إلى الحيض والحمل وشبه ذلك من أحوال المرأة فشهادة امرأتين تقوم مقام رجلين.

ولعله يسخر من تحريفه في صحيح مسلم وعدم إحكامه لرسم المصحف في هذين البيتين المحرفين في الأصل (82):

إِنْ شِئْتَ خَرَقًا ثَابِتًا مِنْ «مُسْلِمٍ»
أَوْ مُصْحَفًا كَسَفَ الْمُؤَلَّفَ أَخْرَفَهُ
فَانْظُرْ كِتَابَ الشَّاهِدِ ابْنِ مَفْضَلٍ
فَبِهِ هَدَيْتَ بِدَائِعِ مُسْتَطَرَفِهِ

وكلمة الشاهد في البيت معناها العدل والموثق، ويبدو أنه قالهما فيه عندما كان المذكور شاهداً أي عدلاً.

إن ما وصفه الشاعر من حال هذين القاضيين وما ذكره من أحكامهما سلب خطة القضاء في مدينة بسطة وغيرها ما كان لها من هبة وجلالة والسبب هو تولية من ليس أهلاً لهذه الخطة، ولهذا نجد الشاعر يخاطب بعض أولي الأمر في هذا الشأن قائلاً (101):

تعطف على الأحكام واستبق رسمها
بإنقاذها ممن بها اليوم يلعب
فقد سلبت في بسطة أصل وضعها
بتقديم من لولاه لم تك تسلب

ويقول (97):

إن لم تغير منكراً فينا، فشا
حتى [يعم] بمشرق وبمغرب
أفتى لدينا أحمد بن رقية
وولي القضاء محمد بن المغربي
وتحدث السمار من أخبارنا
بالمضحك المستبدر المستغرب

ولا نعرف من هو القاضي محمد بن المغربي، أما أحمد بن رقية فقد تكون له علاقة بإبراهيم بن موسى بن رقية أحد المفتين الوارد ذكرهم في المعيار (4: 492).

ومن الغريب حقاً أن نجد شاعرنا بعد هذا كله يرثي ابن مفضل بقصيدتين توجع لفقده فيهما، وترحم عليه، وقال إنه كان يُحكّم عقد الشروط، ويسير في أحكامه على نهج الصواب، ويجري في قضائه على وفق الشريعة ويقول في إحدى القصيدتين (112):

فمضى وكان مصلياً جمّ التلاوة للكتاب
 يبكي بدمعٍ دونه مهما تلا صوب السحاب
 وإذا تحدّث عنده بالذنب يفصح بالمتاب
 يرجو بما يأتي به من فعله حسن الثواب
 يا ربّ آمن خوفه وارحمه في يوم الحساب

وإذا صحّ أنّ ذاك المهجو هو هذا المرثي، والغالب أنه هو، فقد يكون حاله صلح فيما بعد، وتم الصفاء بين شاعرنا وابن مفضل قبل مماته.

وكانت خطة العدالة والتوثيق - حسب الشاعر - أسوأ حالاً من خطة القضاء وقد اشتغل هو نفسه بخطة العدالة وكان فيها من الحذاق المبرزين ولكنه عزل عنها مرة بتواطؤ من بعض خصومه ومنافسيه في الصنعة وهو ينعت هؤلاء بالجهل ويقول فيهم (139):

تعاطى خطة التوثيق من لا
 لفرط الجهل رسم الخط يعرف
 فكيف لشئيه إنشاء رسم
 بتوكيل امرئٍ وعليه مشرف

وقال في المعنى نفسه (139):

تحكم في التوثيق قومٌ بجهلهم
 إلى أن أتوا فيه بما ليس يعرف
 وأعجب ما جاءوا به في عقودهم
 وكيل عليه في الوكالة مشرف

وهذا الصنف من العدول لجهلهم، وضعف شخصيتهم معروفون بتملّق القضاء وتقبل الإهانة منهم بينما العدول المبرزون - وكان الشاعر

منهم - لا يرضون بذلك، وهذا ما عبر عنه الشاعر في قوله مخاطباً بعض القضاة (113):

بذلُ النصيحةِ واجبٌ لك سيدي
فأصِخْ فعنك نصيحتي لم أخزِنِ
إنَّ العُدُولَ من الشَّهودِ يَسوءُهُم
جَعَلَ المبرِّزِ منهم كالمُخزَني

والمخزني في استعمالنا هو العَوْن، ويقول مخاطباً بعضهم (113):

رأيتُ عَظيمةً أَشفقتُ منها
وشيمةٌ سيدي دَفَعُ العِظائمِ
عدولك في حوائِثهم قعودٌ
وغيرُ العدلِ بالتحليفِ قائمٌ

وخاطب بعض القضاة الذي حاز مستحقات له لدى شخص يدعى ابن عجيب (77):

أيُّها القاضي المُنتَقى مِنْ أناسٍ
ليسَ فيهِمُ سِواءه مِنْ نَجيبٍ
ما الذي غَرَّ ذلكَ المَجْدَ حَتَّى
حازَ ما كانَ لي لَدَى ابْنِ عَجِيبٍ

وقد وقفنا في وثائق عربية غرناطية (77)، على ذكر «المرحوم أحمد بن عجيب» من أعيان بسطة وذلك في رسم مؤرخ في صفر عام 880 فلعله المذكور في آخر البيتين.

ويقول في مخاطبة قاضٍ آخر (121):
بِرْعِي عُدُولِ الوَقْتِ غَيباً وَمَشْهُداً
تحلُّ من الفردوسِ أَعلى الأرائكِ

وقد ساءَهُمْ أن يُحْرَمُوا كُلَّ فائِدٍ
لديكَ اغْتَدَى حَتَّى حُضُورَ التَّرَائِكِ

والتراثك في استعمال عدولنا هي التركات. وحسب الشاعر فقد انتهى
الحال بخطة التوثيق إلى التعطيل، وله قصيدة طويلة تقع في 42 بيتاً قالها
«لما وقع تعطيل التوثيق ببسطة» وهذه القصيدة كالمراثية بدأها الشاعر بقوله
(94):

ما للدموع بَصْفَحِ الخَدَّ تَطَرَّدُ
وللضُّلُوعِ بِنَارِ الوُجْدِ تَتَقَدُّ

ويقول:

خَطْبُ أَلَمٍ فَلَمْ يَسْطِيعْ تَحْمَلَهُ
لفرط وطأته قَلْبٌ وَلَا خَلْدُ
تَصَدَّعَتْ كِبْدُ الدِّينِ الحَنِيفِ لَهُ
فَالدِّينُ لَيْسَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ كِبْدُ

ثم يصف تألم الناس في بسطة لتعطيل التوثيق الذي كان روح الحياة
الدينية وشعار الإسلام فيها، تحفظ به المعاملات وتضان معه الحقوق، والشاعر
يشير إلى فقيهين تواطئا مع حاكم على هذا الأمر الخطير:

إِلَّا فُقَيْهَيْنِ لَا كَانَا وَلَا وُجِدَا
فِي النَّاسِ، لَمْ يَجِدَا مِثْلَ الَّذِي وَجَدُوا
وَأَخْفَرَا لِعِتْقَادِ السَّوِّ ذَمَّتْهُ
مَعَ عَاضِدٍ لُهُمَا يَا بَشَسَ مَا اعْتَصَدُوا

كما يشير إلى ترويع الموثقين وتخويفهم ويتساءل عن سبب إهمال
التوثيق وتعطيله ومما تساءل عنه قوله:

تُراهِمْ قَصَدُوا تَشْرِيفَ رُتْبَتِهِ
 بِذَاكَ وَاللَّهِ مَا تَشْرِيفُهُ قَصَدُوا
 تَراهِمْ اعْتَمَدُوا إِصْلَاحَ فاسِدِهِ
 بَلِ الْفَسَادُ بِمَا قَدْ أَصْلَحُوا اعْتَمَدُوا

ثم يعود فيقول في هؤلاء الذين عطلوا التوثيق:
 خَلَّوْا صَرِيحَ كِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَنْدُوا
 لِباطِلٍ بِشَسْ مَا عَمَدًا لَهُ اسْتَنْدُوا
 خَانُوا الشَّرِيعَةَ بِالْفِعْلِ الَّذِي فَعَلُوا
 يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ مِنْهُمْ لَهَا قَوْدُ
 لَقَدْ أَتَوْا مُنْكَرًا يَبْقَى الْحَدِيثُ بِهِ
 يُرَوَّى وَيُسْنَدُ عَنْهُمْ مَا بَقِيَ الْأَبْدُ
 فَدَعَّاهُمْ وَالَّذِي جَاءُوا بِهِ سَفَهًا
 فَدَعَّاهُمْ إِنَّهُمْ يَلْقَوْنَ مَا وَعَدُوا
 وَكُلُّ مَا عَقَدُوا يَنْحَلُّ مَبْرُمُهُ
 إِذَا انْقَضَى وَقْتُهُ يَنْحَلُّ مَا عَقَدُوا

وفهم من البيت الأخير أن هذا التعطيل ربّما رفع وعاد التوثيق من جديد إلى بسطة، ولا نعرف شيئاً عن هذه الحادثة التي دونها الشاعر، وربّما كانت في عهد بعض الجبابرة ذوي النفوذ في بسطة، فقد ذكر القُلْصَادِي في رحلته أن أبا الحسن اللخمي شيخ الجماعة في هذه المدينة «خرج من بسطة بسبب بعض الجبابرة في وقته إلى برشانة من وادي المنصورة وذلك ليلة الجمعة لأربع بقين من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وثمانمائة. ووافق يوم الجمعة المذكور الثامن من ينير (1434)، وأقام بها نحو العشرة أشهر ثم عاد إلى بسطة إلى أن توفي بها في زمن الوباء عاشر يوم من صفر عام أربعة وأربعين وثمانمائة»⁽⁶⁾.

ويبدو أن الأمر فيما سَمَّاهُ شاعرنا الفقيه «تعطيل التوثيق» يتعلق بتغيير في مسطرته أو إصلاح لها كما سَمَّاهُ القائمون به حسبما ورد في بيت سابق، وهذا التغيير بادٍ في الوثائق التي كتبت فيما بعد منتصف القرن التاسع حتى سقوط غرناطة، وقد تنبه لهذا الأستاذ لويس سيكودي لوثينا وقال: «إن الوثائق الغرناطية التي أنشرها الآن والتي تصل تواريخها إلى تاريخ سقوط غرناطة تتضمن صيغاً مخالفة لتلك التي نجدها في مجموع ابن سلمون الذي يدخل في عداد فقهاء غرناطة ويتبع طريقتها في تحرير الشروط». ولاحظ أن تلك الوثائق «تتضمن تعبيراً غريباً خارجاً عن القواعد التي كانت تطبق بها الأصول الفقهية الجارية في الفقه الأندلسي»⁽⁷⁾ وقد رأينا فيما سبق كيف أن شاعرنا الفقيه القيسي كان معجباً بوثائق ابن سلمون ملتزماً بالعمل بها مخالفاً من يتكلم فيها قال (92):

فخذها لحُكْمٍ أو لَعَقْدٍ وثيقةٍ
على ثقةٍ منها بشرحٍ وتبيينٍ
ولا تلتفتِ فيها إلى قولِ قائلٍ
وكنْ بالذي جاءتْ به جدُّ مفتونٍ

ويبدو أيضاً أن الشاعر عارض الخروج على نهج وثائق ابن سلمون فأحرق حانوته وأودى لا لسبب سوى أنه يقول الحق ويراعى أصول التوثيق:

وأَمُوا جميعاً بالإذايةِ جانبي
على غير ذنبٍ للأذى بمُحلِّلٍ
سوى أنني أصبحتُ للحقِّ ناصراً
ولم ألتفتِ منهم إلى عذْلٍ عُدْلٍ
وراعيتُهُ إذ لم يُراعوه ضلَّةً
وصار لديهم منهلًا أيٌّ منهلٍ

وَأَبْدُوا مِنَ التَّأْوِيلِ رَأْيًا مُوَهَّنًا
وَمَا أَحْسَنُوا فِي رَأْيِهِمُ وَالتَّأْوِيلِ

ومما يشبه شعر البسطي في هذا الموضوع:

فَسَدَتْ صِنْعَةَ التَّوَثُّقِ لَمَّا
أَنْ بَدَأَ كُلُّ جَاهِلٍ يَدْعِيهَا
لَمْ تَكُنْ غَيْرَ رَوْضَةٍ فَاسْتَبِيحَتْ
فَغَدَا كُلُّ نَاعِقٍ يَرْتَعِيهَا

ولم يُعَفِّ شاعرنا الفقيه من نقده بعض الأئمة والخطباء والمقرئين والمدرسين، وربما لم يبرأ نقده من ملابسات المعاصرة، وها هو يقول في بعض معاصريه من الفقهاء (82):

بِأَبِي فَقِيهٍ حَافِظٌ مُتَفَنِّنٌ
بِالنَّحْوِ دُونَ سِوَاهُ أَضْحَى يُشْهَرُ
يَتْلُو وَيَكْتُبُ حَرْفَ «تَقَهَّرَ» فِي الضَّحَى
مِنْ جَهْلِهِ بِالرَّفْعِ مَعَ «لَا تَنْهَرُ»
وَإِذَا يَرُومُ رُجُوعَهُ عَنْ لَحْنِهِ
أَحَدٌ بِمُضْجَفِهِ لَهُ يَسْتَظْهَرُ
يَأْبَى الرُّجُوعَ لَهُ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ
خَلَّلَ بِمُضْجَفِهِ الْعَتِيقِ مُسْطَرُّ
الْجَهْلُ يَوْعُ أَهْلَهُ فِي مُنْكَرٍ
يَبْقَى عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي يُذَكَّرُ
وَمَنْ الدَّلِيلُ عَلَى جَهَالَتِهِ الَّتِي
تَبْدُو مَخَايِلُهَا عَلَيْهِ وَتَظْهَرُ

تَخْصِيصُهُ بِوَدَادِهِ مَنْ جَهْلُهُ
 بَادٍ وَيَهْرُبُ مِنْ سِوَاهُ وَيَنْفِرُ
 بِاللَّهِ مِنْ شَيْطَانِهِ أَنَا عَائِدٌ
 فِيهِ يَعُوذُ مِنَ الْوَرَى مَنْ يَحْذَرُ
 وقال معرضاً بخطيب (68):

وَحَطِيبٌ لَمْ تَرَ الْعَيْنُ لَهُ
 فِي الْوَرَى مِثْلًا إِذَا مَا يَخْطُبُ
 طَوَّلَ الْخُطْبَةَ حَتَّى كَادَ مِنْ
 طَوْلِهَا وَقْتُ الصَّلَاةِ يَذْهَبُ
 خِلْتَهُ وَهُوَ عَلَى مَنْبَرِهِ
 فَاغْرَأَ فَاهُ غَرَابًا يَنْعَبُ
 وَكَأَنَّ الْمُسْمَعِينَ الْوَعْظَ لِلنَّ
 حَوْمٍ مَوْتَى فِيهِمْ يُسْتَفْرَبُ
 يَا نُبَاحَ الْكَلْبِ أَنْتَ الْمُشْتَهَى
 دُونَ مَا يَأْتِي بِهِ، الْمُسْتَعَذَّبُ

وقال في التعريض بأحد المدرسين (75):
 يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَوْصِيكَ فَاسْمَعْ
 مِنْ نَصِيحٍ مُرَادُهُ صَوْنُ عِرْضِكَ
 اتْرُكِ الْبَحْثَ فِي كِتَابِ الْمُوطَا
 وَالتَّمَسُّ مَا يُفِيدُ مِنْ حَرْثِ أَرْضِكَ

وداعب أحد أصحابه من الأئمة الذين لا يحفظون القرآن حفظاً جيداً
 ناصحاً إياه أن يشفع بالقرآن في القرى الصغيرة التي لا يوجد فيها من
 يحفظ القرآن فيكتشف حاله، قال (80):

اسْمَعْ وَصِيَّةَ نَاصِحٍ لَكَ مُشْفِقٍ
يَبْغِي الْخَلَاصَ لِنَفْسِكَ الْمُسْكِينَةَ
مَهْمَا دَعَتْكَ ضَرُورَةٌ لِتَشْفَعَ
فَاقْصِدْ قُرَى نَجِيظَةً وَمِسِينَةَ
فَإِذَا أَرَدْتَ سِوَاهُمَا لَا تَرْتَحِلْ
إِلَّا إِلَى تَلَوْنَ أَوْ مِيرِينَةَ

ونجيطه ومسينه وتلون وميرينه أسماء قرى من جهات بسطة.

وننتقل بعد هذا إلى موضوع آخر تناولته الشاعر الفقيه بالنقد، وأكثر فيه القول، ألا وهو الإحباس التي كانت بالنسبة لمثله من الأئمة والمقرئين والمدرسين مورد الرزق والعيش، وقد رأينا فيما سبق معركة صاحبنا مع ناظر الأحباس الذي كان يمنع عنه حقه فيها حين كان طالباً ومرتبته منها عندما أصبح إماماً ومقرئاً وخطيباً، ويدلنا بعض شعره على أنه كان يحاول الاستفادة منها بواسطة اكتراء بعض أراضيتها للفلاحة، ومن هنا كان اهتمام الشاعر بهذا المرفق الاجتماعي الحيوي، وتدلنا كتب النوازل على أن الأحباس في مدينة بسطة وغيرها من المدن والقرى في مملكة غرناطة كانت كثيرة ومتعددة الوجوه وكان ينتفع منها عدد لا بأس به من المجتمع الأندلسي في ذلك العصر.

وقد سرى في هذه المؤسسة الاجتماعية قبيل سقوط مملكة غرناطة كثير من الضعف والانحلال وظهر هذا في إهمال المساجد وتعرضها للضياع والتهدم والخراب وهذا ما تشير إليه كتب النوازل ويشهد به كلام الشاعر، فها هو يوجه الخطاب إلى أهل بلده بسطة قائلاً (77):

يَا أَهْلَ بَسْطَةَ مَالِكُمْ فِي عَفْلَةٍ
عَمَّتْ وَأَمِنَ مِنْ حُلُولِ الْبَاسِ
وَمَسَاجِدِ اللَّهِ الَّتِي فِي مِضْرَكُمْ
ضَاعَتْ لِعَفْلَةٍ نَاطِرِ الْأَحْبَاسِ

كما خاطب الرئيس القاضي الماجد أبا عمرو ابن منظور في شأن
الأحباس بهذه الأبيات (91):

يا أيها الماجد المأمول جانبُهُ
لِحِفْظِ الأَحْبَاسِ مِنْ عَادٍ وَمُقْتَرَسِ
اللَّهِ فِيهَا فَقَدْ ضَاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ
وَأَصْبَحَتْ فِي عِدَادِ الأَرْبَعِ الدَّرُسِ
وَلِلْمَسَاجِدِ يَسْرِي أَمْرٌ ضَيَعَتْهَا
إِنْ حَقَّهَا دُونَ أَحْبَاسِ الْبِلَادِ نُسِي
وَقَدْ أَتَتْكَ بِمَا تَلْقَاهُ شَاكِيَةٌ
مَعَ أَنَّهَا وَصَفَتْ بِالْعِيِّ وَالْخَرَسِ
وَمُشْرِفًا وَشَهِيدَيْنِ انْظُرَنَّ لَهَا
وَنَازِرًا طَاهِرَ الأَعْرَاضِ مِنْ دَنَسِ
لَا زَالَ جَانِبُ ذَاكَ الْمَجْدِ مُرْتَفِعًا
مَبْلَغَ الْقَصْدِ مِنْهُ كُلُّ مُلْتَمِسِ

وخاطب بعض الأعيان - ولعله ابن منظور أيضاً - في شأن الأحباس
المعينة لبيوت الله بقصيدة أشار في أولها إلى الغبن الحاصل في كرائها من
قبل النظار، وذلك أنها كانت تক্রى بصرف الدرهم السبعيني وعلى نسبته
ثم تبدلت السكة ونقصت ولم تتغير النسبة وفي هذا إجحاف بحقوق
الأحباس، قال (127):

يا خَيْرَ مَنْ يُرْجَى عَلَى التَّعْيِينِ
لِصَّالِحِ دُنْيَانَا وَحِفْظِ الدِّينِ
يا نُخْبَةَ الأَعْيَانِ مِنْ أَهْلِ التَّقَى
مَنْ مَغْرِبٍ حَتَّى لِأَقْصَى الصِّينِ

أَحْبَسُنَا تَشْكُو إِلَيْكَ بِحَالِهَا
 مِنْ بَخْسِهَا وَكِرَائِهَا الْمَغْبُونِ
 وَتَقُولُ إِنَّ كِرَاءَهَا لَمْ يَنْعَقِدْ
 إِلَّا بِصَرْفِ الدَّرْهِمِ السَّبْعِينِ
 وَمِنْ الْعِظَائِمِ عِنْدَهَا تَعْرِضُهُ
 بِالدَّرْهِمِ الْجَارِي بِهَذَا الْحِينِ
 لِلزَّهْدِ فِيهِ وَكَوْنِهِ مِنْ غِشِّهِ
 مَتْنَاهِيَا فِي وَصْفِهِ بِالذُّونِ

وهذا الذي ذكره الشاعر في موضوع السكة يوجد ما يُطابقه في كتاب المعيار⁽⁸⁾، فقد سئل أبو عمرو ابن منظور القاضي عن «أن الوظائف الموظفة على الأرضين بجزيرة الأندلس المسماة بالمعونة، كانت موضوعة في القديم على نسبة الدراهم السبعينية، وظفت عليها لتقوم بها مصالح الوطن... ثم إن السكة تبدلت ونقصت على ما في علمكم...».

وقد ذكر ابن عاصم في شرحه لتحفة والده فتوى ابن لب في المسألة وعلق عليها بقوله: «وأشد من ذلك ما وقع في عام ستة وثلاثين من هذا القرن التاسع وفي العامين بعده من اختلاط السكة بالنحاس إلى أن صدر الأمر من السلطان سدده الله بقطع تلك السكة».

وقد أشار الشاعر في موضع آخر إلى هذا العيب الذي أصاب السكة فقال مورياً بامرأة لقبها قيراطة (115):

الْغِشُّ عَيْبٌ وَهَوٌّ فِي صَرْفِنَا
 قَدْ أَحْكَمَ التَّضْيِيعُ إِفْرَاطَهُ
 فَصَرْفْنَا دِرْهَمَهُ لَمْ يُعَبْ
 مَنْ دَمَهُ أَوْ دَمَ قِيرَاطَهُ

ويعبر الشاعر بعد هذا عن تطلع الأحباس لنصرة هذا السيد وعمل ما
في وسعه من أجلها ثم يذكر إهمال المساجد ويجعلها تشكو بلسان الحال
وتصف خرابها وأكل نظار الأوقاف أموالها، قال :

وَتَرُومُ مِنْكُمْ نَصْرَهَا وَتَعُدُّهُ
لِحُصُولِهِ فِي حَيْزِ الْمَضْمُونِ
فَتَفْضَلُوا مِنْهُ بِمَا فِي وَسْعِكُمْ
فَالْأَجْرُ فِيهِ لَيْسَ بِالْمَغْبُونِ
فَبِهِ حَيَاةُ مَسَاجِدِ إِهْمَالِهَا
لِظَهْوَرِهِ يَغْنَى عَنِ التَّبَيِّنِ
تَبْكِي الْعُيُونُ وَلَا تَمَلُّ لِمَا بِهَا
مِنْ ضَيْعَةٍ مِنْ دَمْعِهَا يَهْتُونِ
هَانَتْ عَلَى عُمَارِهَا فَتَهَاوَنُوا
مِنْهَا بِعَلَقٍ - لَا يُنَالُ - ثَمِينِ
حَتَّى لَخَافَ أَوَّلُو النَّهْيِ أَنْ يَنْتَهِيَ
بِهِمُ التَّهَآؤُنُ لِانْجِرَارِ الْهُونِ
فَتَهَدَّمَتْ بَعْدَ الْبِنَاءِ وَأَضْبَحَتْ
مِنْ عُرْبِهَا فِي خَلْعَةِ الْمَسْكِينِ
تَشْكُو لَكُمْ بِلِسَانِ حَالٍ قَائِلٍ
مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي أَوْ يَكْسُونِي
لَهْفِي عَلَى قَوْمٍ بَنَوْنِي وَاعْتَنَوُا
مِنْ وَقْفِهِمْ لِي بِالَّذِي يَكْفِينِي
مَاتُوا فَمَوْتِي بِالْخَرَابِ مُحَقَّقُ
إِذْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُحِينِي

وَجَمِيعُ أَوْقَافِي - عَلَى مَا حَلَّ بِي
مِنْ فَاقَةٍ - تُجِبِّي وَتُؤَكِّلُ دُونِي

وشكوى المساجد هنا تذكرنا بالرسالة التي كتبها ابن محرز على لسان مساجد القرى في الشام، ومما جاء في شكوى إحداها: «الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب، وصير أموالنا كالسراب، وجعلنا مأوى البوم والغراب، أحمدُه حمد من كان فقيراً ثم استغنى، وأذكرك بمال الوقف ما تمنى» وجاء في هذه الرسالة أيضاً «أن الخراب قد استولى على المساجد، حتى خلت من الراكع والساجد، فأصبحت مساجد الغوطة غيطان، لا سقف لها ولا حيطان، وجوامع حوران مخازن وأفران، ومشاهد البقاع صفصفاً كالقاع»⁽⁹⁾.

وإذا كان في كلام الوهراني شيء من المزح فإن كلام صاحبنا البسطي جدٌ في جد، فقد أشارت كتب النوازل إلى ما حلَّ بمساجد الثغور كبِلش وبسطة من خراب (المعيارج 7)، وبعض أسباب هذا الخراب يرجع إلى محنة الناس يومئذ وانشغالهم بمدافعة غارات أعدائهم، ولكن بعضها الآخر يرجع فيما يقول الشاعر إلى إهمال النظار وأكلهم أموال الأعباس بالباطل.

أما بقية القصيدة فيدور حول تعليق الرجاء على المخاطب في أن يغير هذا المنكر وينظر في إصلاح أحوال الأعباس.

إن الشكوى من سوء الأحوال في بسطة وغيرها سمة بارزة في ديوان القيسي، وتنديده بالظلم والجور سارٍ في عموم شعره، وكان يتأذى من عدم احترام الناس لأئمتهم وعلمائهم، ومما قاله في أهل بسطة من قصيدة (151):

مَنَاهُمْ مَدَى الْأَيَّامِ ذُلُّ إِمَامِهِمْ
وَذُلُّ إِمَامِ الْقَوْمِ مِنْ أَقْبَحِ الْأَشْيَا

وقال في أهل المنكب الذين تهاونوا بإمامهم (111):

وإن أناساً بالإمام تهاوتوا

لأفضل منهم في اليهود وفي الروم

وقال في هذا الشأن يخاطب أحد أهل العلم والصّلاح ويسأله الدعاء

(91):

يا وحيد الزمان ديناً وفضلاً

وجلاً وفي العلوم اتساعاً

أي ذلّ أصابنا بين قوم

أهملوا الذين عن وفاق فضاء

رعو الباطل المذمم فينا

وغدا فينا الحق ما إن يُراعى

دعوة الفضل منك للدين نرجو

ها هنا إن ركنه قد تداعى

فتفضل بها على ظهر غيب

نتخذها لما نخاف دفاعاً

واعتمد وصلها صباح مساء

فبها للخطوب نرجو انقطاعاً

ومما أعلن فيه تذمره من إهمال الدين وغلبة الجور والظلم وضیعة

العدل والحق هذه الأبيات التي جعلها في صدر رسالة له إلى بعض

أصحابه (92):

أنس ولو بكتابك منك مهموما

يرى ببسطة زين العيش مذموماً

أضحى إماماً بها لو لم يجز زمن

أعادته بتوالي الجور مأموما

عَدَا وَأَفْرَطَ حَتَّى الدِّينِ غَيْرَهُ
فَدَالُهُ رُدُّ بَعْدَ الْكَسْرِ مَضْمُومًا
كَمْ شُمَّ فِيهَا لَطِيبُ الْعَدْلِ مِنْ أَرْجٍ
وَمَا سَوَى الْجَوْرِ يُلْفَى الْآنَ مَشْمُومًا
فَبَارِدُ الْعَيْشِ فِيهَا الْيَوْمَ يَحْسِبُهُ
لَضَيْعَةِ الْحَقِّ غَسْلِينًا وَيَحْمُومًا

وهكذا انقلبت الأحوال فأصبح الإمام مأموماً والدين دوناً وبدلت رائحة العدل الزكية برائحة الجور الكريهة وصار الماء ألغذب البارد كالغسلين أو اليحموم.

ونشير في آخر هذا الفصل إلى أن الشاعر سجل - فيما سجله من أحوال عصره وبلده - أزمت الجذب وانحباس المطر، ومما قاله عند توالي قحط واتصاله متوسلاً إلى الله سبحانه بجاء نبيه أن ينزل الغيث على عباده (113):

يَا مَنْ يُؤْمَلُ لُطْفُهُ
عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ
بِمَحَمَّدٍ خَيْرِ الْوَرَى
مَا بَيْنَ عُجْمٍ أَوْ عَرَبٍ
أَنْزَلَ عَلَيْنَا رَبَّنَا
مَطَرًا كَأَفْوَاهِ الْقِرْبِ
نَجْبُرُ بِهِ مِنْ حَالِنَا
مَا اخْتَلَّ مَحَلًّا وَاضْطَرَبَ
وَتَبَلَّغَ النَّفْسَ الَّتِي
يَسْتُ بِهِ أَسْنَى الْأَرْبِ

وقال في قطعةٍ أخرى عند شدةٍ قحطٍ:
يا رَبَّ يا رَبَّ بِالْآيَاتِ وَالسَّوَرِ
وَأَحْمَدَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِ
بَنُوْرِ وَجْهِكَ يَا رَبَّ الَّذِي بَهَّرَتْ
أَنْوَارُهُ مَا بَدَا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
بِمَا بِهِ قُلْتُ لِلْأَشْيَاءِ كُنْ فَأَتَتْ
تَرَوْقُ فِي أَجْمَلِ الْهَيْئَاتِ وَالصُّوَرِ
ارْحَمْ ضَرَاعَتَنَا وَاقْبَلِ وَسَلِّتْنَا
وَأَمْنُنْ عَلَيْنَا بِمَا نَرْجُو مِنَ الْمَطَرِ
وُخْصَ مِنْ صَوْبِهِ الْهَتَّانِ أَرْبُعَنَا
بِوَاكِفِ وَابِلِ جَوْدٍ وَمُنْهَمِرِ
تُخْيِي الزَّرْوَعَ الَّتِي بِالْقَحْطِ قَدْ يَبَسَتْ
وَمَا بِهِ جَفَّ مِنْ بَقْلٍ وَمِنْ خُضَرِ

ولكنه صور أيضاً خيرات بسطة في زمن العصور وهو موسم الجني عند الأندلسيين، قال يصف باكوراً مختلف اللون (113):

وَبَاكُورِ بَسْتَانٍ دَنَا وَقْتُ جَنِّهِ
فَأَضْحَى يَرَوْقُ الطَّرْفَ عِنْدَ التَّوَسُّمِ
لَهُ مَطْعَمٌ كَالشَّهْدِ عِنْدَ مَذَاقِهِ
وَرَائِحَةٌ كَالْمِسْكِ عِنْدَ التَّنَسُّمِ
وَكَالْمِسْكِ وَالْكَافُورِ أَوْ كَزُمُرْدٍ
وَكَالْتَيْنِ مِنْهُ اللَّوْنُ عِنْدَ التَّقْسُّمِ
عَدَا الْغُصْنُ مِنْ أَنْوَاعِهِ الْغُرُّ مُثْمِراً
بِأَحْقَانِ شَهْدٍ شَيْبَ فِيهَا بَسْمِمْ

إِذَا بَكَرَ الْجَانِي يُؤْمَلُ جَنِيهُ
تُلَاقِيهِ إِعْجَاباً بِهِ ذَا تَبَسُّمٍ

وقد تقدّمت نماذج من وصفه لفواكه بساتين بسطة وفلاحة السقي فيها.

كما نشير أيضاً إلى شعره الذي أنشأه ليكتب على بعض الأدوات
الحضرية كأقداح الفخار الذي اشتهرت بصناعته مملكة غرناطة والمراوح
الأندلسية وخزائن الكتب والأقواس والتروس ومُعَدَّ الدراهم، ومرشم الخبز،
وكذلك شعره في حمامات بسطة ومساجدها ومتنزهاتها. وإشارته إلى ركب
الحجاج الأندلسيين، وما يصحبونه للإهداء عند عودتهم.

ومن شأن هذا كلّهُ أن يؤلف مادّة نافعة في معرفة هذه الحقبة التي
ضاعت مصادرها العربية، والقليل المعروف عنها مأخوذ من الحوليات
المسيحية.

الحواشي

- (1) بدائع السلك لابن الأزرقي ج 1 ص 249.
- (2) المعيار المعرب 33: 385.
- (3) وثائق عربية غرناطية: 8.
- (4) المعيار المعرب 3: 331.
- (5) أبو المطرف أحمد بن عميرة: 132.
- (6) رحلة القلصادي: 90.
- (7) وثائق عربية غرناطية: 3م.
- (8) المعيار المعرب 11: 127، 7: 142، 153، 165.
- (9) منامات الوهراني: 63 - 64.

بين الجبد والهزل

جمع القيسي البسطي - كما يبدو من خلال شعره - بين هزل الأدباء وتظرفهم وجد الفقهاء وتحفظهم، ولعلّ هذا ما يفسر لنا وجود المستملحات والغزليات إلى جانب الابتهالات والزهديات في ديوانه، ويفهم من شعر له أنه عرف في شبابه بالهزل ولكنه بعد بلوغه سن الرشد عدل عن مآخذ الهزل إلى طرق الجد، قال (135):

دِنْتُ بِالْجِدِّ فَقَالُوا: عَكْسُهُ
مَذْهَبٌ لِي، قَوْلَ قَوْمٍ مُفْتَرِينَ
قُلْتُ: مَا أَقْبَحَ عَكْسَ الْجِدِّ لَا
سِمْمَا بَعْدَ بُلُوغِ الْأَرْبَعِينَ

ونحن نجد في ديوانه ميّالاً إلى الإطالة في النسيب في مقدمات قصائده المدحية والإخوانية، كما أن له قصائد ومقطعات غزلية متعددة، ومما يدل على ميله إلى الهوى وولعه بالغزل قوله من قصيدة (41):

وَرَزَّيْتِي فِي هَوَى الْغَيْدِ الْحِسَانِ سَمَتْ
 حَتَّى بَدَتْ لِللَّوْرِ مِنْ دُونِهَا الرُّتَبُ
 وَلِي بِهِنَّ وَلَوْعٌ لَا خَفَاءَ بِهِ
 وَكَيْفَ يَخْفَى وَلَوْعِي وَالْهَوَى السَّبَبُ
 وَلَسْتُ أُعَشِّقُ إِلَّا مَنْ لَهَا شِيَمٌ
 مَنَالُ أَقْرَبِهَا مِنْ دُونِ الشُّهُبِ

وقد أحب في شبابه واحدة تدعى فاطمة وقال فيها قصيدة أولها (41):

قُرْبُ الْأَحِبَّةِ بَعْدَ الْبُعْدِ مُرْتَقَبٌ
 وَوَصْلُهُمْ بَانْصِرَامُ الصَّدِّ مُعْتَقَبٌ

ومنها:

وَمَا أُعَانِيهِ مِنْ وَجْدِي بِفَاطِمَةٍ
 أَجَلٌ خَوْذٍ إِلَيْهَا الْحَسَنُ يَنْتَسِبُ
 فَمَقُولِي قَاصِرٌ عَنْ وَصْفِهِ أَبَدًا
 وَلَوْ غَدَا عَاضِدِي فِي وَصْفِهِ الْأَدَبُ
 وَهِيَ الَّتِي فَتَنَّتْنِي مِنْ مُحَاسِنِهَا
 بَغْرَةً مِنْ سَنَاها يَعَجُّ الْعَجَبُ
 إِذَا بَدَتْ لِحِظَةً وَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ
 تَكَادُ مِنْ حَسَدٍ تَخْفَى وَتَنْحَجِبُ

وفي هذه القصيدة وصف لطيف لمشاهد توديعه لحبيته، ويبدو أن هذا كان عند خروج الشاعر من بسطة في شبابه طلباً للعمل، ولعلّ هذه الحبيبة هي التي بعث إليها - وهو في الأسر - بقصيدة تقع في الديوان بعد القصيدة المذكورة مباشرة وأولها (42):

يا راحة الروح في أسري وإطلاقي
 وسلوة النفس في وجدي وإملاقي
 وفي كلتا القصيدتين يدعي الوفاء، قال في آخر القصيدة الأولى:
 الحبُّ أزعى لذاك الحُسنِ ما بَقِيَتْ
 روحي بجسمي مالي عنك مُنْقَلَبُ

وقال في آخر الثانية:

ما هَمْتُ بَعْدُكَ فِي هَيْفَاءِ فَاتِنَةٍ
 وَلَا اسْتَطَبْتُ شَرَاباً مِنْ يَدَيِ سَاقِ
 ولكننا نجده - وهو في الأسر - يتغزل في فتاة نصرانية تدعى البيرة
 (12):

وأعجب عِبَادِ الصَّلِيبِ صَيِّةُ
 سَبَتَنِي بِوَجْهِ مِثْلِ بَدْرِ مُتَمِّمِ
 فَبْتُ حَلِيفَ الْهَمِّ مِنْ قَرَطِ حُبِّهَا
 وَبَاتْتُ بِهِجْرِي فِي فِرَاشِ تَنْعَمِ
 وَكَمْ نَعَمْتَنِي مِنْ لَذِيذِ وَصَالِهَا
 بِمَا لَمْ تَصِلْ نَفْسِي لَهُ بِتَوْهَمِ
 فَقَبِلْتُ مِنْهَا الْحَدَّ وَهُوَ مُورَدٌ
 وَثَبَّيْتُ بِالثَّغْرِ الْمَلِيحِ التَّبَسُّمِ
 وَمَالَتْ لِقَرَطِ السَّكْرِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ
 كَمِيلِ الصَّبَا صُبْحاً بَغْضَنِ مُنْعَمِ
 وَلَوْلا عَفَافِي وَاتِّقَاءُ عِتَابِهَا
 تَمَتَّعْتُ مِنْهَا بِالمَحَلِّ المَحْرَمِ

ويقول فيها - على ما يبدو - من قصيدة أخرى (130 - 131):

غَزَالَ مِنْ ظَبَاءِ الرُّومِ غِرٌّ
كَحِيلُ الْجَفْنِ ذُو وَجْهِ مَلِيحٍ
إِذَا رَامَ الْكَلَامَ فَأَعْجَمِي
وَيَهْزَأُ لِلْمَلَاخَةِ بِالْفَصِيحِ

ولشاعرنا قصيدة مهّدها بقوله: «وقلت في غرض التغزل والله يعفو ويغفر» وأولها (103):

بِدَمِي مُنْعَمَةٌ كَعَابُ ذَاتِ دَلٍّ
هَيْفَاءُ تُزْرِي بِالْقَضِيبِ إِذَا اعْتَدَلْ

وفيهما خلع العذار وخالف العفاف، ولا نعرف هل ما قصّه فيها من قبيل الحقيقة أم أنه من نسيج الخيال.

ولّه غزلٌ مذكر، ولكنه ليس كالنمط النواصي فهو يخلو من هجر القول ولا ينحو نحو المنكر، وقد ولع بالتغزل في صديقه وقرينه أحمد بن الحسن المالقي الذي ذكرناه فيما سبق، فمما قاله فيه وقد حلق رأسه (34):

قَصَّرَ الشَّعْرَ سَيِّدِي أَوْ أَطْلُهُ
فَمُحَيَّاكَ لَمْ يَزَلْ لِي أَنْسَا
فَإِذَا مَا أَطْلْتُهُ لَحْتُ بَذْرًا
وَإِذَا مَا قَصَّرْتُهُ لُحْتُ شَمْسًا

وقد حذا في هذا حذو الرمادي الذي يقول:

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَزْدَادَ قُبْحًا
حَذْرًا مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشُحًا
كَانَ قَبْلَ الْحَلَاقِ صُبْحًا وَلَيْلًا
فَمَحَوْا لَيْلَهُ وَأَبْقَوْهُ صُبْحًا⁽¹⁾

ومن هذا النوع قوله فيمن اسمه أحمد بن فرج⁽²⁾ (43):

خَبِّرُونِي وَاصْدُقُونِي فِي الْحُجَجِ
 إِنِّي صَبٌّ مَشُوقٌ مُذْ حَجَجْتُ
 ظَنَبِيْ إِنْسٍ أَحْمَدٌ أَمْ مَلَكٌ
 مِنْ جِنَانِ الْخُلْدِ لِلدُّنْيَا خَرَجْتُ
 بَيْنَا نِسْبَتَهُ لِي مِنْهُمَا
 وَاتْرَكُوا نِسْبَتَهُ لَابْنِ فَرَجٍ
 حَسَنُ الْفَتَانِ مَنْ يَعَشُّقُهُ
 لَيْسَ فِي الْعِشْقِ عَلَيْهِ مِنْ حَرَجٍ
 زَعَمُوا فِي بَسْطَةِ مَسْكَنِهِ
 صَدَقُوا وَاللَّهِ لَكُنْ بِالْمُهَجِ

ولا ندرى في أي الأحمدين السابقين يقول (114):

إِنْ يَكُنْ أَحْمَدٌ بَوْضُلٍ بَخِيلًا
 وَغَدَا مَا لَصَدِّهِ مِنْ تَنَاهٍ
 فَلَكُمْ جَادٌ لِي لَدَى النَّوْمِ طَوْعًا
 بَعِثَاقٍ وَبَارْتِشَافٍ شِفَاهِ

ويقول (114):

صَدٌّ فِي الْيَقْظَةِ عَنِّي أَحْمَدٌ
 وَغَدَا فِي النَّوْمِ وَضُلًا يَبْذُلُ
 عَجَبًا فِي النَّوْمِ مَا أَجْوَدُهُ
 وَهُوَ فِي الْيَقْظَةِ مَمَّنْ يَخْلُ

ولإذا كنا نعتبر هذا ومثله مما قاله في أيام الشباب فإننا نجد في ديوانه غزلاً قاله وهو يتولَّى الإمامة والخطابة كقوله في غلام يدعى سعدون (107):

يَا حُسْنَ سَعْدُونِ يُشِيرُ بِشَمْعَةٍ
 وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رَوَاقَا
 وَلِنُورِهَا مِنْ نُورٍ وَجَّتِهِ سَنَاءُ
 لَمَعَانُهُ قَدْ طَبَّقَ الْآفَاقَا
 فَكَأَنَّ مِنْهَا الْمُشْتَرِي فِي كَفِّهِ
 وَكَأَنَّهُ بَدَرُ الدَّجَى إِشْرَاقَا
 عَكَفَتْ عَلَيْهِ الْعَيْنُ تَنْظُرُ حُسْنَهُ
 فَبِحُسْنِهِ قَدْ قَيَّدَ الْأَحْدَاقَا
 لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْتِي لَخَطَابَةٌ
 أَرعى الْعُهُودَ وَأَحْفَظُ الْمِثَاقَا
 لَقَضَيْتُ حَقَّ النَّفْسِ مِنْ تَقْبِيلِهِ
 وَأَبَاحْتُهَا ضَمًّا لَهُ وَعِناقَا

كما نجد له أربع قطع في التغزل بذوي العِذار (144 - 145) وهو
 موضوع شغل به شعراء ذلك العصر في المشرق والمغرب وألف فيه
 بعضهم⁽³⁾.

وقد ظل الشاعر الفقيه - برغم وظائفه الدينية وبلوغه سن الخمسين -
 يهيم أحياناً في أودية الهوى وينزع إلى القول في معاني اللغو واللغو، وها
 هو يلوم نفسه على ذلك فيقول من قصيدة (149):

إِلَى كَمْ تَمِيلُ النَّفْسُ بِي لِلْهُوَى الْعُذْرِي
 وَشَيْبُ عِذَارِي مُبْطِلٌ فِي الْهُوَى عُذْرِي
 وَتَجْرِي إِلَيْهِ، بَعْدَمَا ذَهَبَ الصَّبَا
 وَأَيَّامُهُ عَنِّي، عَلَى الْمَسْلَكِ الْوَعْرِ
 وَتَرْضَى بِهِ وَصْفاً ذَمِيماً يَشِينُهَا
 وَتَهْتِكُ فِي اشْتِهَارِهَا مُسْبَلَ السَّتْرِ

وَمَهْمَا صَرَفْتُ الْوَجْهَ يَوْمًا لِعَتْبِهَا
تَزِيدُ كَأَنِّي بِاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ أُغْرِي
وَتَأْنِسُ بِالْغَيْدِ الْأَوَانِسِ كَالْدُمَى
مَتَى مَا بَدَتْ مِنْهُنَّ عَاطِرَةُ النَّشْرِ
وَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَوَ وَصَفَ لِذِي الْهَوَىٰ
لِسِرٍّ خَفِيَ الْأَمْرِ مِنْ أَعْجَبِ السَّرِّ
وَتَنْدُبُنِي لِلَّهِوِ عَمْدًا وَلِلْهَوَىٰ
وَقَدْ عَلِمْتُ مَا فِيهِمَا بَانَ مِنْ ضُرٍّ
وَمَهْمَا دَعْتَنِي كَيْ أَمِيلَ إِلَيْهِمَا
أُجَاوِبُهَا بِالْقَوْلِ فِي مَعْرِضِ الزَّجْرِ
أَيْلَهُوْ أَمْرُوْ مِثْلِي صِبَاهُ قَدْ انْقَضَى
بِخَمْسِينَ عَامًا قَدْ تَوَلَّتْ مِنَ الْعُمْرِ

ثم انتقل بعد هذا إلى سرد زواجر وعظية في التذكير بالموت وما بعده .

وتناول هذا الموضوع أيضاً في مطلع قصيدة أخرى إذ يقول (140):

إِلَى كَمْ إِلَهِي بِالْمَتَابِ أَجَاهِدُ
وَنَفْسِي عَلَيْهِ كُلَّ وَقْتٍ أَجَاهِدُ
وَعَهْدِي مَدَى الْأَيَّامِ لَسْتُ بِهِ أَفِي
وَنَفْسِي عَلَى عَادَاتِهَا لَا تُسَاعِدُ
وَأَكْثَرُ عَمْرِي فِي الْبَطَالَةِ قَدْ مَضَى
وَلَيْسَ لِمَاضِي الْعُمْرِ وَاللَّهِ عَائِدُ
وَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْقُوَى وَتَغَيَّرَتْ
وَهَلْ قُوَّةٌ بَعْدَ الذَّهَابِ تُعَاوِدُ

وَشَابَ عِذَارِي وَاسْتَحَالَ سَوَادُهُ
 وبِالْمَوْتِ لَا شَكَّ الْمَشِيبُ يَعَاوِدُ
 فَهَلْ تَوْبَةٌ تَمْحُو مِنَ الذَّنْبِ مَا بِهِ
 عَلَيَّ وَلَا أُخْفِي إِلَهِي شَاهِدُ
 أَبَيْتُ لِمَا قَدْ جِئْتُهُ مِنْهُ خَائِفًا
 وَإِنِّي لِخَوْفِي سَاهِرُ الطَّرْفِ سَاهِدُ

وأحسب أن الشعر الذي قاله في الزهد والابتهاال صدر عنه في كبره،
 ومن ذلك قصيدته التي أولها (95):

حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى يَا سَاهِ
 تُلْفِي كَثِيرَ النَّوْمِ، قُمْ لِلَّهِ
 وقصيدته التي أولها:

أَفِقْ لِمَشِيبٍ بَرْقُهُ يُكْثِرُ الْوَمُضَا
 وَبِتْ بِفَوَادٍ حَرُّهُ دَوْنَهُ الرَّمْضَا

وقطعته التي يقول فيها (106):

تَنْبَهُ مِنْ نُعَاسِكَ لَا تُطْلُهُ
 فَقَدْ أَفْرَطْتَ فِي طَوْلِ النَّعَاسِ
 فَمَوْتُكَ يَا أَخِي وَالْبَعْتُ حَقٌّ
 وَأَنْتَ الدَّهْرُ لِلْأَمْرَيْنِ نَاسِ
 فَحَازِرُ مِنْهُمَا مَا عِشْتَ وَاهْجُرْ
 نَعِيمَكَ بِالْمَطَاعِمِ وَاللِّبَاسِ
 وَبَعْدَهُمَا مُحَاسِبَةٌ وَهَوْلٌ
 يَشِيبُ لَهُ الصَّغِيرُ مِنَ الْإِنَاسِ

وَيُنْقَسِمُ الْخَلَائِقُ بَعْدَ إِمَا
لِنُعْمَى لَا تُفَارِقُ أَوْ لِبَاسِ
فَمَنْ أَضْحَى وَهَذَا مُنْتَهَاهُ
فَحَقُّ أَنْ يُشَاهَدَ ذَا اخْتِرَاسِ

والظاهر أن الشاعر أنشأ مثل هذا الشعر ليذكر به المذكرون قبيل أذان
الفجر.

ومما يلحق بهذا الضرب من شعره قصيدتان في مدح الجناح النبوي
قالهما عندما كان أسيراً وفيهما سرد لسيرة النبي عليه السلام وتعداد
لمعجزاته وتشفع بجاهه، وقد وردتا في صدر الديوان.

ومن ملامح شخصية شاعرنا البارزة حدة الطبع والخلق، ويبدو أن
هذه الحدة كانت من أسباب متاعبه التي شرحناها فيما سبق، وقد اتهمه
بعض خصومه بالنزوع إلى الشر والخصام ونعته بأنه شيطان فقال يرد عليه
(77):

زَعَمْتَ وَقَدْ أَخْطَأْتَ فِيمَا زَعَمْتَهُ
بَأَنِّي شَيْطَانٌ وَلَسْتُ بِشَيْطَانٍ
وَلَكِنَّمَا الشَّيْطَانُ أَنْتَ حَقِيقَةً
لِخُبَيْكَ إِذْ تَرْمِي سَوَاكَ بِنُقْصَانٍ
وَفِيكَ صِفَاتٌ فِي الشَّيَاطِينِ أَلْفِيَتْ
أَشَاعَ بِهَا إِقْرَارَهُ كُلُّ أَنْسَانٍ
وَفِي الْحَوْلِ الْبَادِي بَعِينُكَ شَاهِدٌ
يَبَيِّنُ صِدْقِي الْيَوْمَ أَوْضَحَ تَبْيَانٍ

ووصفه بعض أولي الأمر بأنه «داهية دهياء».

وقد خاطبه بعضهم بدون تسويد فقال فيه (77):

مالي رأيتك للتسويد مُتْرِكاً
 إذا دعوتَ صديقاً يا أبا الحسن⁽⁴⁾
 اكْبِراً أم جهلاً أم سُخْفاً رأى بَصْرِي
 ممّا أتيتَ به أم كُنْتَ ذا وَسَنِ
 وشبيه بهذا قوله في آخر مدِرجله في مجلس عام كبيراً أو جهلاً
 (139):

أي امرئٍ مدَّ الرَّجْلَ في ملأٍ
 مِنْ غيرِ عذرٍ فصفعةٌ أدْبُهُ
 يطولُ منها لعظمِ موقعِها
 من نفسه طولَ عمره عَجْبُهُ
 وفي ديوانه مداعبات تدلّ على خِفّةِ روحه .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلةً من تنذره ببعض خصومه ومن أساء إليه ،
 وهذا مثال آخر مما لم نذكره وفيه تورية (13):
 أتى عابداً الرحمن من حُسْنِ وَدّه
 بنفحةٍ وردٍ في حدائقِ آسِ
 فلَمّا أتى بالعكس حققتُ أَنّه
 لقبحِ الذي أبدى لعيني فاسي
 ولم يستثن من تنذره بعض نساء وقته لأسباب شخصية أو غيرها كقوله
 في التورية بإحداهن (109):

عجوزٌ لها حسبٌ حرْصُها
 على طَلَبِ الشرِّ ما أكثره
 إذا ما تعاتبُ في فعلِها
 تقولُ اعتذاراً أنا مُجْبَره

وقوله في أخرى تدعى قسطلّة عرفها لما كان في برجة (121):

يا غيثُ عاهدْ دائماً مِنْ برجةٍ
تلكَ الربوعَ حَزَنُها وسَهْلُها
ولا تخصَّ عِنْدَما تَهْمِي بها
بِقَطْرَةٍ قَسْطَلَةٍ وأهلها

وقوله في التعريض بأمرأة لقبها قيراطه وفيه تورية (115):

الغِشُّ عَيْبٌ وهو في صرفنا
قَدْ أَحْكَمَ التَّضْيِيعُ إِفْرَاطَهُ
فصَرَفْنَا درَهْمَهُ لَمْ يُعَبْ
من ذَمِّهِ أَوْ ذَمِّ قِيرَاطِهِ

ونختم هذه الفقرة بإيراد قصيدة أجاب بها بعض أصحابه من الشعراء
كان يشتكي من زوجه العجوز (101-102):

لنظْمِكَ في النفوسِ مِنَ الجِزَالَةِ
مَحَلٌّ دُونُهُ مَرْقَى الغِزَالَةِ
لِذَاكَ أَهِيْمُ مِنْهُ بِكُلِّ نَوْعٍ
غَرِيبٍ فِي اخْتِضَارٍ أَوْ إِطَالَةٍ
وَحَيَا اللَّهُ مِنْهُ بِدِيْعٍ حَسَنِ
سَقَانِي لِلسُّرُورِ بِهِ زُلَالَةٍ
شَكُوْتُ بِهِ عَجُوزاً أَنْتَ مِنْهَا
بِحَالٍ تَرْتَجِي لَهَا الاستِحَالَةَ
وَجِئْتَ لَهَا بِأَوْصَافٍ قَبَاحٍ
تَنَاسَبُ خُلُقُهَا مِنْهَا الرِّذَالَةَ

فَلَمْ تَتْرُكْ بِمَا أَبَدَيْتَ مِنْهَا
مَدَاعِبَهُ لِذِي قَوْلٍ مَقَالَهُ
وَمَا أَغْفَلْتَهُ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ
فَعَنْ عِلْمٍ بِهِ لَا عَنْ جِهَالِهِ
فَطَلَّقَهَا طَلَاقَ فَتَى كَرِيمٍ
فَهَا هِيَ أَكْثَرَتْ - زَعَمُوا - سَوَالَهُ
فَإِنْ طَلَّقَهَا رَأَيْ رَشِيدُ
تَحَقَّقْ رَشْدَهُ تِلْكَ الْجَلَالَهُ
فَبَادِرْ نَحْوَهُ وَاسْرِعْ فَإِنِّي
بِهِ أَرْجُو لَعْنَتِكَ الْإِقَالَهُ
فِعِصْمَتُهَا لِذَاكَ الْمَجْدِ قَيْدُ
وَإِنِّي بِالطَّلَاقِ أَرَى انْحِلَالَهُ
وَلَا تُطَلِّ التَّائِمَ بَعْدُ وَأَنْكَحْ
فَتَاةً تَسْلُبُ الْغَصْنَ اعْتِدَالَهُ
مُنْعَمَةً يَبِيتُ الصَّبُّ مِنْهَا
بِمَا يَلْقَاهُ شَاكِيًا اعْتِلَالَهُ
لَهَا وَجْهٌ غَرِيبُ الْحُسْنِ أَضْحَى
مَحِيًّا الْبَذْرَ يَحْسُدُهُ كِمَالَهُ
وَجَفَنُ غَنْجُهُ سَهْمٌ إِذَا مَا
رَمَتْ كَبْدًا بِهِ انْقَطَعَ [. . . .]
وَخَذُ وَرْدِهِ غَضٌ نَضِيرُ
عَلَى طَوْلِ الزَّمَانِ أَبَتْ زَوَالَهُ
وَمُبْتَسَمٌ جَوَاهِرُهُ حَبَابُ
لَخَمْرِ الرِّيقِ بَادِيَةِ سِجَالَهُ

وَجَيْدٌ دُونَهُ فِي الْجَيْدِ حَسَنٌ
 تَرَاهُ لِلْغَزَالِ أَوْ الْغَزَالَةِ
 وَنَهْدٌ ضَمُّهُ يَشْفِي الْمَعْنَى
 وَيُنْعِمُ مِنْهُ خَاطِرُهُ وَبَالَهُ
 وَخَصُرٌ دُونَهُ الْفَنَكُ الْيَمَانِي
 لِرَقَّتِهِ إِذَا مَا اللَّمْسُ نَالَهُ
 تُجِبُّكَ مَالَهَا أَحَبَّتْ يَوْمًا
 وَتُبْدِي لِلْجَفَا مِنْكَ احْتِمَالَهُ
 وَتَرْعَى مَا حَيَّتْ وَلَا تُبَالِي
 عَهْدَكَ كُلَّهَا فِي كُلِّ حَالِهِ
 وَتَحْفَظُ جَهْدَهَا إِنْ غَبَتْ عَنْهَا
 مَحَلَّ عُلَاكَ حَفَظَ ذَوِي الْأَصَالَةِ

وَمِنْ شِعْرِهِ الَّذِي يُسَلِّكُ فِي هَذَا الْبَابِ قَصِيدَتَهُ فِي رِثَاءِ خُرُوفِ الْعِيدِ،
 وَهُوَ مَوْضُوعٌ شَغَلَ عَدَدًا مِنَ النِّظَامِيِّينَ وَالزُّجَّالِينَ.

الحواشي

(1) جذوة المقتبس : 374 .

(2) لعلّه أخو الذي وردت ترجمته في الضوء اللامع 6 : 6: «علي بن محمد بن فرج السبتي الوادي، آشي المالكي والد أبي القاسم القادم علينا والاتي . مات بقلعة المرية من الأندلس 892هـ عن بضع وخمسين سنة وكان فاضلاً، ولي قضاء واي آش ثم خطابتها وتدريسها والنظر على الجامع بها» .

(3) ألف في ذلك الصفدي : خلع العذار، في مدح العذار، والمنهاجي : بسط الإعذار وغيرهما .

(4) قد يكون المراد به أبا الحسن علي بن العز أو ابن عزيز أو أبا الحسن علي اللخمي القرباقي وهما بسطيان معاصران للشاعر. انظر رحلة القلصادي : 83 ، 87 ، وثبت الوادي آشي : 204 ، 126 .

قيمة ديوانه

لهذا الديوان الفريد قيمتان: إحداهما وثائقية تاريخية، وقد أفادتنا كما رأينا في معرفة شخصية صاحبه ومعرفة عصره، والقيمة الثانية أدبية فنية وهي تقدّم لنا صورة من المستوى العام الذي آلت إليه البلاغة الأندلسية قبيل سقوط غرناطة.

ونريد في خاتمة قراءتنا وعرضنا لديوان القيسي أن نتناول هذه القيمة الثانية في شيء من الإيجاز، وأول ما نبدأ به تقويم صاحب الديوان نفسه لشعره فقد اعترف - في تواضع ظاهر - أن شعره منحط عن الدرجة المتوسطة وأباح لأهل العلم بالشعر والنقد أن يصلحوا ما يرون أنه في حاجة إلى الإصلاح.

وحينما أشار عليه الرئيس أبو يحيى ابن عاصم ببعث شعره إليه ليضمّنه كتابه في أدباء عصره الموسوم بالروض الأريض استجاب للإشارة ووافاه بجملة منه «ما بين وحشي ومخشلب» بعد أن تردد في إرساله خجلاً وتواضعاً:

وَقُلْتُ حَاشَاهُ حَاشَاهُ يَشِينُ بِهِ
دِيوَانَ عِلْمٍ أَتَى مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ

ومع اعترافه بانحطاط شعره عن درجة الإجادة فقد كانت نفسه به على كل حال مغتبطة وعنه راضية وله مرددة كما يقول في مقدمة الديوان، ويقول في إحدى قصائده: (145):

عَلَى أَنْ نَظْمِي إِنْ يَكُنْ عُدَّ هَلْهَلًا
فَمَا مِثْلُهُ فِي نَوْعِهِ لِمُهْلَهْلٍ

ويقول في قصيدة أخرى:

فليس نظام الشعر من شيمي التي
أجاري بها في النظم من يحسن الطردا

وهو يخبرنا أنه بدأ بقول الشعر في أيام الشباب بعد أن فرغ من دراسة العروض قال: «فعانيت الوصول إلى قريضه بعروضه، معاناة الطبيب الماهر علة مريضه، فانقاد إلى ما عانيته من ذلك طبعي، وأخذ إفراط ميل النفس إليه بضبعي، فنظمت إذ ذاك منه أبياتاً في غير ما غرض، أدت بها من حقوق النفس كل مفترض».

وإذن فقد واثاه في نظم القريض طبع مسعف وتيسرت له أدوات النظم من عروض وعربية وبلاغة، ولا بدّ أنه درسها على شيوخه في بسطة الذين لم يسم منهم إلّا أبا عبد الله البلياني، وقد يكون منهم واسطة عقد فقهاء بسطة أبو الحسن اللخمي الذي كان يدرس بها علوم اللغة والآداب ومما كان يقرئه كتاب الفصيح لثعلب وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة بالإضافة إلى شرحه على الخرجية المسمى بالتبصرة الكافية في علمي العروض والقافية، وقد أشار في شعره إلى مصدرين من مصادر تكوينه اللغوي والأدبي وهما صحاح العربية للجوهري وديوان الصيب والجهام لابن الخطيب. وإذا كانت قاعدته الأدبية أوسع من هذا فإن الشعر الأندلسي كان

النموذج الأقرب إليه ولا سيما شعر ابن الخطيب الذي غدا آخر رمز للبلاغة الأندلسية؛ وقد وجدنا شاعرنا ينحو منحاه في نظم البيتين أو الأبيات التي يُراد بها التعريض ويُتوسل فيها بالتجنيس والتورية ويلتزم في بعضها ما لا يلزم، وهو يورّي بأسماء الكتب ومصطلحات العلوم وغير ذلك، وقد رأينا بعض توريّاته فيما سبق، وهذه أمثلة أخرى، ومنها أيضاً قوله (75):

وَلَمَّا اتَّبَعْتُ الْحَقَّ فِي حَفْظِ وُدِّكُمْ
وَقَدْ قَطَعْتُ بِالْحَافِظِينَ قَوَاطِعُ
قَطَعْتُمْ أَنْيَسَ الْكُتُبِ عَنِّي تَعَمُّدًا
وَلَا عَجَبٌ قَدْ يَلْزَمُ الْقَطْعَ تَابِعُ

وقوله (، 91):

أَعْيَنَ الْمَجْدِ إِنْ نِلْتَ اعْتِلَالًا
نَشَقَّتْ بِإِثْرِهِ لِلْبُرِّ نَفْحَهُ
فَلِإِنَّ الْعَيْنَ فِي التَّصْرِيفِ نَالَتْ
كَمَا تَذْرِيه إِعْلَالًا وَصِحَّهُ

وتبدو المسحة الأندلسية على هذا الديوان فيما تضمّنه من أمثالٍ كانت سائرة بين أهل الأندلس كقوله (78):

يَا أَيُّهَا الْقَائِمُ فِي حُكْمِهِ
بِالْقِسْطِ لَا يَحْذَرُ مِنْ طَعْنِ
إِنَّ الَّذِي أَشْكُو لَهُ شَوْكَةً
«وَالشَّوْكَ لَا يَخْرُجُ بِالقُطْنِ»

وقوله:

وَقَدْ جَاءَ فِي مِثْلِ سَائِرِ
«طَعَامُ الْأَحِبَّةِ مَا قَدْ حَضَرُ»

وقوله:

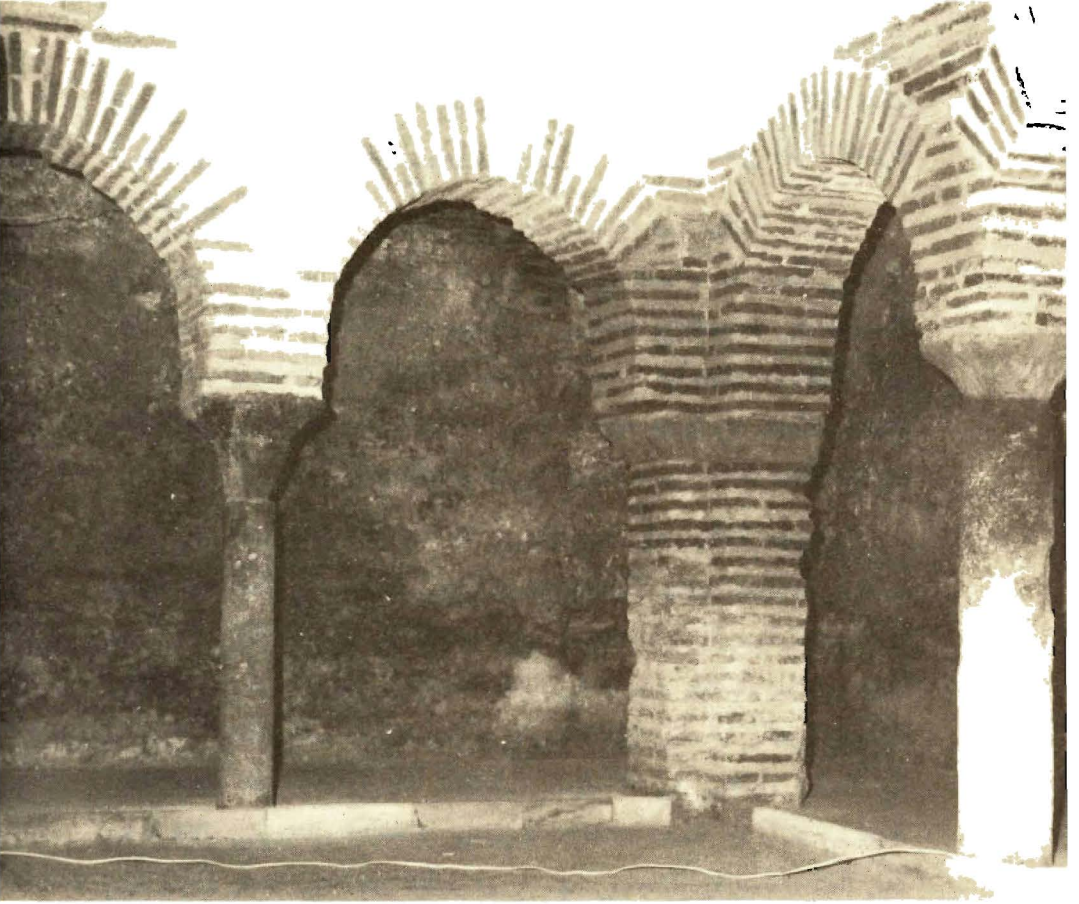
وَأَرَى الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِمِضْرَمٍ
قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بِالْقَضَاءِ وَيَجْمَعُ
وَالْحَشْشُ مُحَكِّمٌ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ
لِسِوَاهُ مُبْتَلَعٌ إِذَا مَا يَلْمَعُ

وتبدو كذلك فيما اشتمل عليه من ألفاظ أندلسية منها البراني أي الأجنبي الغريب، والمخزني أي عون المحكمة نسبة إلى المخزن أي الحكومة في الاصطلاح المغربي، والظهير وهو الصك الملكي، والتراكت أي التراكات، والحوانيت جمع حانوت وهو الدكان والفندوق بالواو أي الفندق والخان في لهجة عامة الأندلس ومعد الدراهم لما تضرب به السكة، ومرشم الخبز لما يرشم به الخبز حتى لا يختلط بخبز الغير.

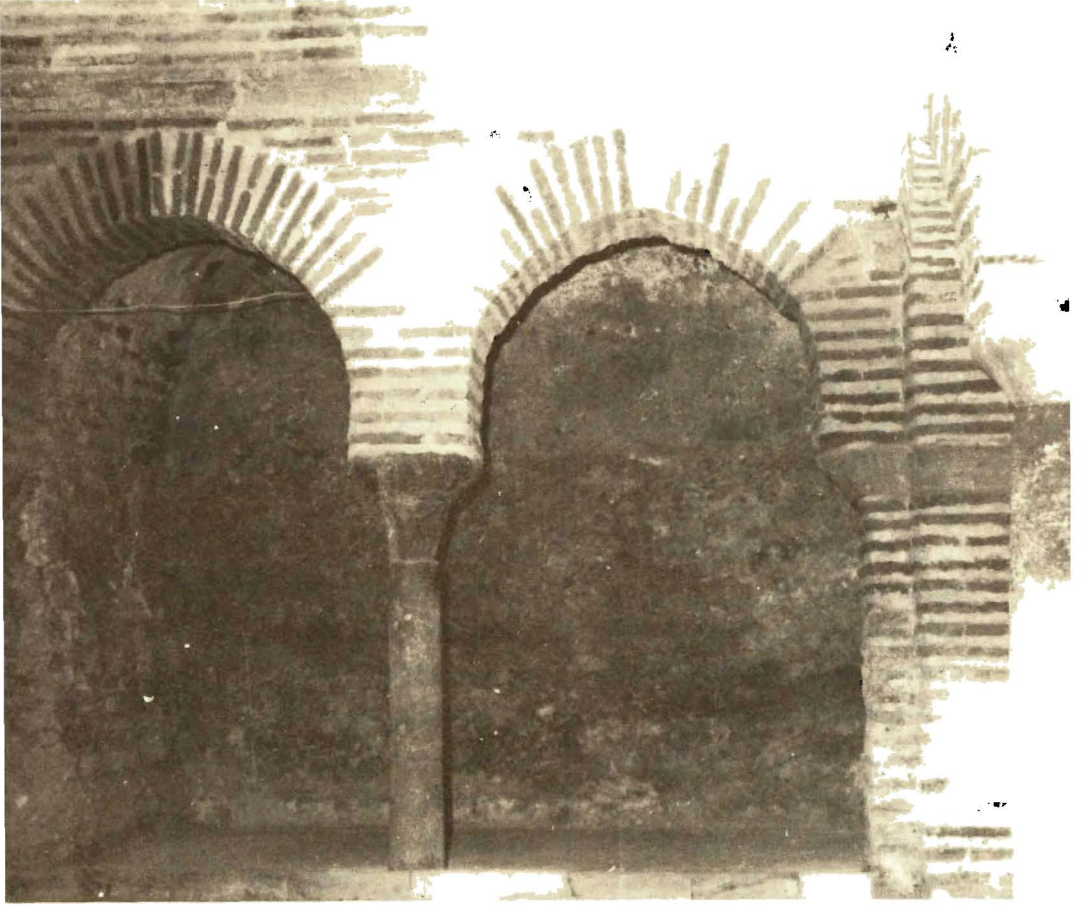
والطابع الغالب على شعر القيسي أنه شعر فقيه يباشر قراءة كتب الفقه ويتمرس بأساليبها فيظهر أثرها في شعره، ومن الكتب التي نعرف أنه درسها أو انتسخها كتب البيان والتحصيل وهو موسوعة في الفقه المالكي لابن رشد الجدل وكتاب الشامل لبهرام في الفقه المالكي أيضاً وكتاب وثائق ابن سلمون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومن هنا لم يخل شعره من ركابة في العبارة وضعف في الأسلوب وارتكاب للضرورات، وقد وجدنا ابن الخطيب يقول في صنف الشعراء المشتغلين بالخطابة والتدريس والإقراء من أهل المئة الثامنة في الأندلس إنهم ليسوا بمظنة إجادة في الشعر وأنهم أولى بدرجة الانحطاط وهذا حكم ينسحب بالأحرى على الصنف نفسه من أهل المئة التاسعة في الأندلس.

ومهما يكن الأمر فإن قيمة شعر القيسي تكمن في مضمونه قبل شكله، وإن قارئه ليؤخذ بصدق وصراحته وعفويته وسداجته وبساطته وسهولته والتزام صاحبه وغيرته ويزداد اعتبارنا لهذا الديوان إذا عرفنا أنه خاتمة دواوين الشعر الأندلسي.

لقد كان في عصر شاعرنا شعراء كثيرون مثل ابن عاصم أبي يحيى
والشَّران وابن الأزرق الوادي آشي وابن الحداد الوادي آشي والشريف
العقيلي وابن الجبير اليحصبي وعمر الزَّجال وغيرهم من أصحاب القريض
الذين اشتمل عليهم كتاب الروض الأريض لابن عاصم المفقود ولكن
أشعار هؤلاء الشعراء مفقودة بينما وصلت إلينا أشعار البسطي ولهذا اعتبرناه
آخر شعراء الأندلس.



بقايا حَمَّام في بسطة لعلَّه الذي عناه شاعرنا البسطي في قوله (149):
حَمَّامٌ بِسْطَةٌ فِي اعْتِدَالِ هَوَائِهِ مَا مِثْلُهُ فِي بِلْدَةِ حَمَّامٍ
مَاءٌ وَنَارٌ عَنْهُمَا اعْتَدَلَ أَهْلُهَا فَتَنَعَّمَتْ بِدُخُولِهِ الْأَجْسَامُ



صورة أخرى لبقايا حَمَّامِ بسطة، ولعلّه الذي يقول فيه مستدعيّاً أحد
أصدقائه إلى مصاحبته إليه :

يا مُجْجَلاً نَوْرَ الصُّبْحِ بَوَجهِ والبَذَرِ والأزهارِ في الأَكْمامِ
إني عَزَمْتُ على التَّحَمُّمِ في غَدٍ فَعَسَى تُصَاحِبُنِي إلى الحَمَّامِ
ديوان البسطي : 82

فهرس الأعلام

(أ)

أبذة: 28، 31، 32، 36، 37، 100.

إبراهيم ابن رقية: 196.

إبراهيم ابن عبد البر: 16، 97، 98، 99، 100، 171.

إبراهيم (ابن عم البسطي): 46.

ابن أبي البقاء الرندي: 149، 150.

ابن أبي الخصال: 137.

ابن أبي الربيع (أبو فارس الغرناطي): 120.

ابن الأحول الضبي: 152، 189، 190، 191، 192، 193، 194.

ابن الأزرق الأصبحي: 23، 42، 123، 128، 129، 130، 148، 185.

ابن الأزرق الوادي آشي: 16، 21، 23، 100، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 130.

ابن أمّال: 76، 77.

ابن الأمين الشيطني: 153.

ابن باق: 156.

ابن جبّير: 156.

ابن الجبّير اليحصبي: 233.

ابن جماعة الغرناطي: 132.

ابن جماعة المصري: 163.

ابن الحسن النباهي أحمد: 16، 102، 103، 104، 218.

ابن الحسن النباهي (أبو حامد): 16، 39، 53، 65، 69، 102، 107، 108، 109، 186، 195.

ابن خاتمة: 16.

ابن الخطيب السلماي: 104، 107، 114، 124، 140، 170، 231.

ابن حبيب (المالكي): 190.

ابن الحداد الوادي آشي: 233.

ابن خلدون (عبد الرحمن): 120.

ابن رجاء (أبو عبدالله): 22، 110.

ابن رشد الجد: 192.

ابن سراج (قاضي غرناطة): 190.

ابن سراج (أبو القاسم): 72.

ابن سلمون: 80.

ابن سهل (صاحب النوازل): 186.

ابن شفيق البسطي: 17.

ابن عاصم (أسرة): 16.

ابن عاصم (أبو بكر محمد): 100، 155.

ابن عاصم (أبو يحيى الوزير): 16، 23، 57.

128، 136، 165، 182، 186، 229،
230.

ابن عبد البر (قاضي غرناطة): 42.

ابن عجيب البسطي: 198.

ابن العز (علي بن عتيق): 16، 149.

ابن عزيز (قائد بسطة): 171.

ابن عزيز (أبو القاسم أخو السابق): 171.

ابن عسكر المالقي: 106.

ابن عطية (المفسر): 23.

ابن عمار (الشاعر): 137.

ابن غادر: 192، 193.

ابن القاسم (المالكي): 23، 195.

ابن قتيبة: 230.

ابن القفال (حسين): 154.

ابن القفال (أبو علي حسن): 154.

ابن قلاقرس: 129.

ابن لب (الفقيه الغرناطي): 206.

ابن لبوة البسطي: 151، 152.

ابن الماجشون: 190.

ابن محرز الوهراني: 208.

ابن مرزوق الحفيد: 159.

ابن مرزوق الكفيف: 159.

ابن مفضل البسطي: 152، 189، 194،

195، 197.

ابن مقله: 156.

ابن منظور (أسرة): 16.

ابن منظور (أبو عمرو): 16، 73، 74، 133،

134، 135، 136، 137، 138، 139،

141، 186، 205، 206.

أبو البركات البليقي: 114.

أبو حامد الغزالي: 109.

أبو الحسن (ابن العز أو القرمافي): 224،
228.

أبو الحسن الرندي: 153.

أبو الحسن النباهي: 104، 106.

أبو الحسن (السلطان النصري): 107، 147.

أبو الحسن الشريف (شيخ الغزاة): 115،

117، 118.

أبو الرضى (ابن دعمون): 156، 157.

أبو محمد الإشبيلي: 161.

إحسان عباس: 49، 163، 184.

أحمد بابا السوداني: 148.

أحمد الحكيم: 194.

أحمد دراج: 10، 184.

أحمد ابن رقية: 196.

أحمد ابن فرج: 218.

أحمد ابن القاضي: 152، 153.

أحمد (ولد الشاعر البسطي): 45.

أحمد ابن القصار: 16، 68، 147، 148.

الإدريسي (الجغرافي): 17.

أدب الكاتب: 230.

أرك: 171.

أركش: 171.

أرشدونة: 166، 167، 173، 175.

أزهار الرياض: 9، 100.

الأزريق (محمد بن عبدالله الوادي آشي):

131.

اعتماد الرميكية: 161.

الأعرشي (أو الأعرشي): 63، 93.

الإكليل للنباهي: 10.

البيرة (اسم امرأة): 37، 217.

الفية ابن مالك: 22.

الأمثال العامية لابن القفال: 155.

الأندلس: 9، 26، 27، 80، 95، 120، 122،
134، 136، 166، 172، 176، 177،
179.

الأهواني عبد العزيز: 10.

إيزابلا (الملكة الكاثوليكية): 43.

إيضاح الفارسي: 23.

(ب)

باب البيرة (غرناطة): 134.

باب الفرج (بسطة): 126.

بدائع السلك: 123، 130، 185.

برجة: 25، 26، 51، 75، 95.

برشانة: 92، 153، 200.

برنامج المجاري: 10، 160.

برنامج المتوري: 16، 160.

البستاني الفريد: 9.

البشرات: 25، 49، 75.

البقاع: 208.

البكري: 17.

بلش الشقراء: 171.

بلش البيضاء: 171.

بلش: 166، 175، 208.

بنو أيوب البرشانيون: 153، 154.

بنو أشقيلولة: 122.

بهرام: 12، 49، 68.

البورشنيس (وقعة): 99، 171.

البيان والتبيين: 126.

البيان والتحصيل: 11، 13، 232.

البيازين: 141، 142.

البياني (أبو عبدالله): 27، 28، 36، 38.

55، 63، 96، 230.

بسطة: 11، 13، 15، 16، 17، 18، 19،

20، 21، 24، 25، 28، 38، 40، 42،

43، 44، 52، 53، 54، 56، 62، 63،

69، 70، 71، 72، 73، 74، 82، 83،

84، 85، 86، 91، 95، 97، 100، 101،

102، 108، 109، 110، 111، 112،

113، 114، 115، 119، 120، 122،

125، 126، 131، 133، 134، 142، 144،

148، 150، 151، 152، 157، 166،

178، 179، 180، 181، 183، 186،

187، 192، 194، 198، 199، 200،

204، 208.

بيرة: 171.

(ت)

تحفة ابن عاصم: 100.

تقييد في التعريف ببني عاصم: 100.

التملساني (أبو عبدالله): 158.

تلون (حوز بسطة): 204.

(ث)

ثبت الوادي آشي: 10، 130، 137، 143،

144، 149، 160.

ثعلب (النحوي): 230.

(ج)

الجاحظ: 126.

الجابري الزليجي: 143.

جبل الفتاح (جبل طارق): 166، 199، 170،

171، 174، 175.

جذام : : 158.

جزيرة الأندلس : 107.

الجزيرة (جزيرة الأندلس) : 98.

الجعدآله (القاضي) : 16، 42، 141، 143.

جلق : 18.

جنان رومة (بسطة) : 19، 49.

جنة الرضى لابن عاصم : 10، 100، 165.

جومث دي ريبيرا : 168.

(ح)

الحامة : 183.

حامد (قائد وادي آش) : 41، 43، 121،

122، 165.

حبيب (أبو تمام) : 152.

الحداد المهدوي : 93.

الحريري : 67.

حسن بن ثابت : 158.

الحسن (ولد الشاعر البسطي) : 45.

الحسين (ولده كذلك) : 45.

حصن الشطين : 153.

حصن اللقون : 166، 167، 174، 175.

الحميري (ابن عبد المنعم) : 17.

حمة صالحة : 90، 94.

حوران : 208.

(خ)

خراسان : 158.

خزانة تامكروت : 10.

الخزانة العامة بالرباط : 10.

خشقدم (السلطان) : 168.

خطرة الطيف لابن الخطيب : 18.

خليل (المالكي) : 189.

الخليل بن أحمد : 23.

خوان توريس فوتس : 184.

خوان دي قزمان : 171.

(د)

دار الصناعة بمالقة : 139.

الداني المقرئ : 23.

الدسوقي : 189، 191.

ديوان يوسف الثالث : 10.

ديوان القيسي : 10.

(ر)

راشيل أرييه : 161.

الرجبة (بسطة) : 152.

رحلة عبد الباسط المصري : 10، 161.

رحلة القلصادي : 10، 13، 18، 96.

رسالة ابن أبي زيد القيرواني : 22، 232.

رسالة التنبيه والإرشاد : 39.

روضة الأعلام لابن الأزرق : 128، 129،

130.

الروض الأريض : 15، 100، 101، 128،

233.

الروض المنظور، في أوصاف بني منظور :

136.

(ز)

الزجالي (أبو يحيى القرطبي) : 155.

(س)

سان باتريس : 173.

سجلماسة : 120 .

سعد بن محمد النصري : 120 ، 168 .

سعدون (اسم غلام) : 219 ، 220 .

سعید بن المسيب : 195 .

السموال : 88 .

سوليرة : 119 .

سيبويه : 23 .

سيكودي لوثينا : 10 ، 16 ، 161 ، 201 .

(ش)

الشاطبي : 72 .

الشام : 208 .

الشامل لبهرام : 232 .

الشران (أبو عبدالله) : 132 .

شرح البردة للأليزي : 114 .

شرح تحفة ابن عاصم (لولده) : 100 ، 114 .

شعبان الغزي : 17 .

شفاء العلليل لابن الأزرق : 129 ، 130 .

شكيب أرسلان : 9 ، 171 .

شوجر (حوز بسطة) : 85 .

(ص)

الصابي : 137 .

صاحح اللغة : 68 ، 147 .

صحيح مسلم : 195 .

الصيب والجهام : 68 .

(ض)

الضوء اللامع : 96 .

(ط)

طلباطة : 177 .

عائشة بنت ابن مفضل : 194 .

عائشة بنت محمد بن غادر : 193 .

العبادي (أحمد مختار) : 49 .

العباس بن علي بن حيد : 171 .

عبد الباسط بن خليل : 10 ، 132 ، 148 .

عبدالرحمن الفاسي (من أصدقاء البسطي) :

224 .

عبد العزيز المالقي (صديق للبسطي) : 139 ،

140 .

عبد الكريم القيسي : 10 ، 13 ، 48 .

عبد الله بن عمران (شيخ الغزاة) : 115 ،

118 ، 120 ، 166 .

عبد الملك (خطاط بسطي) : 155 ، 156 .

العبدوسي (عبدالله) : 76 .

عدوة الأندلس : 120 .

عفص : 177 .

العقيلي (محمد العربي) : 190 ، 233 .

علي بن داود الوادي آشي : 16 ، 42 ، 144 .

علي بن محمد بن فرج : 228 .

علي بن موسى القرباقي : 194 ، 200 ، 230 .

عمر (الفقيه الزجال) : 140 ، 233 .

عين قنولش : 19 ، 49 .

(غ)

غرناطة : 9 ، 10 ، 18 ، 27 ، 42 ، 43 ، 44 ،

45 ، 58 ، 85 ، 91 ، 92 ، 97 ، 99 ، 100 ،

101 ، 120 ، 125 ، 131 ، 132 ، 134 ،

136 ، 141 ، 142 ، 148 ، 157 ، 166 ،

171 ، 173 ، 179 ، 180 ، 183 ، 185 ،

190 ، 204 ، 209 ، 211 ، 216 ، 231 .

غليرة (حوز بسطة) : 70 ، 179 .

غمارة : 122 ، 171 .

الغوطة : 208 .

كتاب الفصح : 230 .

(ل)

لخم : 158 .

لورقة : 99 ، 172 .

لوشة : 177 ، 183 .

(م)

المازري : 195 .

مالقة : 122 ، 134 ، 135 ، 137 ، 138 ، 139 ،

140 ، 144 ، 166 .

المامون (أبو العلاء الموحّد) : 177 .

مجلة العربي الكويتية ، 10 .

محمد بن أحمد بن منصور : 10 .

محمد بن أحمد القيسي : 16 .

محمد بن سعد (الزغل) : 142 .

محمد بن عبد الكريم البسطي : 11 ، 13 ،

48 .

محمد بن عبد الملك القيسي المتتوري : 16 .

محمد الخامس (النصري) : 120 .

محمد بن عثمان (الأحنف) : 115 ، 116 ،

122 ، 165 ، 171 ، 178 ، 179 .

محمد بن علي القيسي : 16 .

محمد بن مالك الأليزي : 16 ، 21 ، 58 ،

110 ، 112 ، 113 ، 114 ، 150 .

محمد بن معن (قاضي بسطي) : 150 .

محمد بن المغربي : 196 .

محمد بن نصر (الأييس) : 97 ، 100 ، 116 ،

171 ، 178 .

محمد (بو عبدل) : 99 ، 142 ، 147 .

محمود مكي : 10 ، 27 ، 128 .

(ف)

الغازي (أبو زيد) : 176 .

الفاسي (محمد العابد) : 48 .

فاطمة (محبوبة الشاعر) : 216 .

فاطمة بنت أبي الحسن القرباقي : 194 .

الفاي (أبو الحسن) : 93 .

فحص بسطة : 90 .

فخاردو (بيدرو) : 171 .

فردناند : 43 .

فرناندو دي لا كراشا : 164 .

الفنشي (القائد) : 159 .

(ق)

القاضي الشريف : 148 .

قسطللة : 225 (اسم امرأة) .

قشتالة : 134 .

القلصادي : 12 ، 13 ، 18 ، 22 ، 23 ، 42 ،

85 ، 148 ، 185 .

قلعتا مالقة : 140 .

قنالش : 85 (انظر عين قنولش) .

قولية : 119 .

قولر : 171 .

قومس قبرة : 119 .

قيجاظة : 177 .

قيراطة : 206 ، 225 .

(ك)

كائنة لورقة : 99 ، 166 ، 171 ، 172 .

المدونة: 190.

مدينة شذونة: 171.

مرج غرناطة: 183.

مرسية: 171، 173.

المرية: 16، 95، 108، 116، 147، 148،

171، 178.

مرينة: 204.

مزية المرية لابن خاتمة: 16.

مسائل ابن رشد: 192.

المسجد الحرام: 92.

مسينة (حوز بسطة): 204.

مشكاة الأنوار: 108.

مظهر النور الباصر: 10، 107، 161.

المعجب للمراكشي: 17.

المعني (أحمد بن محمد): 164.

معيار الاختيار: 18.

المعيار للونشريسي: 72، 76، 78، 114،

142، 192، 206.

المغرب: 26، 80، 170، 1.

مفضل (شاعر بسطي): 157.

مقدمة ابن خلدون: 185.

المنصور ابن أبي عامر: 107.

منصور الفقيه: 189.

المنكب: 95، 110، 111، 209.

المنية (بسطة): 19، 49.

الموافقات للشاطبي: 72.

المواق (أبو عبد الله): 71، 72، 73.

المولى علي الشريف: 120.

موللر (مستشرق): 9.

(ن)

الناصرى (مؤلف الاستقصا): 120.

نبذة العصر: 153.

نجيطة (حوز بسطة): 204.

نفح الطيب: 9، 100، 119.

نيل الإبتهاج: 96، 100، 114، 153.

(هـ)

هارولد ليفرمور: 192.

(و)

وادي آش: 95، 122، 125، 144، 147،

166، 168.

الوادي آشي (أحمد بن علي): 91، 137،

148، 159.

وادي المنصورة: 200.

وثائق ابن سلمون: 80، 201، 232.

وثائق عربية غرناطية: 28، 148، 152،

157، 161، 175، 193، 194، 198.

الونشريسي (صاحب المعيار): 72، 73،

76.

(ي)

يعقوب بن عبد الحق (السلطان المريني):

122.

اليفرني (مؤلف النزهة): 120.

يوسف (أبو الحجاج النصري): 120.

يوسف الثالث النصري: 104، 173.

يتيمة الدهر: 129، 135.

وَلَرُّ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِي / الْجَيْبُ الْمَسِينِي

شارع الصوراتي (المعماري) — الحمراء — بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 — ص.ب. 113-5787 بيروت — لبنان

الرقم 1985/4/1000/59

التنفيذ: كومبيوترايب في الصف الطباعة الإلكترونية

الطباعة: مؤسسة نزيه كركي

المحتويات

7	تقديم
9	الفصل الأول: من هو البسطي
51	الفصل الثاني: كفاحه في سبيل العيش
95	الفصل الثالث: صلاته بمعاصريه
165	الفصل الرابع: غيرته على الدين والوطن
185	الفصل الخامس: حالة الخطط الدينية والاجتماعية في عصره ...
215	الفصل السادس: بين الجدّ والهزل
229	خاتمة: قيمة ديوانه

Este libro es una lectura documentada de un diwân manuscrito unico en su género. Se trata del diwân de al-bastî, último poeta de al-andalus, el cual vivio en el siglo quince y fué testigo de los acontecimientos de la caída del reino de Granada.

Se parece mucho a unas Memorias y su valor es polifacético. Es un documento histórico que descubre aspectos desconocidos del fin de la época musulmana en al-Andalus, siendo un espejo que refleja la vida social de Baza en particulas y la del reino de Granada en general. Tambien es un documento literario que evidencia el nivel de la poesia árabe que se queda viva hasta la caída de Granada. En resumidas cuentas, es en árabe una version única de los hechos que solo se conocen hasta hoy muy poco y á traves de su version en castellano.

AL - BASTI

EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS

POR

MUHAMMED BEN CHRIFA



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

PUBLISHING-PRINTING-DISTRIBUTION

MUHAMMED BEN CHRIFA

AL-BASTI

EL ULTIMO POETA DE AL-ANDALUS



DAR AL-GHARB AL-ISLAM